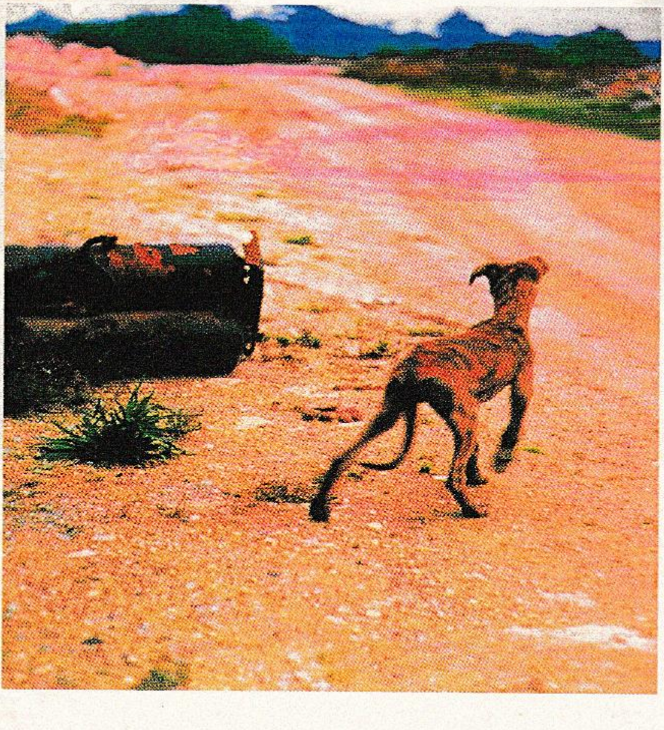
ج. م كويتزي

خزي

الرواية الحائزة على جائزة Booker Prize لعام ١٩٩٩



ترجمة: أسامة منزلجي

خزي

* خزي (رواية)
* ج. م كويتزي
* الطبعة الأولى 2002
* دار الجندي للنشر والتوزيع
* دار الهفاف للنشر والتوزيع
سورية - دمشق - هاتف: 3317019
ص. ب: 33418 فاكس 3317008

* موافقة وزارة الإعلام على الطباعة:
رقم 40191 تاريخ 2001/11/29

ج. م كويتزي

خزي

رواية حائزة على جائزة بوكر لعام 1999

ترجمة: أسامة منزلجي

واحد

كان الجنسُ، بالنسبة إلى رجلٍ مثله، في الثانية والخمسين من عمره، ومُطلَّق، مُشكلةً وجد لها حلاً مناسباً. ففي فترات بعد ظهر أيام الخميس يتوجه بسيارته إلى غرين بوينت. وعند الساعة الثانية بالضبط يضغط الجرس عند مدخل ويند سور مانجنيز، ويُعلن اسمَه، ويدخل. على باب الشقة رقم 113 تكون ثريا في انتظاره. يتوجه مباشرة إلى غرفة النوم، ذات الرائحة الذكية والإضاءة الخافتة، ويخلع ملابسه. تظهر ثريا من الحمّام، تُسقِط مبذلها عنها، وتندسّ في السرير إلى جانبه. تسأله «هل اشتقت إليّ؟»، يجيب «أنا دائما مشتاق إليك». يداعب جسدها ذا السُمرة العسلية، الذي لم تترك عليه الشمس أثرها؛ يمدّدها على طولها، يقبّل ثدييها؛ ويتضاجعان.

ثريا طويلة القامة ونحيلة، شعرها طويل وفاحم، وعيناها سوداوان رقراقتان. عملياً هو في عمرٍ متقدّمٍ بحيث يصلح أن يكون والدها؛ ولكن، عملياً، يمكن للرجل أن يكون أباً منذ سن الثانية عشرة. إنه زبون عندها منذ أكثر من عام، ويجدها مُرضية تماماً. في صحراءِ الأسبوعِ أصبح يوم الخميس واحةً من الـ *luxe et volupte* (الترف والمتعة الحسّية).

في السرير ثريا لا تسرف في التعبير عن انفعالاتها. مزاجها في الواقع هادئ وطيّع. آراؤها في مجملها متزمتة بصورة غريبة. تشعر بالتأذّي إذا ما كشفت السائحات عن أثدائهن (تسمّيها «ضروعهن») علناً على الشواطئ؛ وتعتقد أنه ينبغي جمع المشرّدين وتشغيلهم في كنس الشوارع. وهو لا يسألها كيف توفّق بين آرائها ومسار عملها.

لأنه يستمتع بها، ولأن استمتاعه لا ينضب، أخذ يتعلّق بها، مُعتقداً أنّ هذا التعلّق متبادل إلى حدٍ ما. قد لا يكون التعلّق حباً، لكنه على الأقل شبيه به. ولأن كلاً منهما كانت له بدايةُ حياةٍ مُخفقة، فإن الاثنين محظوظان لأن كلاً منهما عثر على الآخر.

إنه يعي أن عواطفه راضية، بل ومفتونة. إلا أنه لا يكف عن التشبّث بها.

مقابل جلسةٍ مدّتها تسعون دقيقة يدفع لها 400 راندا[1]، يذهب نصفها إلى وكالة «المرافقات السرّية». يبدو مؤسفاً أن يذهب كل ذلك المقدار إلى «المرافقات السرّية». لكنَّ الوكالةَ تملك الشقة رقم 113 وشققاً أخرى في ويند سور مانجينز؛ وبمعنى من المعاني تملك ثريا أيضاً، هذا الجانب منها، هذا العمل.

عبثَ في ذهنهِ مع فكرةِ الطلبِ منها أن تقابله في وقت فراغها. إنه يحبُ أن يقضي أمسيةً معها، وربما حتى ليلة كاملة. ولكن ليس صباح اليوم التالي. إنه يعرف نفسه معرفة جيدة بحيث لا يحتجزها حتى صباح اليوم التالي، حين سيكون من فرطِ الإحساس بالبرودة، والتجهّم وبضيق الصدر بحيث لايرغب في أن ينفرد بنفسه.

هذا هو مزاجه. ومزاجه لن يتغيّر؛ إنه أكبر سناً من أن يحدث له ذلك، ومزاجه ثابت، مستقر. والجمجمة ومن بعدها المزاج هما الجزآن الأقسى في الجسم.

اتبع مزاجك. هذا ليس فلسفة، ولن يَخلعَ عليه هذا اللقب الرفيع. إنه قاعدة، أشبه بقاعدة القديس بنيدكت[2].

---

(1) الراند: العملة الرسمية في جنوب أفريقيا.
(2) قاعدة القديس بنيدكت: أساس نظام الأديرة الغربية. قوامها الحياة الجماعيّة مع العمل والصلاة.

صحّته متينة، وذهنه صافٍ. مهنته هي، أو كانت، عالِمٌ لُغوي، وما زال ينهمك، بشكل متقطّع، في المجال العلمي. يعيش ضمن إمكانات دخله، وضمن حدود مزاجه، وضمن حدود وسائله العاطفية. أهو سعيد؟ بأغلب المعايير، نعم، يعتقد أنه كذلك. إلا أنه لم ينسَ الكورس الأخير من مسرحية «أوديب» الذي يقول: لا تْسَمِّ أي إنسان سعيداً إلا بعد أن يموت.

في مجال الجنس لم يكن مزاجه، على الرغم من حِدَّتِهِ، مشبوباً. ولو أن بيده أن يختار رمزاً مقدساً، لاختار الأفعى. إنه يتخيّل المضاجعة التي بينه وبين ثريا أشبه بجماع الأفاعي: مطوّلاً، مستغرقاً، لكنه مجرّد، وجاف، حتى في أشدّ لحظاته حرارة.

أيكون رمز ثريا المقدّس هو أيضاً الأفعى؟ لا ريب في أنها مع الرجال الآخرين تصبح امرأة أخرى: *la donna e mobile* (المرأة تتغيّر). ولكن عند مستوى المزاج لا يمكن لانجذابها إليه أن يُلفَّق.

على الرغم من أنها امرأة فاجرة بحكم مهنتها فإنه يثق فيها، ضمن حدود. خلال فترات اجتماعهما يتحدّث معها بقدرٍ من الحرية، بل إنه أحياناً يُفضي لها بما في سريرته. إنها تعرف وقائع حياته، وسمعت قصتيّ زيجتيه الاثنتين، وتعرف بأمر ابنته وصروف الزمان معها. وتعرف الكثير من آرائه.

ثريا لا تكشف عن حياتها خارج أسوار ويندسور مانجينز. وهو متأكّد من أن اسم ثريا ليس اسمها الحقيقي. ثمة إشارات تدلّ على أنها حملت بطفلٍ، أو أطفال. وقد لا تكون محترفة أبداً. لعلها تعمل لصالحِ الوكالةِ فقط في يومٍ واحدٍ أو يومين في الأسبوع. وخلال الأيام الباقية تعيشُ حياةً محترمةً في الضواحي، في رايلندز أو أثلون. وهذا سلوك غريب بالنسبة إلى مذهبها، غير أن كل شيء ممكن في هذه الأيام.

عن عمله هو لا يكاد يأتي على ذكرِ أي شيء، لأنه لا يريد أن يُضجِرَها. إنه يكسب رزقه في جامعة الكيب التقنية، التي كانت تسمّى

سابقاً كلية جامعة كيب تاون. أثناء عمله كبروفيسور في اللغات الحديثة، بما أن الكلاسيكيات واللغات الحديثة قد أُلغيت كجزءٍ من حركةِ العقلنة الكبرى، كان بروفيسوراً مساعداً في مادة الاتصالات. وككل الشخصيات العقلانية البارزة، يُسمح له أن يقيم دورة في اختصاصٍ واحد كل عام، بغضّ النظر عما تقوَله اللوائح، لأن ذلك يفيد المعنويات. في هذا العام سيُقيم دورةً حول الشعراء الرومانسيين. بالنسبة إلى الباقين يعلّمهم اتصالات 101، «مهارات الاتصال» والاتصالات 201 «مهارات الاتصال المتقدّمة».

على الرغم من أنه يكرّس ساعات طوالاً من كل يوم لفرعه العلمي الجديد، فإنه يجد مقدمته المنطقية، كما هو مبيّن في دليل الاتصالات 101، منافية للعقل: «لقد أوجدَ المجتمعُ الإنساني لغةً لكي نتبادل أفكارنا، ومشاعرنا ونوايانا». ورأيه الخاص، الذي لا يصرّح به، هو أنَّ أصل الكلام هو الغناء، وأصل الغناء يكمن في الحاجة إلى ملء الروح الإنسانية الشاسعة والخاوية بالصوت.

خلال مسيرته المهنية التي تعود إلى ما قبل ربع قرن من الزمان نشر ثلاثة كتب، لم يُثِرْ أيٌّ منها ضجة أو أقل أثر: الأول حول الأوبرا (عنوانه «*بواتّو*[1] *وأسطورة فاوست: أصل أوبرا موفيستوفيليه*»)، والثاني حول الرؤيا بوصفها رمزاً جنسياً (عنوانه «*رؤيا ريتشارد للقديس فكتور*») والثالث عن ووردسوورث والتاريخ (عنوانه «*ووردسوورث وعبء الماضي*»).

خلال السنوات الماضية كان يفكّر في تأليف كتاب عن بايرون. في أول الأمر حسب أنه سيكون كتاباً عادياً، كتاباً نقدياً، كغيره من الكتب. لكن فورات حماسته لتأليفه أقعدها الضجرُ عن إحرازِ أي تقدّم. والحقيقة هي أنه سَئِمَ النقدَ، سئم النثرَ الذي يُقاس بالياردة. إن ما يرغب في تأليفه هو

(1) آريغو بواتو (1842 - 1918): موسيقي إيطالي، وشاعر، وكاتب نصوص أوبرات. له أوبرا «موفيستوفيليه». كتب نصوص أوبرات للموسيقار فيردي: «عطيل» و «فولستاف» - المترجم.

الموسيقى: أوبرا «*بايرون في إيطاليا*» تكون تأمّلاً في الحب بين الجنسين في قالب أوبرا الغرفة.

أثناء مواجهته لطلابه في المحاضرة، تومضُ في ذهنهِ عباراتٌ موسيقية، نغمات، مقاطعُ من أغنيةٍ من عملٍ لم يُكتب بعد. إنه لم يكن قط أستاذاً جيداً؛ إنه، في هذه المؤسسة العلمية المحوّلة وأيضاً، بالنسبة إليه، العاجزة، أشد ما يكون في غير مكانه. ولكن أيضاً، هذا هو حال أقرانه من زملائه الآخرين من أيام الشباب، مثقلون بتنشآت لا تتلاءم طبيعتها مع المهام الموكلة إليهم؛ إنهم موظفون في عصرِ ما بعد الدين.

لأنه لا يكنُّ أي احترام للمادة التي يدرّسُها، فهو لا يترك أي أثر على طلابه. إنهم ينظرون إليه وهو يتكلم وكأنهم لا يرونه، وينسون اسمه. لا مبالاتهم تغيظه أكثر مما يعترف به. ومع ذلك فهو يقوم بالتزاماته على أكمل وجه اتجاههم، واتجاه آبائهم، والدولة. شهراً بعد شهر يعدُّ واجباتهم المدرسية، ويجمعها، ويقرأها، ويضع لها حواشي، مُصحّحاً أخطاءهم في الترقيم، والتهجئة واستعمال الألفاظ، مستجوباً نقاشاتهم الضعيفة، مذيّلاً كل ورقة بنقدٍ موجزٍ ومتروٍ.

إنه يواصل التدريس لأنه يزوّده بأسباب رزقه؛ أيضا لأنه يعلّمه التواضع، ويعيده إلى مكانه في العالم. وهو يدرك سخرية القدر: أي أن مَنْ يأتي ليعلّم يتعلَّم أقسى الدروس، في حين أن الذين يأتون ليتعلّموا لا يتعلمون أي شيء. إنها سِمة تتّصف بها مهنته التي لا يصرح بها لثريا. وهو يشكُّ في وجود مثل هذه المفارقة في مهنتها.

* * *

في مطبخ الشقّة في غرين بوينت يوجد إبريق لصنع الشاي، وأكوابٌ من البلاستيك، وبرطمان من القهوة الفورية الإعداد، وطاس من السكّر الناعم. الثلاجة تحتوي مخزوناً من الماء في زجاجات. وفي الحمّام هناك قطعة

صابون وكومة من المناشف، وفي الخزانة مفارش أسرّة نظيفة. ثريا تحتفظ بمساحيق تجميلها في حقيبةٍ معدّةٍ لفترات الغياب القصيرة. إنها مكان لتمضية لقاء غراميّ، لا أكثر، عمليّ، ونظيف وحسن التنظيم.

في المرة الأولى التي استقبلته ثريا كانت تضع أحمر شفاه بلونٍ قرمزيّ وتظليلاً ثقيلاً للعينين. وبما أنه لا يحب لزوجة مساحيق التجميل، طلب منها أن تزيلها. رَضَخَتْ، ومنذ ذلك الحين لم تعد إلى وضعها. إنها سريعة التعلُّم، ومسايرة، ومرنة.

إنه يحب أن يقدِّم لها هدايا. وفي عيد رأس السنة أهداها سواراً مطليّاً، وفي عيد المسلمين قدَّم لها تمثالاً صغيراً لطائر البلشون من الملكيت كان قد لفَتَ نظرها في أحد محال بيع التحف. إنه يستمتع بسرورها، الصافي في صدقه.

يدهشه أن تسعين دقيقة في الأسبوع بصحبةِ امرأةٍ تكفي لإسعاده، وهو الذي كان يعتقد أنه بحاجة إلى زوجة، وبيت، وزواج. وقد اتّضح أن حاجاته في المقام الأول خفيفة جداً، خفيفة وسريعة الزوال ـ أشبه بحاجات فراشة. لا انفعال، أو ليس غير أعمقه، وأشدّه إبهاماً: كصوتِ جهيرٍ متكرِّر يعبِّر عن الرضى، كهمهمة حركة المرور التي تهدهد ساكن المدينة حتى ينام، أو كصمت الليل بالنسبة إلى ساكن الريف.

إنه يفكّر في إيما بوفاري، عائدةً إلى البيت متخمةً بالرضى، تكسو الغشاوة عينيها، بعد مضاجعة متهوّرة. «*إذن هذا هو النعيم!*» تقول إيما. تتأمل نفسها معجَبَةً في المرآة. «*إذن هذا هو النعيم الذي يتحدّث عنه الشعراء!*». ولو أن إيما المسكينة الهائمة قُدِّرَ لها أن تشقَّ طريقها إلى كيب تاون، لصَحِبَها بعد ظهر يوم خميس ليريها كيف يكون النعيم: نعيم معتدل، نعيم مخفّف.

* * *

وفي صباح ذات يوم سبت تغيَّر كل شيء. إنه في المدينة بصددِ قضاءِ

عملٍ ما؛ يسير في شارع سينت جورج وإذا بعينيه تقعان على قامةٍ ممشوقة تتقدّمه وسطَ الحشدِ. إنها ثريا، ولا ريب في ذلك، يسير إلى جانبيها طفلان، صبيّان. يحملون لفائف؛ كانوا يتبضّعون.

تردَّد، ثم تبعهم عن بُعد. دخلوا نُزُل كابتن دوريغو الذي يقدِّم الأسماك. الولدان لهما شعر ثريا اللامع وعيناها السوداوان. لا يمكن أن يكونا إلا ولديها.

تابع المسير، ثم دار على عقبيه، ومرَّ من أمام المنزل للمرة الثانية. الثلاثة جالسون على مائدة عند النافذة. وخلال برهة من الزمن قابلت عيناه عينيّ ثريا عبر الزجاج.

لطالما كان سلوكُه سلوكَ رجلٍ يسكنُ المدينةَ، يشعرُ بالألفة وسطَ دفقِ حشدِ الأجسادِ حيث يتسلّل إلهُ الحبِ خِلسةً وتومضُ النظراتُ الخاطفةُ كالسهام. لكنه على الفور ندمَ على تلك النظرةِ السريعةِ التي ومضتْ بينه وبين ثريا.

في موعدهما المعتاد يوم الخميس التالي لم يأتِ أيٌّ منهما على ذكرِ الحادثةِ. ومع ذلك، ظلّتْ الذكرى تخيِّمُ عليهما مُشيعَةً جواً متوتراً. إنه لا يرغب في تعكير ما يمكن أن تسمّيه ثريا حياةً مزدوجةً متقلقلة. إنه يحبِّذ تماماً الحياة المزدوجة، أو الثلاثية الأطراف، حيوات تُعاشُ داخل شُقق. والحق أنه إن كان يضمرُ أي مشاعر فهو يضمر لها حناناً غظيماً. يودُّ لو يقول لها «إن سرَّكِ مؤتَمَن عندي».

لكن لا هو ولا هي قادران على طرح ما حدث جانباً. إن الصبيّينِ الصغيرين حاضران بينهما، يلعبان بحركاتٍ هادئةٍ كظلّينِ في زاوية الغرفة حيث تتضاجع أمهما مع رجل غريب. إنه وهو بين أحضان ثريا يصبحُ، فترة وجيزة، أبيهما: أباً بالتنشئة والتربية، زوج أمهما، ظلَّ أب. بعد ذلك، بات يشعر وهو يغادر سريرها بعيونهما تلقي نظرةً وامضةً عليه، خفيّةً، فضوليّة.

انتقل تفكيره، رغماً عنه، إلى الأب الآخر، الأب الحقيقي. تُرى، هل لديه أدنى فكرةٍ عمّا تفعله زوجته، أم أنه اختار نعيم الجهل؟

من ناحيته هو، ليس لديه أبناء ـ لقد أمضى فترة طفولته وسط عائلةٍ من النساء. وبعدما رحلت الأم والخالات، والأخوات، استعاض عنهن مع مرور الوقت بالخليلات، والزوجات، وابنة. وقد جعلَتْ صُحبةُ النساءِ منه عاشقاً للنساءِ وأيضاً، إلى حدٍّ ما، زيرَ نساء. كان بطولِ قامته، وعظامِهِ القوية، وبشرتِه الزيتونيّة، وشعرهِ المُرسل، يستطيع دائماً أن يعتمد على قدرٍ من الجاذبيّة. فإذا نظر إلى امرأةٍ بطريقة معيّنةٍ، بقصدٍ معيّنٍ، فسوف تبادله النظر؛ كان في استطاعته أن يعتمد على ذلك. هكذا كان يعيش؛ ظل هذا، على مدى سنين، وعقود، العمودَ الفقري لحياته.

وذات يوم انتهى هذا كلّه. ودون سابق إنذار غادرَتْه قدراته. والنظراتُ التي كانت ذات يوم تستجيب لنظراته، أصبحت تنزلق، وتمضي، وكأنها لا تراه. بين ليلةٍ وضحاها أمسى أشبه بشبح. إذا رغب في امرأةٍ كان عليه أن يتعلّم أن يلاحقها؛ وغالباً، أن يشتريها، بطريقةٍ أو بأخرى.

كان يعيش فورةً قلقةً من التشوُّش العارم. كان يقيم علاقاتٍ جنسيّة مع زوجات زملائه من المدرّسين؛ ويلتقط سائحات من الحانات على الشواطئ أو من نادي أليتاليا؛ وكان يضاجع العاهرات.

تعرّف إلى ثريا في غرفة جلوسٍ صغيرةٍ مُعتمةٍ بعيداً عن غرفة المكتب الأمامية «للمرافقات السرّية»، حيث تنسدل ستائر فينيسيّة على النوافذ، ووضِعَتْ أصص النباتات في الزوايا، وكانت رائحة الدخان البائتة ما تزال تعبق الجو. كانت في لوائحهم مُدْرَجَةً تحت صفة «مجلوبة». والصورة الفوتوغرافية تمثّلها وهي تضع في شعرها زهرة الآلام الحمراء وتُظْهِرُ أدقَّ الخطوط المحيطة بزوايا عينيها. يقول الشرح «لفترات بعد الظهر فقط». وهذا ما دفعه إلى اتخاذ قراره: الوعد بغرف موصدة النوافذ، وملاءات ممتازة، وساعات مسروقة.

منذ البداية كان كل شيء مُرضياً، تماما كما أراد. إصابة مباشرة. بعد مرور سنة لم يعد بحاجةٍ إلى العودة إلى الوكالة.

ثم كانت الحادثة التي وقعت في شارع سينت جورج، وشعور الغربة الذي تلى ذلك. وعلى الرغم من أن ثريا ظلّت تلتزم بمواعيدها، إلا أنه شعر بتزايد البرودة وذلك حين تحوّلت إلى مجرّدِ امرأة أخرى وأصبح هو مجرد زبون آخر.

كان يحمل فكرةً لاذعةً حول الطريقة التي تتحدّثُ بها العاهرات فيما بينهن عن الرجال الذين يترددون عليهن، خاصة الرجال الأكبر سناً. يحكين حكايات، يضحكن، لكن أيضاً تسري في أجسادهن قشعريرة، كتلك التي تسري فيهن لدى مرأى صرصار في حوض الغسل في منتصف الليل. وقريباً سوف يصبح مثارَ قشعريرة، بشكلٍ يبيّن صعوبة إرضائهن وخبثهن. إنه قدرٌ لا يستطيع الإفلات منه.

في يوم الخميس الرابع بعد وقوع الحادثة، وبينما هو يغادر الشقة، جَهَرَتْ ثريا بالتصريح الذي كان يعدُّ نفسه لمواجهته. «أمي مريضة. سوف آخذُ إجازةً لأعتني بها. لن أكون موجودة هنا خلال الأسبوع القادم».

«هل سأراك في الأسبوع الذي يليه؟»

«لست متأكدة. الأمر يتعلّقُ بتحسُّن صحتها. الأفضل أن تتّصل بالهاتف أولاً».

«الرقم ليس معي».

«اتصل بالوكالة. هم يعرفونه».

انتظر بضعة أيام، ثم اتصل هاتفياً بالوكالة. ثريا؟ ثريا تركتنا، يقول الرجل. كلا، لا نستطيع أن نصلك بها، هذا ضد قوانين الدار. هل ترغب في أن نعرِّفك إلى مضيفة أخرى من عندنا؟ لدينا الكثير من المجلوبات لتنتقي منهن ـ ماليزيّة، تايلانديّة، صينيّة، كما تشاء.

أمضى أمسيةً مع ثريا أخرى - يبدو أن اسم ثريا أصبح *nom de commerce* (اسماً تجاريّاً) رائجاً - في غرفة فندق في شارع لونغ. هذه كانت لا تتجاوز الثامنة عشر من عمرها، غير متمرّسة، ووجدها فظّةً. قالت وهي تنزع عنها ثوبها «وماذا تعمل؟». قال «في الاستيراد والتصدير». قالت «والله!».

كان في قِسْمِهِ سكرتيرة جديدة. صحبها لتناول طعام الغداء في مطعم يقع على مسافةٍ عاقلة من حَرَم الجامعة، وراح ينصت، أثناء تناول سلطة القريديس، إلى شكواها من مدرسة ولديها. إن مروّجي المخدرات يحومون حول باحةِ المدرسة، كما تقول. والبوليس لا يفعل أي شيء. وطوال السنوات الثلاث الأخيرة سجّلت مع زوجها اسميهما على لائحة القنصلية النيوزيلندية بغية الهجرة. «إن حياة أمثالكم كانت أسهل. أقصد، مهما كانت طبيعة الموقف، على الأقل عرفتم موطئ أقدامكم».

قال «أمثالنا؟ مَنْ أمثالنا؟».

«أقصد جيلكم. في هذه الأيام كلٌّ ينتقي القوانين التي يريد أن يرضخ لها. هذه فوضى. كيف يمكنك أن تنشئ أطفالاً بينما الفوضى تعمُّ كل شيء من حولك؟»

كان اسمها «دون». حين خرج معها للمرة الثانية عرّجا على منزله ومارسا الجنس. كان عملاً فاشلاً. أخذت تقاوم وتنشب أظافرها فيه، وجاهدت كي تفور بالإثارة حتى أنه في نهاية المطاف نفر منها. أعارها مشطاً، وأعادها بالسيارة إلى حرم الجامعة.

بعد ذلك صار يتجنّبها، ويحرص على الابتعاد عن موقع المكتب الذي تعمل فيه. وفي المقابل كانت ترميه بنظراتٍ موجعة، ثم أخذت تعامله بازدراء.

كان لابد له أن يستسلم، أن يكفّ عن ممارسة اللعبة.

تساءل، تُرى، في أي عمر خصى أوريغن[1] نفسه؟ ليس هذا بالحل الحسن، غير أن التقدُّم في العمر ليس أمراً حسناً. على الأقل، فليتأهّب للتفكير في القيام بالعمل المناسب لرجلٍ عجوز: أن يعدَّ العِدَّة للموت.

هل يمكن أن يتقدَّم من طبيب ويطلب منه ذلك؟ مجرد إجراءِ عملية جراحية بسيطة، حتماً: إنهم يُجرونها على الحيوانات في كل يوم، والحيوانات تنجو وتعيش، إذا ما تجاهل المرء بقيةً من حزنٍ. مجرد عملية بتر، ثم ربط: مع مخدِّر موضعي ويدٍ ثابتة والقليل من البلغم يمكن للمرء حتى أن يُجريها بنفسه، بالاسترشادِ بكتابٍ مدرسي. رجل جالس على كرسي متحرِّك يقوم بخِصاء نفسه: مشهد قبيح، لكنه ليس أشدّ قبحاً، من وجهة نظر معيّنة، من مشهد الرجل نفسه وهو يحاول مضاجعة جسد امرأة.

ثريا ما زالت موجودة. يجب أن يختم هذا الفصل. بدل ذلك، لجأ إلى وكالة للتحريين واستأجر أحدهم ليتعقَّب خطاها. بعد مضيّ بضعة أيام عرف اسمها الحقيقي، وعنوانها، ورقم هاتفها. وفي التاسعة من صباح أحد الأيام اتّصل هاتفياً، في وقت يكون الزوج والأطفال في الخارج. قال «ثريا؟ أنا ديفيد. كيف حالك؟ متى أستطيع أن أقابلك من جديد؟».

ساد صمت طويل قبل أن تتكلم. قالت «أنا لا أعرفك. أنت تتحرّش بي وأنا في بيتي. أطلب منك ألا تتّصل بي هاتفياً أبداً، أبداً»

«تطلب». تقصد «تأمرني». فاجأَتْهُ حِدَّتها: لم يعهد هذا منها من قبل. ولكن مع ذلك، ما الذي يمكن لحيوان مفترس أن يتوقَّع حين يقتحم وجارَ ثعلبةٍ يأوي جراءها؟

علَّق سمّاعة الهاتف. شعر بظلٍّ من الحسد يخيِّم عليه من الزوج الذي لم يره أبداً.

---

(1) أوريغن (185؟ - 254؟ م): لا هوتي مسيحي. ولد في الإسكندرية.

اثنان

إنّ الأسبوع الذي يخلو من فسحة يوم الخميس لا شكل له كما الصحراء. هناك أيام تمرُّ عليه لا يدري ماذا يفعل خلالها.

إنه يقضي مزيداً من الوقت في مكتبة الجامعة، يقرأ كل ما يستطيع أن يعثر عليه حول حَلَقة الأشخاص المحيطين ببايرون الأكثر اتساعاً، مضيفاً إلى الملاحظات التي ملأت للتوّ ملفّين ضخمين. إنه يستمتع بهدوءِ أولِ المساء الذي يسود قاعةَ المطالعةِ، ويستمتع بالسير إلى المنزل على قدميه: بهواء الشتاء المنعش، والأشجار الرطبة، البرّاقة.

وفي مساء ذات يوم جمعة، وفي طريق عودته إلى المنزل، سالكاً الطريق الطويلة التي تخترق حدائق الكلّيّة القديمة، لاحظ أن طالبة لديه تسير أمامه على الدرب. اسمها ميلاني آيزاكس، من دورة الشعراء الرومانسيين. ليست من أفضل الطلاب لكنها أيضاً ليست أسوأهم: على قدرٍ من الحذق، ولكنها لا تشارك.

كانت تسير بتوانٍ؛ سرعان ما لحق بها. قال «مرحباً».

ردَّت عليه بابتسامة، وهي تهزُّ رأسها. كانت ابتسامتها تنمُّ عن خبثٍ وليس عن حياء.

إنها ضئيلة الحجم ونحيلة، ذات شعر مقصوص قصيراً، وعظام وجنتين واسعتين كوجنات الصينيين، وعينين نجلاوين، سوداوين. دائماً ترتدي

ملابس تلفتُ النظرَ. وفي ذلك اليوم كانت ترتدي تنورة شديدة القِصَر لونها أحمر داكن وسترة صوفيّة بلون الخردل، ورداءً مُحكَماً أسود اللون؛ تضع حلية رخيصة ذهبية على حزامها تتلاءم مع الكرات الذهبيّة لقرطيها.

تولّه بها باعتدالٍ. لا شيء مهم: إنها مجرد عبارة تمرُّ مرور الكرام حين لا يقع في حبٍّ إحدى طالباته. كيب تاون: مدينةٌ معجزةٌ في الجمالِ، بل في فيضِ الجمال.

هل تعلم أنه يضع عينه عليها؟ ربما. النساء حسّاسات حيال ذلك، حيال ثِقَل التحديقِ المشتهي.

كانت تُمطِر؛ ومن القناتين على جانبيّ الطريق كان يُسمع خرير المياه.

علَّقَ قائلاً «إنه فصلي المفضَّل، الوقت المفضَّل من النهار. هل تقطنين في الجوار؟».

«بعد خط سكة الحديد. أتقاسَمُ شقةً».

«أنتِ من أهالي كيب تاون؟».

«لا. نشأتُ في مدينة جورج».

«أنا أسكن في مكانٍ قريب. هل تقبلين دعوتي لشرب كأس؟»

صَمْتٌ، حَذَر. «أوكيه. ولكن يجب أن أعود في السابعة والنصف».

من الحدائق انتقلا إلى الحيّ السكنيّ الهادئ حيث كان يعيش منذ اثنتي عشرة سنة، أولاً مع روزاليند، ثم، بعد طلاقهما، وحده.

فتح بوّابة الأمن، ثم فتح الباب، وقاد الفتاة إلى الداخل. أدار مفتاح الأنوار، وأخذ حقيبتها منها. كانت قطراتٌ من المطرِ عالقةٌ في شعرها. حدّق إليها، مبدياً افتتانه الصريح بها. أخفضت عينيها، راسمةً الابتسامةَ الصغيرةَ الغامضة وربما حتى اللعوب التي رسمَتْها قبل قليل.

في المطبخ فتح زجاجة «ميرلست» وأعدَّ البسكويت والجبن. لدى

عودته كانت واقفة عند رفوف الكتب، وقد أمالت رأسها إلى أحد الجانبين، تقرأ العناوين. أدار الموسيقى: خماسيّة الكلارينت لموتسارت.

نبيذ، وموسيقى: طقسٌ يمثّله الرجال والنساء كلٌّ على الآخر. لا بأس في الطقوس، لقد اختُرِعَتْ لتمهّد المسالك الوعرة. لكن الفتاة التي أحضرها إلى منزله ليست فقط أصغر منه سناً بثلاثين سنة: إنها طالبة، طالبة عنده، وتحت وصايته. ومهما يحدث بينهما الآن، سوف يضطران إلى أن يتقابلا من جديد كأستاذٍ وطالبة. هل هو مستعدٌّ لذلك؟.

سألها «هل تستمتعين بالدورةِ الدراسيّة؟».

«أحببتُ بليك. أحببتُ كتابات وندرهورن *wonderhorn*».

«تقصدين *wunderhorn*».

«لم يعجبني ووردسوورث كثيراً».

«ينبغي ألا تصرّحي بهذا لي. إن ووردسوورث كان أحد معلّميَّ».

هذا صحيح. فحسبَ ما يذكر، كان صدى أنغام «*المقدّمة*»[1] يرجّع داخله.

«ربما مع نهاية الدورة أكون قد استحسنته أكثر. ربما سيستحوذ عليّ».

«ربما. ولكن حسب تجربتي فإن الشعر إما أن يجد صدى لديك من القراءة الأولى أو لا يجد. إنه ومضة رؤيا وومضة استجابة. كالبرق. كالعشق».

كالعشق. أما زال الشبان يعشقون يا ترى، أم أن تلك الآليّة أضحت الآن مُهمَلة، لا ضرورة لها، غريبة، مثل قطارِ البخار؟ لقد أصبح بعيداً عن الواقع، عتيقَ الطراز. لعل العشق أضحى عتيق الطراز ثم عاد فراجَ من جديد مرات عديدة، وهذا لا يهمه.

---

(1) «المقدمة» ديوان من الشعر للشاعر الانكليزي وورد سوورث.

سألها «وأنتِ، ألا تكتبين شعراً؟».

«فعلتُ ذلك أيام المدرسة. لم أكن موهوبة كثيراً. والآن لم يعد لدي الوقت»

«وماذا عن الشغف؟ أليست هناك مؤلفات أدبيّة تستحوذ على شغفك؟»

قطّبت ما بين حاجبيها استغراباً من الكلمة. «درسنا أدريين ريتش وتوني موريسون في السنة الثانية. وأليس ووكر. كنت منهمكة بدراستهم. لكنني لا أستطيع أن أصف هذا بالضبط بأنه شغف».

إذن فهي ليست من أصحاب الشغف. هل هي، بأشدّ الأساليبِ مداورةً، تحذّره من الاقتراب منها؟.

قال: «سوف أحضّر عشاءً سريعاً. ألا تشاركينني؟ سيكون بسيطاً جداً».

بدا عليها الارتياب.

قال: «هيا! وافقي!».

«أوكيه. ولكن عليّ أولاً أن أجري اتصالاً هاتفياً».

استغرق الاتصال أطول مما توقّع. كان يسمع من المطبخ غمغمات، وفترات صمت.

لاحقاً سألها: «ما هي خططك للمستقبل؟».

«مجال المسرح والتصميم الفني. إنني أحضِّر دبلوماً في المسرح».

«ولماذا تأخذين دورة في الشعر الرومانسي؟».

تفكَّرتْ، وهي تغضِّن أنفها. قالت «لقد انتقيتها بشكلٍ رئيسي من أجل جوّها العام. لم أرغب في دراسة شيكسبير من جديد. لقد أخذنا شيكسبير في العام الفائت».

كان ما حضّره سريعاً للعشاء بسيطاً حقاً: سمك آنشوفة مع معكرونة التاغلياتل وصلصة الفطر. تركها تقطّع له الفطر. وفيما عدا ذلك جلستْ على مقعد بلا ظهر، تراقبه وهو يطبخ. أكلا في غرفة الجلوس، وفتح زجاجة نبيذ أخرى. أكلتْ بلا تحفُّظ. إنها تتمتّع بشهيّة صحّية، بالنسبة إلى ضآلة حجمها.

سَألتْ «هل دائماً تطبخ لنفسك؟».

«أنا أعيش وحدي. إذا لم أطبخ، لا أحد يطبخ لي».

«أنا أكره الطبخ. أعتقد أنه ينبغي عليّ أن أتعلَّم».

«لماذا؟ إن كنتِ حقاً تكرهينه، تزوجي من رجلٍ يجيدُ الطبخ»

معاً راحا يتخيّلان الصورة: الزوجة الشابة بملابسها الجريئة والحلى المبهرجة تجتاز الباب الرئيسي بخطى واسع. وتشمُّ الهواء بنفاد صبر؛ والزوج، السيد رايت (مناسب) الشاحب اللون، بمئزره، يحرِّك محتوى قدْرٍ في المطبخ المشبَّع بالبخار. صورٌ مقابلة: تعبِّر عن ملهاة بورجوازيّة.

أخيراً قال، حين أصبح الطاسُ فارغاً، «هذا كل شيء. لا تَحْلية، إلا إذا رغبتِ في تفاحةٍ أو بعضَ اللبن المصفّى. آسف ـ لم أكن أعلم أني سأستقبل ضيفاً».

قالت، وهي ترشف آخر ما في الكأس، وتنهض واقفة: «كان شيئاً جميلاً. شكراً لك».

«لا ترحلي الآن»، وتناول يدها وقادها إلى الأريكة. «سأريكِ شيئاً. أتحبّين الرقص؟ لا أقصد أن ترقصي: أقصد الرقص»، وزلق شريط كاسيت في جهاز الفيديو. «إنه فيلم من صنع رجلٍ اسمه نورمن ماكلارن. فيلم قديم جداً. عثرت عليه في المكتبة. تفرّجي واعطني رأيك».

جلسا جنباً إلى جنب يتفرّجان. ثمة راقصان على خشبة مسرح عارية

يرقصان ويتنقلان مع الخطوات، صُوِّرا بكاميرا تصوير ستروبوسكوبيّة، كانت صورهما، وظلال حركاتهما، تنتشر من خلفهما كرفيف جناحين. إنه فيلم شاهده للمرة الأولى قبل ربع قرن من الزمان ولكن ما زالت تأسره لحظة الحاضر وماضي تلك اللحظة، السريعة الزوال، الحاضران في المكان نفسه.

كان يودُّ لو أن الفتاة تؤسر مثله. لكنه شعر أن ذلك لم يحدث.

لدى انتهاء عرض الفيلم نهضت الفتاة واقفة وأخذت تتجوّل في أنحاء الغرفة. رفعت غطاء آلة البيانو، وضربت على نغمة «دو» الوسطى. قالت «أتعزف؟».

«قليلاً.»

«كلاسيكي أم جاز؟».

«لا أعزف الجاز، آسف».

«هلاّ عزفتَ لي قليلاً؟».

«ليس الآن. ينقصني التدريب. في مرة أخرى، بعد أن نتعارف بشكلٍ أفضل».

ألقت نظرة متمعّنة إلى داخل غرفة مكتبه. قالت: «أتسمح لي بإلقاء نظرة؟».

«أديري مفتاح النور».

أدار مزيداً من الموسيقى: سوناتات سكارلاتي، موسيقى القطة[1].

قالت لدى خروجها: «لديك الكثير من مؤلفات بايرون. أهو المفضّل لديك؟».

(1) موسيقى القطة: هو لقب إحدى سوناتات دومينيكو سكارلاتي (1685 - 1757) على آلة الهربسيكورد، رقم 30. المترجم.

«إنني أؤلف عملاً عن بايرون. عن فترة وجوده في إيطاليا».

«أليس هو الذي مات شاباً؟».

«في السادسة والثلاثين. كلهم ماتوا شباناً. أو نضب معينهم. أو جُنُّوا واحتُجِزوا. لكن بايرون لم يمت في إيطاليا، بل في اليونان. ذهب إلى إيطاليا هرباً من فضيحة، وللاستقرار. واستقرَّ هناك. وأقام آخر علاقة حبّ له. لقد كانت إيطاليا محجّاً للإنكليز في تلك الأيام. كانوا يعتقدون أن الإيطاليين ما يزالون يحتفظون بفطرتهم، وأنهم أقلُّ تأثّراً بحصار التقاليد، وأشدّ اتّقاداً بالعاطفة».

قامت بجولة أخرى حول الغرفة. سألت: «أهذه زوجتك؟»، متوقّفة أمام صورة فوتوغرافية مؤطّرة موضوعة على طاولة تقديم القهوة.

«إنها أمي. أُخِذَتْ لها في شبابها».

«أنت متزوج؟».

«كنت. مرتين. لكني الآن لست متزوجاً». ولم يَقُل: حاليّاً أنا أتدبَّر أمري بما يتوفّر لي. ولم يقل: حالياً أنا أتدبّر أمري مع العاهرات. «هل أقدِّم لك مشروباً؟».

لم تكن بها رغبة في تناول مشروب، لكنها قَبِلَتْ جرعةً من الويسكي تُضاف إلى قهوتها. بينما هي ترشف، مال قليلاً ولمس وجنتيها. قال: «أنت فائقة الجمال. سوف أدعوك للقيام بعملٍ متهوِّر»، ولمسها من جديد. «ابقي. اقضي الليل معي».

تأمّلته عَبْر حافّة الكأس بنظرة ثابتةٍ. «لماذا؟».

«لأنه يجب أن تفعلي».

«ولماذا يجب عليَّ ذلك؟».

«لماذا؟ لأن جمال المرأة لا يخصّها وحدها. إنه جزء من الهِبة السخيّة التي تجلبها إلى العالم. ومن واجبها أن تتقاسمها»

كانت يده ما تزال ترتاح على وجنتها. لم تتراجع، لكنها أيضاً لم تستسلم.

«وما قولك إذا كنت قد تقاسمتها مع أحدهم للتو؟». كان يشوب نبرة صوتها أثرٌ من لُهاث. يجب دائماً التودّد إلى الإثارة: الإثارة، شيء سارّ.

«إذن عليك أن تتقاسميها على نطاقٍ واسع».

كلمات ناعمة، قديمة قِدَمَ الغواية. ومع ذلك في تلك اللحظة آمن بها. إنها لا تمتلك نفسها. الجمال لا يملك نفسه.

قال: «إننا نطلب من أجمل المخلوقات المزيد، وذلك لكي لا تذوي وردة الجمال أبداً».

لم تكن خطوةً موفّقة. لقد فقدت ابتسامتها سِمتها اللعوب، المتقلِّبة. والوزن الشعري، الذي قام إيقاعه ذات مرة بعملٍ جيد في صقل كلمات الأفعى، أصبح الآن يباعد ما بينهما فقط. ها قد عاد أستاذاً من جديد، المثقّف، حارس الذخيرة الثقافيّة. حطَّت كأسها. «يجب أن أذهب. حان وقت عودتي».

كانت السحب قد انقشعت، وتلألأت النجوم. قال وهو يفتح بوابة الحديقة «ليلة جميلة». لم ترفع بصرها. «هل أمشي معك حتى البيت؟»

«كلا».

«حسنٌ، تصبحين على خير». مدَّ يده، وضمَّ بها يدها. وللحظة شعر بثدييها الصغيرين ينضغطان عليه. ثم تملَّصت من عناقه وابتعدت.

ثلاثة

عند ذلك الحدّ كان يجب أن يُنهي الأمر. لكنه لم يفعل. في صباح يوم الأحد انطلق بسيارته إلى حرم الجامعة الخالي وولج مكتب القسم. ومن غرفة الملفات أخذ بطاقةَ انتسابها ونسخَ معلومات عن تفاصيل حياتها الشخصية: عنوان البيت، عنوانها في كيب تاون. ورقم الهاتف.

أدار الرقم. أجابه صوت امرأة.

«ميلاني؟».

«سأناديها. مَنْ المتكلِّم؟».

«قولي لها، ديفيد لري».

ميلاني - ميلودي (نغم): سجع مومسيّ. لا يَليقُ بها. حوِّلْ نبرة النُطق. تصبح *Melani*: الكئيبة.

«ألو؟»

من خلال تلك الكلمة الوحيدة سمع شكّها كله. إنها صغيرة جداً. لن تعرف كيف تتعامل معه؛ يجب أن يدعها وشأنها. لكن أمراً ما يسبِّب له الغم. وردةُ الجَمَال: القصيدة تنطلق بخطٍ مباشر كالسهم. إنها لا تملك نفسها؛ لعله هو أيضاً لا يملك نفسه.

قال: «فكّرتُ أنكِ ربما ترغبين في الخروج وتناول طعام الغداء. سآتي لأصحبك عند، فلنقل، الساعة الثانية عشرة»

كان ما يزال لديها متّسعٌ من الوقت لتسبُكَ كذبةً، وتتملَّص. لكنها كانت مضطربة جداً، ومرت برهة.

حين وصل، كانت في الانتظار على الرصيف خارج البناء حيث منزلها. كانت ترتدي ثوباً أسودَ ضيقاً وسترةً سوداء. كان ردفاها نحيلين كرِدْفيّ فتاة في الثانية عشرة.

صحبها إلى هوت باي، الواقع بجوار الميناء. خلال قيادته السيارة حاول أن يهدِّئَ من روعها. سألها عن دوراتها الدراسية الأخرى. قالت إنها تمثِّل في مسرحية، وهذا أحد متطلبات الدبلوم. والتدريبات تستهلك القسم الأكبر من وقتها.

في المطعم لم تكن لديها شهيّة إلى الطعام، وأرسلت تحديقها الكئيب إلى البحر.

«أثمَّة مشكلة؟ أتحبّين أن تحكي لي؟».

هزَّت رأسها نفياً.

«هل أنت قلقة بشأننا نحن الاثنين؟».

قالت: «ربما».

«لا حاجة إلى ذلك. سوف أتدبَّر الأمر. لن نتمادى كثيراً جداً في علاقتنا».

كثيرٌ جداً. ما الكثيرُ، وما الكثيرُ جداً، في أمرٍ كهذا؟ هل مفهومها عن الكثير جداً يتطابق مع مفهومه؟.

كانت قد بدأت تُمطِر: ستائرُ من المياه تتماوج عبر المرفأ الخاوي. قال «هلاّ ذهبنا؟»

رافقها عائداً إلى منزله. وعلى أرض غرفة الجلوس، وعلى وقْعِ ربتْ المطرِ على زجاج النوافذ، ضاجعها. جسدها واضح، بسيط، ومثاليٌّ على

طريقته؛ على الرغم من سلبيّتها الكاملة. إلا أنه وجد الفعل ممتعاً، ممتعاً إلى درجةٍ أنه منذ نقطة الذروة غاص في غيابٍ تام.

حين أفاقَ كان المطر قد توقَّف. كانت الفتاة مستلقية خلفه، مغمضة العينين، ويداها متراخيتين فوق رأسها، وتعبير عبوس واهٍ على وجهها. وكانت يداه منضويتين تحت كنزتها المنسوجة بقُطَبٍ خشنة، ومستقرتين على ثدييها. كان ثوبها الضيِّق وملابسها الداخلية متشابكة على الأرض؛ وبنطاله متجمِّعاً عند كاحليه. قال في نفسه «*بعد العاصفة*». مشهدٌ مأخوذ من لوحاتِ جورج غروس[1].

أدار لها وجهها، فتملَّصت منه، وجمعت أشياءها، وغادرت الغرفة. بعد بضع دقائق عادت، مرتدية ملابسها. همست: «يجب أن أذهب». لم يفعل أي شيء لاستبقائها.

في صباح اليوم التالي استيقظ وهو في حالةٍ من السعادة العميقة، التي لا تزول. ميلاني لم تحضر إلى صفّها. من غرفة مكتبه اتصل ببائع زهور. أيختار ورداً؟ ربما لا. طلب قرنفلاً. سألته المرأة «أحمر أم أبيض؟» أحمر؟ أبيض؟ قال: «أرسلي اثنتي عشرة ورديّة». «ليست لدينا اثنتا عشرة ورديّة. هل أرسل تشكيلة منها؟». قال: «أرسلي تشكيلة».

هطل المطر طوال يوم الخميس، من غيومٍ مكفهرّة تتجمَّعُ فوق المدينة متقدّمةً من الغرب. لدى عبوره بهوَ بناءِ قسمِ الاتصالات في ختام اليوم، لمحها واقفة عند ممرِّ الباب وسطَ حفنةٍ من الطلّاب ينتظرون حدوث انفراجٍ في سيل المطر. اقترب منها من الخلف، ووضع يداً على كتفها. قال: «انتظريني هنا، سأقلّكِ إلى منزلك».

عاد حاملاً مظلّة. قرّبها منه ليقيها المطر وقطع معها الساحة المؤدّية إلى

---

(1) جورج غروس (1893 - 1959): رسّام ألماني. استقرَّ في الولايات المتحدة. رسومه تسخر من الروح العسكرية الألمانية والمجتمع البورجوازي. المترجم.

موقف السيارات. هبَّت دفقة قوية مفاجئة من الهواء فقلبت داخل المظلّة إلى الخارج؛ وأخذا يركضان معاً بارتباك إلى السيارة.

كانت ترتدي معطفاً أصفر اللون لامعاً واقياً من المطر؛ وفي السيارة رفعت القلنسوة عن رأسها. كان وجهها متورّداً؛ وشعرَ بتواترِ ارتفاعِ صدرها وانخفاضه. لعقت قطرة من المطر عن شفتها العليا. قال في نفسه: «*إنها طفلة! مجرد طفلة! ما هذا الذي أفعله؟*»، غير أن قلبه كان يمورُ بالرغبة.

انطلقا يشقّان طريقهما وسط زحامِ بعد الظهر الشديد. قال: «بالأمس اشتقتُ إليك. هل أنت على ما يرام؟».

لم تُجِبْ، وهي تحدِّق إلى ذراعيّ ممسحة الزجاج.

عند إشارة السير الحمراء ضمَّ يدها الباردة داخل يده. قال: «ميلاني!» محاولاً أن يُبقي نبرة صوته خفيفة. غير أنه كان قد نسي كيف يتودَّد إلى امرأة. الصوت الذي سمعه كان يخصُّ والداً يتزلَّف، وليس عاشقاً.

أوقف السيارة أمام بناء شقّتها. قالت: «شكراً» وهي تفتح باب السيارة.

«ألن تدعينني إلى الدخول؟».

«أعتقد أن رفيقتي في الغرفة موجودةٌ هناك».

«ماذا عن هذا المساء؟».

«لدي تدريبٌ هذا المساء».

«إذن متى سأراك ثانية؟».

لم تُجِبْ. كرَّرتْ «شكراً»، وانزلقت إلى الخارج.

* * *

في يوم الأربعاء كانت في غرفة الصف، جالسة في مقعدها المعتاد. كانوا ما يزالون يدرسون ووردسوورث، الجزء السادس من «*مقدمة*»، الشاعر وهو في جبال الألب.

قرأ بصوتٍ عالٍ «من فوق جسرٍ عارٍ»:

شاهدنا أيضاً أولاً

قمّةَ جبلِ بلان جليّة، وأحزننا

أن تَمْثُلَ أمامنا صورةٌ خاليةٌ من البشرِ

انتهكَتْ فكرةً حيّة

لن تقوم لها قائمة.

«إذن، الجبلُ الأبيضُ الجليلُ، أو مون بلان، يتّضح أنه مخيِّب للآمال. لماذا؟ فلنبدأ بصيغة الفعل غير العادية *usurp upon*. هل فتّش أحدكم عنها في القاموس؟».

صمتْ.

«لو فعلتُمْ لوجدتم أن *usurp upon* تعني يدخل عنوةً أو ينتَهِكَ. وكلمة *usurp*، أي أن يغتصب بشكل كامل، تحمل المعنى المحسَّن لـ *usurp upon*؛ وفعلُ الاغتصاب الكامل يكمِّل عملَ الانتهاك.

«يقول ووردسوورث، انقشعت الغيوم، وانجلت الذروة، وحزنًا لمشاهدتها. استجابةٌ غريبةٌ، بالنسبة إلى رحّالةٍ إلى جبالِ الألب. ولمَ الحزن؟ لأن، كما يقول، صورةً خاليةً من البشر، هي مجرّد صورةٍ منعكسة على شبكية العين، انتهكتْ ما كان حتى ذلك الحين فكرة حيّة. ماذا كانت تلك الفكرة الحيّة؟».

من جديد صمتْ. الهواء نفسه الذي كان يُرسِل كلامه عبْرَه تدلّى بتكاسُلٍ كملاءة. ثمة رجل يرنو إلى جبل، وهم يتذمّرون كمَنْ يستغرب: لماذا ينبغي أن يكون هذا شديدَ التعقيد؟ بماذا يمكنه أن يجيبهم؟ ماذا قال لميلاني في تلك الأمسية الأولى؟ قال إنه بدون ومضة الرؤيا لا وجود لأي شيء. فأين ومضة الرؤيا في هذه الغرفة؟.

رماها بنظرة سريعة. كان رأسها مطأطأً، مستغرقة في قراءة النص، أو هكذا بدا.

«الكلمة نفسها *usurp* تعود إلى الظهور بعد ذلك بعدد من الأبيات. إن الانتهاك هو أحد أعمق الأفكار الرئيسية في سلسلة قصائد جبال الألب. إن النماذج الأصلية العظمى للعقل، الأفكار النقية، تجد أنها مُنْتَهَكَةٌ من قِبَل الصور الحسّية المحض.

«غير أننا لا نستطيع أن نعيش حياتنا اليومية في عالمٍ من الأفكار النقية الصرف، المُصانة بطبقةٍ من التجربةِ الحسّية. إن السؤالَ الهام ليس كيف نستطيع أن نحافظ على نقاء مَلَكَة التخيُّل عندنا، وننأى بها عن ضربات الواقع؟ بل يجب أن يكون: هل في إمكاننا أن نجد طريقة لكي يتعايش فيها الاثنان؟.

«انظروا إلى البيت رقم 599. إن ووردسوورث يكتب عن حدود الإدراك الحسّي. وهي فكرةٌ سبقَ أن ألمحْنا إليها. فحين تصل أعضاء الحسّ إلى أقصى حدود طاقاتها، فإن ضياءها يبدأ بالخبوّ. ولكن في لحظة الانطفاءِ التام يتوهّج الضوء للمرة الأخيرة بقوةٍ كلهبِ شمعة، ليمنحنا نظرةً خاطفةً إلى اللامرئي. الفقرة صعبة؛ بل لعلها تناقضُ لحظةَ تجربةِ مون بلان. ومع ذلك يبدو أن ووردسوورث يتلمّس طريقَهُ نحو تحقيق توازن: ليس الصورة النقيّة، المكلّلة بالغيوم، ولا الصورة البصريّة المحترقة على شبكية العين، التي تغمرنا وتخيّب أملنا بوضوحها الواقعي، وإنما الصورة الحسّية، التي نُبقيها سريعة الزوال قدر الإمكان، كوسيلةٍ لتحريكِ أو تنشيطِ الفكرةِ الكامنةِ في الطبقةِ الأعمقِ من تربة ذاكرتنا».

سكتَ. لا فهمٌ تامٌ. لقد ذهب بعيداً جداً بسرعة كبيرةٍ جداً. كيف يقرِّبهم منه؟ كيف يقرِّبها؟.

قال: «الأمرُ أشبه بالعشق. لو كنتم عميان لما وقعتم صرعى الهوى

أصلاً. ولكن، أحقاً أنكم لا ترغبون في رؤية المحبوب بالوضوح البارد الذي توفّره لنا الأداة البصريّة؟ لعل من الأفضل لكم أن ترخوا نقاباً فوق التحديق، لكي تبقوه حيّاً في شكله الأوّليّ، الشبه إلهي».

ما أبعد هذا عن ووردسوورث، لكنه على الأقل يوقظهم. إنهم يقولون لأنفسهم «*الشكل الأوّليّ؟ آلهة؟ عمّ يتحدّث؟ ماذا يعرف هذا العجوز عن الحب؟*».

تنجرف الذاكرة إلى الوراء: حين كانا مستلقيان على الأرض، وشدّ الكنزة بقوة إلى أعلى وكشف عن ثدييها الصغيرين الكاملَيّ الاستدارة، والناعمين. رفعت بصرها للمرة الأولى؛ قابلت عيناها عينيه ومن نظرة خاطفة رأت كل شيء. اضطربت، وأغضت بصرها.

قال: «إن ووردسوورث يكتب عن جبال الألب. نحن ليس لدينا جبال ألب في هذا البلد، ولكن لدينا سلسلة جبال دراكنسبرغ، أو أقلّ ضخامة منها جبل تيبل، الذي نرتقيه لنقتفي آثارَ طريقِ الشعراء، يحدونا الأملُ في أن نحصل على إلهامٍ ما، وهي لحظات ووردسوورثية كلنا سمعنا عنها». حينئذ كان فقط يتكلّم، كلاماً مموَّهاً. «لكن لحظات كتلك لن تأتي إلا إذا كانت العين ملتفتة نصف التفاتة نحو الشكل الأوّليّ للمخيِّلة التي نحملها داخلنا»

كفى! لقد سئم رنين صوته هو، ويرثي لحالها أيضاً، لأنها مضطرة إلى الإصغاء إلى هذه الخصوصيات المموّهة. صرفَ طلابَ الصف، ثم تلكّأ، على أمل أن يكلّمها. لكنها تسللت مبتعدةً وسط الزحام.

قبل أسبوع فقط كانت مجرّد طالبةٍ حلوة أخرى في الصف. الآن أصبح لها وجودٌ في حياته، وجودٌ حيّ.

* * *

كان مدرّج قاعة اتحاد الطلاب غارقاً في الظلمة. اتخذ له مجلساً،

بدون أن يلاحظه أحد، في الصف الخلفي. كان المُشاهدُ الوحيدُ، فيما عدا رجل أصلع بزيّ حاجب يجلس أمامه ببضعة صفوف.

المسرحية التي يتدربون على تمثيلها عنوانها «*غروبٌ في صالون غلوب*»: وهي ملهاة عن جنوب أفريقيا الجديدة تدور أحداثها في صالون تزيين الشعر في هيلبرو، جوهانسبرغ. على خشبة المسرح مُصَفّفٌ للشعر، مَرِحٌ مرحاً مسرفاً، يخدمُ زبونين، واحد أسود، والآخر أبيض. وتسري الثرثرة بين الثلاثة: نكات، وإهانات. بدا أن تطهير الانفعالات هو المبدأ الرئيسي: حيث تُعْرَضُ التحاملات القديمة الفظّة كلها تحت ضياء النهار ثم يتمّ التخلّص منها مع نوباتٍ قوية من الضحك.

ثم تدخُل شخصيةٌ رابعةٌ إلى الخشبة، وهي فتاة تنتعل حذاءً مسطَّحَ نعلٍ وعالٍ، وشعرها مصفَّف على شكل سيلٍ من عقصاتِ الشعر. يقول مصفِّف الشعر «اجلسي يا عزيزتي. سأكون معك حالاً». فتجيبه «لقد جئت من أجل العمل الذي أعلنت عنه». نبرة صوتها متميّزة بشكلٍ ساطع؛ إنها ميلاني. يقول مصفِّف الشعر «أغ، خذي المكنسة وقومي بعملٍ مفيد».

تُمْسِكُ المكنسة وتحرِّكها على أرجاء الأرضية وهي تدفعها أمامها. تَعْلَق المكنسةُ بالسلك الكهربائي. ومن المفروض أن تنطلق شرارة، يتبعها صراخٌ وعدْوٌ في المكان، لكن يحدث خطأٌ ما في التزامن. تصعد المخرجة بخطى واسعة إلى خشبة المسرح، يلحقُ بها شابٌ يرتدي ملابس من الجلد الأسود يبدأ يعبثُ بمقبَسٍ في الجدار. تقول المخرجة «يجب أن تكونوا أكثر حيوية، أقرب إلى روح الأخوة ماركس[1]»، ثم تلتفت إلى ميلاني «أوكيه؟» تومئ ميلاني موافقة.

أمامه كان يقف الحاجب الذي أطلقَ تنهيدةً قويةً ثم غادر قاعة

(1) الأخوة ماركس: ممثلون هزليون أميركيون. وهم: ليونارد، وأدولف، وجوليوس «الشهير بغروشو»، وهربرت «الشهير بزسيو. المترجم.

الاستماع. هو أيضاً كان عليه أن يغادر. إن الجلوس في الظلام واستراق النظر إلى فتاة (وتخطر على باله كلمة «يشبق» دون استدعاء) عملٌ غير لائقٍ. إلا أن العجائز الذين يوشك أن ينضمَّ إلى صفوفهم، المتسكعين والهائمين على وجوههم بمعاطفهم المبقّعة وأسنانهم الاصطناعية المقرقعة وفجوات آذانهم الشعِرة - كلهم كانوا في وقت من الأوقات أولاد الله، بأطرافٍ مستقيمة وعيونٍ صافية. هل يُلامون إذا ما تشبّثوا حتى الرمق الأخير بأماكنهم على وليمة الأحاسيس العامرة؟.

على خشبة المسرح تستمرُّ الأحداثُ. تدفع ميلاني مكنستها، ثم فرقعةٌ ووميضٌ وصراخ فَزِع. تزعق ميلاني «ليست غلطتي. *يا ربي*، لماذا يجب أن تكون غلطتي دائماً؟». نهض واقفاً بهدوءٍ وتبع الحاجب وسط الظلام في طريقه إلى الخارج.

* * *

عند الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي كان واقفاً أمام باب شقتها. فتحت الباب وهي ترتدي قميصاً رياضيّاً مجعّداً، وبنطالاً قصيراً خاصاً بركوب الدراجة، وتنتعل خِفّاً على شكلِ سنجابين هزليين، وجده سخيفاً ويدلُّ على قلَّة ذوق.

لم يكن قد أخطرها بقدومه، وكانت من فرط الدهشة بحيث لم تستطيع أن ترفض استقبال الدخيل الذي فرض نفسه عليها. حين ضمّها بين ذراعيه، انهارتْ أطرافُها وكأنها أطرافٌ دمية. انهالتْ على قوقعة أذنها الرقيقة كلماتٌ ثقيلة كالهراوات مُصدِرةً صوتاً مكتوماً. قالت تقاومه: «لا، لا ليس الآن! قريبتي ستعود!».

لكن ما كان يمكن لأي شيء أن يصدّه. حملها إلى غرفة النوم. نفض عنها خِفَّها السخيف، وقبَّلَ قدميها، مندهشاً من الشعور الذي أثارته فيه. شعورٌ له علاقة بالظهور على خشبة المسرح: الشعر المستعار، المؤخّرة المهتزّة،

الحديث الفجّ. حب غريب! إلا أنه لم يكن هناك شكٌّ في ارتعاش أفروديت، إلهة الأمواج المزبدة.

لم تقاوم. كل ما فعلته أنها حوّلت نفسها عنه، حوّلت شفتيها، وعينيها. تركته يمدّدها على السرير ويجرّدها من ملابسها: بل إنها ساعدته، برفع ذراعيها ومن ثم ردفيها. سَرَت فيها رعشة بردٍ قليلة، وحالما أصبحت عارية اندسّتْ تحت اللحاف كخلدٍ يلجُ وكرهُ، وأدارتْ ظهرها له.

لم يكن اغتصاباً، ليس بالضبط، إلا أنه لم يكن مرغوباً. غير مرغوبٍ حتى اللب. وكأنها قرّرت أن تتراخى، أن تموت من داخلها طوال فترة العملية، كما يفعل الأرنب عندما تُطْبِقُ أنياب الثعلب على عنقه. وذلك لكي يتمّ كل ما يحدثُ لها، إذا جاز التعبير، في مكانٍ بعيدٍ جداً.

قالت بعد انتهاء كل شيء: «سوف تعود بولين في أي لحظة. أرجوك، اذهب».

أطاع، ولكن حالما وصلَ إلى سيارته باغته إحساسٌ هائلٌ بالاكتئاب، بالتبلّد، حتى أنه جلس بتراخٍ أمام المقود عاجزاً عن الإتيان بحركة.

هذا خطأ، خطأ فادح. في هذه اللحظة، هو متأكد تماماً، من أنها، أي ميلاني، تحاول أن تغتسل للتخلّص مما علِقَ بها، منه. يكاد يراها تفتح صنبور مياه الحمّام، ثم وهي تخطو داخل المياه، مغمضة العينين كالسائرة في نومها. إنه يودُّ أن يدخل حمّاماً خاصاً به.

امرأة بساقين قصيرتين مكتنزتين ورداءِ عملٍ سخيف تمرُّ به وتدخل البناء الذي فيه الشقة. أتكون هي قريبتها بولين ورفيقتها في الغرفة، تلك التي تخشى ميلاني كثيراً استنكارها؟ ثم يستنهض نفسه، ويقود سيارته.

في اليوم التالي لم تكن موجودة في غرفة الصف. غيابٌ مؤسف، لأن ذلك اليوم كان يوم الامتحان النصفي. ولاحقاً، حين ملأ السجلّ وضع اسمها حاضرةً وأعطاها علامة سبعين. وفي أسفل الصفحة دوّنَ بالقلم

الرصاص ملاحظة لنفسه: «وضع مؤقَّتْ». علامة سبعين: علامة متذبذبة، لا هي جيدة ولا سيئة.

تغيَّبتْ طوال الأسبوع التالي. اتّصلَ بها مراتٍ عِدَّة، ولم يحظَ بجواب. ثم في منتصف ليل يوم الأحد رنَّ جرس الباب. كانت ميلاني، مسربلة بالسواد من قمة رأسها وحتى أخمصيها، وتعتمر قلنسوة صوفيّة صغيرة سوداء. كان تعبيرُ وجهها متوتراً؛ هيّأ نفسه لتلقّي كلمات غاضبة، لشجار.

الشجار لم ينشب. في الحقيقة، هي التي كانت مرتبكة. همست، متجنّبة النظر في عينيه «هل لي أن أنام هنا الليلة؟»

غمرَ الارتياح قلبه «طبعاً، طبعاً». مدَّ يديه، عانقها. شدَّها إليه وشعر بها متيبّسة وباردة «تعالي، سأصنع لك بعض الشاي».

«لا، لا شاي، لا شيء، أنا مرهقة، أحتاج فقط إلى أن أنطرح».

أعدَّ لها سريراً في الغرفة التي كانت تخصُّ ابنته قديماً، قبّلها متمنّياً لها نوماً هانئاً، وتركها وحدها. وحين عاد إليها بعد ذلك بنصف ساعة كانت غارقة في نوم الموتى، بكامل ملابسها. أراحها من حذائها، ودثّرها.

في الساعة السابعة صباحاً، مع أول تغريد للعصافير. قرع على باب غرفتها. كانت يقظة، مستلقية والملاءة مشدودة حتى ذقنها، وتبدو منهكة.

سألها «كيف تشعرين؟».

هزّت كتفيها لامبالاةً.

«أثمة مشكلة؟ أتودّين أن تتحدثي عنها؟».

هزّت رأسها نفياً بدون أن تتكلم.

جلس على السرير، وقرّبها منه. بدأت تنشج بشكلٍ بائس وهي بين ذراعيه. على الرغم من كل شيء شعر برغبة واخزة. همس، محاولاً أن

يواسيها «اهدئي، اهدئي». قال ما يشبه «أخبريني عن الأمر، قولي للبابا ما الأمر».

تمالكت نفسها وحاولت أن تتكلم، لكن أنفها سُدَّ. أحضر لها منديلاً ورقياً. قالت «هل أستطيع أن أمكث هنا فترة؟».

كرّرَ بعناية «تمكثين هنا؟». كانت قد كفّتْ عن البكاء، لكن رعشات طويلة بأثرٍ من بؤسها كانت ما تزال تسري فيها. «أتظنينها فكرة صائبة؟».

لم تقل إن كانت فكرة صائبة أم لا. بدل ذلك شدّته أكثر إليها، واستدفأ وجهها ببطنه. انزلقت الملاءة: لم تكن ترتدي غير قميص تحتاني رجالي وسروالٍ داخلي.

أتراها كانت تدرك ما هي مُقْدِمة عليه، في تلك اللحظة؟.

حين قام بالخطوة الأولى، في حدائق الكلّية، اعتقد أنها ستكون علاقة قصيرة وسريعة. ينخرطُ فيها بسرعة، ويخرج منها بسرعة. والآن ها هي في منزله، تجرُّ وراءها التعقيدات. أي خدعة تمارسها عليه؟ يجب أن يأخذ حذره، لا شك في ذلك. ولكن كان ينبغي أن يلزم جانب الحذر منذ البداية.

تمدّدَ على السرير إلى جانبها. إن آخر ما يحتاجُ إليه في العالم هو أن تقيم ميلاني آيزاكس معه. ومع ذلك في تلك اللحظة كان تفكيره ثملاً. ستكون معه في كل ليلة؛ كل ليلة سيتمكن من النوم معها هكذا، ومضاجعتها. سوف يكتشف الناس الأمر، وهذا ما يحدث دائماً؛ سوف يدور الهمسُ، وقد تحدث فضيحة. ولكن ماذا سيهمّ؟ سوف تكون آخر انتعاشة للهب الحس تحدث قبل أن تنطفئ. طوى أغطية السرير ووضعها جانباً، ثم مدَّ يده إليها وداعبَ ثدييها، وردفيها. غمغم «طبعاً تستطيعين أن تمكثي، طبعاً».

في غرفة نومه، على مبعدة بابين، رنّتْ ساعة المنبِّه. استدارت عنه، وشدّتْ الأغطية حتى كتفيها.

قال: «سأغادر الآن. لدي دروس أعطيها. حاولي أن تعودي إلى النوم. سأرجع عند الظهيرة، وحينئذ سنتحدّث». داعبَ شعرها، وقبّلها على جبينها. أخليلةٌ؟ أم ابنة؟ ماذا تحاول، في دخيلتها، أن تكون؟ ماذا تقدِّم له؟

حين رجع عند الظهيرة، كانت قد استيقظت، وجالسة على مائدة المطبخ، تأكل خبزاً محمّصاً مع العسل وتشرب شاياً. بدت على سجيّتها تماماً.

قال: «هكذا، تبدين أفضل بكثير».

«عدت إلى النوم بعد أن غادرت».

«هلاّ أخبرتني الآن ما الأمر؟».

تجنّبت النظر في عينيه. قالت: «ليس الآن، يجب أن أرحل، لقد تأخرت. سأشرح لك الأمر في المرة القادمة».

«ومتى ستكون تلك المرة القادمة؟».

«هذا المساء، بعد التدريب. أيوافقك هذا؟».

«نعم».

نهضت واقفة، حاملة كوبها وصحنها إلى المغسلة (لكنها لم تغسلهما)، وعادت لتواجهه. قالت «أمتأكد من أن هذا يوافقك؟».

«نعم، متأكد».

«أردت أن أقول إنني أعلم أني قد فوّتُ عليَّ الكثير من الدروس، لكن العرض المسرحي يستنفذ وقتي كله».

«أنا أفهم. إنك تقولين إن عملك المسرحي له الأولوية. كنت سأساعدك لو أنك قلتِ هذا من البداية. هل ستحضرين إلى الصف غداً؟».

«نعم، أعدك».

وعَدَتْهُ، لكنها لم تنفِّذ وعدها. غضب وتوتّرَ. إنها تسيء السلوك؛ تفلت من الكثير من العقاب؛ تتعلّم استغلاله ولعلها ستستغله أكثر فأكثر. ولكن إذا كانت قد أفلتت من الكثير من المحاسبة، فإنه هو أفلت أكثر منها؛ وإذا كانت قد أساءت السلوك، فسلوكه أسوأ. وطالما أنهما معاً، إن كانا معاً، فهو القائد، وهي التابعة له. عليه ألا ينسى ذلك.

أربعة

مرة أخرى ضاجعها، على سريرِ غرفة ابنته. كانت جيدة، كجودةِ المرةِ الأولى؛ لقد بدأ يتعلّم كيف يتحرّكُ جسدها. إنها سريعة، ونهمة للتجربة. وإذا كان لا يستشعر عندها شهية جنسية كاملة، فذلك فقط لأنها ما زالت صغيرة. ثمة لحظة واحدة تبرز في الذاكرة، وذلك حين كلّبتْ إحدى ساقيها خلف ردفيه لكي تقرّبه منها: حين شدَّ وتر فخذها الداخلي عليه، شعر بفيضٍ من المتعة والشهوة. مَنْ يدري، قال في نفسه: لعل، رغم كل شيء، هناك مستقبل.

لاحقاً سألته: «أدائماً تفعل مثل هذا الأمر؟».

«أفعلُ ماذا؟».

«تضاجع طالباتك. هل ضاجعتَ أماندا؟».

لم يُجِبْ. أماندا هي طالبة في الصف، شقراء هشّة. ولم يكن يهتمّ البتّة بأماندا.

سألته «لماذا طلّقتَ؟».

«لقد طلّقتُ مرتين. تزوجتُ مرتين، وطلّقتُ مرتين».

«ماذا حدثَ لزوجتك الأولى؟».

«إنها قصة طويلة. سأحكيها لك في وقتٍ لاحق».

«ألديك صور؟».

«لا أجمع صوراً. لا أجمع نساءً».

«ألستَ تجمعني؟».

«لا، طبعاً لا».

نهضت واقفة، وتمشّت قليلاً في أرجاء الغرفة وهي تجمع ملابسها، بلا أي إحساس بالخجل وكأنها موجودة وحدها. كان متعوّداً على نساءٍ أشدّ خجلاً في ارتدائهن ملابسهن وفي تعرّيهن. لكن النساء المعتاد عليهن لم يكنَّ صغيرات السن، وكاملات الأوصاف، مثلها.

* * *

بعد ظهر ذلك النهار سمع طرقاً على باب مكتبه وإذا بشابٍ لم يكن قد رآه من قبل يدخل عليه. جلس دون دعوة، وأخذ يرمي نظراته في أنحاء الغرفة، ويومئ برأسه مُستحسناً خزانات حفظ الكتب.

كان طويل القامة ونحيلاً؛ له لحية صغيرة مشذّبة خفيفة الشعر ويضع قرطاً؛ يرتدي سترة جلدية سوداء وبنطالاً جلدياً أسود. بدا أكبر سناً من أغلب الطلاب؛ وبدا مشاغباً.

قال: «إذن فأنت البروفيسور. بروفيسور ديفيد. لقد حكت لي ميلاني عنك».

«حقاً. وماذا قالت لك؟».

«إنك تنكحها».

مرّت فترة صمت طويلة. قال في نفسه، هكذا إذن: عادت الدجاجات إلى البيت لتفقّس. كان ينبغي أن أخمّن: إن فتاةً مثلها لا تأتي دون متاعب.

قال: «مَنْ أنت؟».

تجاهلَ الزائرُ سؤاله. تابع قائلاً «أنت تحسب نفسك ذكياً، زير نساء حقيقي. أتظن أنك ستظل تعتقد أنك ذكي بعد أن تعلم زوجتك بما تنوي أن تفعل؟».

«كفى. ماذا تريد؟».

«إياك أن تقول لي متى أكتفي». هنا خرجت الكلمات بوتيرة أسرع، وبإيقاع التهديد. «وإياك أن تظن أن في استطاعتك أن تلجَ حياةَ الناسِ وتخرج منها على هواك». تراقصَ الضوءُ على مِحجريه الأسودَين. مال إلى الأمام، لوَّح بيديه يميناً ويساراً. تطايرت الأوراق الموجودة على طاولة المكتب.

نهض واقفاً. «*كفى! حان وقت رحيلك!*».

ردّدَ الفتى، ساخراً «حان وقت رحيلك!»، ثم نهض واقفاً «أوكيه». ومشى بخطى متمهّلة إلى الباب «الوداع، بروفيسور تشيبس[1]! ولكن انتظر وسترى!». ثم رحل.

قال في نفسه، إنه قاتل أجير. إنها متورطة مع قاتل أجير وها أنا بدوري متورّط معه! وقرقع بطنه.

على الرغم من أنه ظل يقظاً حتى وقت متأخّر من الليل، في انتظارها، إلا أن ميلاني لم تأتِ. وبدل ذلك، تعرّضت سيارته، التي كانت متوقفة في الشارع، للتخريب. فقد أُفرِغَتْ إطاراتها من الهواء، وأُقحِمَ غراء في أقفال الأبواب، وأُلصِقَتْ صحيفة فوق الحاجب الزجاجي، وخُدِشَ الدهان. فتوجَّبَ تبديل الأقفال، ووصلت قيمة التكاليف إلى ستمائة راند.

سأله صانع الأقفال: «ألديك فكرة عمَّن فعل هذا؟».

أجاب باقتضاب جاف: «ولا أدنى فكرة».

* * *

(1) تشيبس: الأستاذ تشيبس هو رمز للأستاذ الطيب، المثالي. المترجم.

بعد هذه الـ *coup de main* (مباغتة) نأت ميلاني بنفسها. ولم يفاجأ لذلك: إذا كان هو يشعر بالخجل، فهي تشعر بذلك أيضاً. لكنها عادت فظهرت يوم الاثنين في غرفة الصف؛ إلى جانبها، مستنداً بظهره إلى المقعد، ويداه في جيبيه، ويبدو عليه مظهر الاسترخاء المزهو، جلس الفتى ذو الملابس السوداء، خليلها.

عادة كان يصدر عن الطلاب أزيز الثرثرة. أما في ذلك اليوم فكان الصمت سائداً. وعلى الرغم من أنه لم يصدِّق أنهم يعلمون بما يجري، إلا أنه كان من الواضح أنهم في انتظار أن يروا ماذا سيفعل مع الشخص الدخيل.

حقاً، ماذا سيفعل؟ كان واضحاً أن ما وقع لسيارته ليس كافياً. من الواضح أن مزيداً من الفصول ستتلو. ماذا في وسعه أن يفعل؟ عليه أن يصرّ على أسنانه ويدفع الثمن، ماذا يفعل غير ذلك؟

قال، وهو ينهمك في قراءة ملاحظاته «سوف نتابع دراسة بايرون. كما رأينا في الأسبوع الفائت، إن السمعة السيئة والفضيحة لم يؤثِّرا فقط على حياة بايرون وإنما على طريقة تلقّي الناس لقصائده. لقد وجد بايرونـ الإنسان نفسه يتصارع مع مخلوقاته الشعرية الخاصة ـ مع هارولد، ومانفريد، وحتى مع دون جوان».

فضيحة. من المحزن أن يكون هذا هو موضوع محاضرته، لكنه لم يكن في مزاج يسمح له بالارتجال.

استرقَ نظرةً إلى ميلاني. عادة تكون منهمكة في الكتابة، أما اليوم، فتبدو نحيلة ومرهقة، وتجلس متراخية فوق كتابها. ورغماً عنه قفز قلبه شوقاً إليها. قال في نفسه، يا مسكينة، يا مَنْ ضمَمْتُكِ إلى صدري!.

كان قد أمرهم أن يقرءوا قصيدة «لارا». إن ملاحظاته تدور حول «لارا». ولا سبيل لتجنّب الحديث عن القصيدة. قرأ بصوت عال:

وقفَ غريباً وسط هذا العالم المتنفِّس،

روحٌ ضالّةٌ قادمة من عالم آخر؛

كيانٌ من الأخيلة القاتمة، شكَّلَ

باختياره الأخطار التي تصادف أن نجا منها.

«مَنْ يشرح هذه الأبيات لي؟ مَنْ هو هذا «الروح الضالّة»؟ لماذا يدعو نفسه بـ«كيان»؟ ومِن أي عالم أتى؟».

لقد كفَّ منذ زمن طويل عن الدهشة من مدى جهل طلابه. إنهم ما قبل مسيحيين، ما قبل تاريخيين، ما دون متعلمين، بل كان من الممكن أيضاً أن يكونوا فقسوا من البيضة في الأمس القريب. لذا لم يتوقَّع منهم أن يعرفوا أي شيء عن ملائكته الخاطئة أو أين يمكن أن يكون بايرون قد قرأ عنها. إن ما توقّعه جملة من التخمينات الودِّية التي يمكنه، مع شيء من الحظ، أن يقودها إلى الهدف. أما اليوم فقد قوبل بالصمت المُطبَق، صمت تام منتظم بشكل واضح حول الدخيل الغريب الموجود بينهم. لن يتكلموا، لن يشتركوا في لعبته، طالما أن شخصاً غريباً قابعاً بينهم ينصتُ ويعطي حكمه ويسخر.

قال: «لقد طُرِدَ إبليس من الجنة. ونحن لا نعرف أي شيء عن حياة الملائكة، لكننا نستطيع أن نفترض أنهم يحتاجون إلى أوكسجين. إن إبليس، الملاك الملعون، وهو في موطنه لا يحتاج إلى أن يتنفّس. وفجأة إذا به يجد نفسه مطروداً إلى «عالمنا المتنفِّس» الغريب. «ضال»: هو ذاك الذي يختار طريقه الخاصة، ويعيش حياة خطرة، بل إنه يخلق لنفسه الخطر. فلنتابع القراءة».

لم يكن الفتى قد نظر حتى مرة واحدة إلى النصّ. وبدل ذلك، رسم ابتسامةً صغيرةً على شفتيه، ابتسامةً تمتزج، وهذا مجرد احتمال، بلمسةِ انشداه، وهو يتلقّى كلماته:

كان يستطيع
أحياناً أن يتخلّى عمّا يملك للآخرين،
ليس شفقة، ولا بدافعٍ من الواجب،
وإنما بسبب انحرافٍ في التفكير،
دفع به بقوة إلى الأمام بزهوّ سرّي
كي يفعل ما لا تقوى على فعله غير القِلّة؛
وهذا الدافع نفسه سوف يعمل في لحظةِ غوايةٍ
على أن تُضلَّ روحه أيضاً إلى الجريمة.
«إذن، أي نوعٍ من المخلوقات إبليسٌ هذا؟».

عندئذٍ لابد أن الطلاب قد أخذوا يشعرون بالتيار الجاري بينهما، أي بينه وبين الفتى. لقد كان السؤال موجَّهاً حصراً إلى الفتى؛ وكالنائم الذي استُدعي إلى الحياة، أجاب الفتى «إنه يفعل ما يرغبُ في فعله. لا يهمه إن كان خيراً أم شراً. إنه يفعله وكفى»

«بالضبط. خيراً كان أم شراً، يفعله وكفى. إنه لا يتصرّف وفقاً لمبدأ وإنما استجابة لدافع، ومنبع دوافعه مبهم بالنسبة إليه. اقرؤوا بضعة أبياتٍ أخرى [لم يكن الرأس منبع جنونه، بل القلب]. قلب مجنون. ما القلب المجنون؟»

إنه يسأل أكثر مما ينبغي من الأسئلة. كان جليّاً له أن الفتى يحب أن يمارس مزيداً من الضغط على حدسه. أراد أن يبيّن أن معرفته تتجاوز مجرد ما يعرفه عن الدراجات النارية والملابس الصارخة الألوان. ولعله فعل. لعله بحقٍ على معرفةٍ بما يعني أن يحمل الإنسان قلباً مجنوناً. ولكن، هنا، في غرفة الصف هذه، وأمام هؤلاء الغرباء، لن تخرج الكلمات. هزَّ رأسه.

«لا عليكم. لاحظوا أنه لم يُطلَب منا أن ندين هذا الكائن بأن لديه قلباً

مجنوناً، هذا الكائن الذي فيه شيء خطأ جوهري. على العكس، نحن مدعوون لفهمه والتعاطف معه. ولكن هناك حدّاً للتعاطف. إذ على الرغم من أنه يعيش بيننا، إلا أنه ليس واحداً منا. إنه بالضبط ما يسمّي نفسه: «كيان»، أي، وحش. وأخيراً، سيوحي بايرون لنا بأن من المستحيل أن نحبه، ليس بالمعنى الأعمق، الأشدّ إنسانيّة، للكلمة. سوف يُحكم عليه بالعزلة».

انكبَّت الرؤوس، وأخذوا يُدوِّنون كلماته، بالنسبة إليهم، بايرون، وإبليس، وقابيل، كلُّهم سواء.

أنهوا دراسة القصيدة، وعَيَّنَ لهم الأناشيد الأولى من «دون جوان»، وأنهى الدرسَ باكراً. نادى عليها من فوق رؤوسهم: «ميلاني، هل لي بكلمةٍ معكِ؟».

وَقَفَتْ أمامه، ناحلةَ الوجه، مُرهقة.مرَّةً أخرى هبَّ قلبُهُ شوقاً إليها. لو كانا وحدهما لضمَّها إلى صدرِه، لحاولَ أن يُدخِلَ البهجةَ إلى قلبِها. كان سيُناديها بـ«يمامتي الصغيرة».

بَدَلَ ذلك قال «فلنذهب إلى غرفة مكتبي».

تقدَّمَها مُرتقياً الدَرَجَ المؤدّيَ إلى غرفة مكتبه، وخليلها يسيرُ خلفَها. قال للفتى «انتظر هنا»، وأغلقَ البابَ خلفَه.

جَلَسَتْ ميلاني أمامه، مُنكَّسَة الرأس. قال «عزيزتي، أعلمُ أنكِ تمرّينَ بظروفٍ صعبةٍ، ولا أريدُ أن أُفاقِمَ من صعوبتها. ولكن يجب أن أُكلِّمكِ كأستاذ. إنَّ لديَّ التزامات اتجاه طلابي، كلّهم. وما يفعله صديقَكِ خارج حَرَم الجامعة من شأنه الخاصّ. لكنّي لن أقبلَ منه أن يُعطِّلَ دروسي. أبلغيه هذا، على لساني.

«أما أنتِ فعليكِ أن تُكرِّسي وقتاً أطول لدرسكِ. يجب أن تحضري الدروسَ بانتظامٍ أكثر. ويجب أن تُعوِّضي عن الامتحان الذي فوَّتِهِ».

حدَّقَتْ إليهِ في حيرةٍ، بل وصدمة. كأنها تُريدُ أن تقول «لقد بَترتُ صِلَتي بالجميع. وجعَلتَني أحملُ سرَّكَ. لم أعُد أبداً مجرَّدَ طالبة. كيف تُكلِّمني بهذه اللهجة؟».

حين خرجَ صوتُها كان مُختنقاً حتى بالكاد سمعَ ما يلي: «لا أستطيعُ أن أقدِّمَ الامتحان، أنا لم أدرس».

ما كانَ يرغبُ في قوله لا يمكنُ أن يُقالَ، ليس باحتشام. كلّ ما يستطيعُ أن يقومَ به هو أن يومئ، وأن يأملَ في أن تفهمَ «فقط قدِّمي الامتحانَ، يا ميلاني، كأيّ طالبٍ آخر. لا يهمُّ إن لم تكوني مستعدَّةً، المهمّ أن تجتازيه. دعينا نُحدِّدُ موعداً. ما رأيكِ يا ميلاني في يوم الاثنين القادم، خلال فترة استراحة الغداء؟ سوفَ يُتيحُ لكِ ذلكَ أن تقرئي خلال عطلة الأسبوع».

رَفَعَتْ ذقنها، ونَظَرَتْ في عينيه بتحدٍ. إما أنها لم تفهمْ أو أنها ترفضُ فتحَ الموضوع.

كرَّرَ قائلاً: «يوم الاثنين، هنا في غرفة مكتبي».

نَهَضَتْ واقفةً، وعلَّقَتْ حقيبتها من كتفها.

«ميلاني، لديَّ مسؤولياتٌ. على الأقلّ افعلي شيئاً. لا تجعلي الوضعَ أشدَّ تعقيداً مما ينبغي».

مسؤوليات: لمْ تُشرِّف هذه الكلمة بجواب.

* * *

في مساء ذلك اليوم، وبعد انتهاء الحفل الموسيقي، وأثناء قيادته سيارته متوجّهاً إلى منزله، توقف عند إشارة مرور. ضجَّت دراجة ناريّة مارَّة به، من طراز «دوكاتي»، فضّية اللون تحمل شخصين يرتديان السواد. كانا يعتمران خوذتين، ومع ذلك تعرَّف عليهما. كانت ميلاني جالسة على السرج وقد

باعدت واسعاً ما بين ركبتيها، وقوّستْ حوضها. سَرَتْ فيه رعشةُ شبقٍ سريعة وشدّته. قال في نفسه، «أنا كنتُ هناك من قبل». ثم اندفعت الدراجة النارية منطلقة، حاملة إياها معها.

خمسة

لم تظهر في يوم الاثنين لتقدِّم امتحانها. وبدل ذلك، وجد في علبة بريده بطاقة انسحاب رسميّة: الطالبة 7710101 الآنسة م. آيزاكس انسحبت من قسم الاتصالات 312 بأثرٍ فوريّ.

ما كادت تمرُّ ساعة على ذلك حتى وصلته مكالمة هاتفية إلى مكتبه «بروفيسور لري؟ هل لي أن أتحدّثَ معك لحظة؟ اسمي آيزاكس. إنني أكلّمك من مدينة جورج. ابنتي طالبة في صفّك، ميلاني، أنت تعرفها».

«نعم».

«بروفيسور، أتساءل إن كان في استطاعتك أن تساعدنا. لقد كانت ميلاني طالبة نجيبة، والآن هي تقول إنها ستتخلّى عن كل شيء. لقد أصبنا بصدمةٍ قوية».

«لا أظنني أفهم».

«إنها تريد أن تتخلّى عن الدراسة كلها وتحصل على عمل. خسارة أن تقضي ثلاث سنوات في الجامعة وتبرز فيها، ومن ثم تتخلّى عنها قبيل النهاية. لا أدري يا بروفيسور إن كان في وسعي أن أطلب منك أن تتكلم معها، أن تعيد إليها عقلها؟».

«هل تحدّثت أنت نفسك مع ميلاني؟ أتعلم ماذا وراء هذا القرار؟».

«لقد أمضينا، أنا وأمها، عطلة الأسبوع كلها نتحدث معها هاتفياً،

لكننا فشلنا في إعادتها إلى صوابها. إنها منشغلة كثيراً في إعداد مسرحية تمثّل هي فيها، لذا لعلها، كما تعلم، مرهقة من ضغط العمل، وفرط التوتر. إنها دائماً تأخذ الأمور بجدّية شديدة، يا بروفيسور، هكذا هي، تغالي في الانهماك. ولكن إذا تكلّمت معها، فقد تتمكّن من إقناعها بإعادة التفكير. إنها تكنُّ لك احتراماً جمّاً. إننا لا نريد منها أن ترمي بكل تلك السنين دون أي فائدة».

إذن ميلاني الكئيبة، بحُليها الرخيصة التي جلَبَتْها من الأورينتال بلاتزا وعدم فهمها لووردسوورث، تأخذ الأمور بجدّية. لم يخطر هذا بباله. ماذا أيضاً لم يخمّنه عنها؟.

«لا أدري، يا سيد آيزاكس، إن كنتُ الشخصَ المناسب للتحدّث إلى ميلاني».

«بل أنت هو، يا بروفيسور، أنت هو! وكما أقول. إن ميلاني تحترمك احتراماً شديداً».

كان ينبغي عليه أن يقول «*احترام؟ أنت دقّة قديمة، يا سيد آيزاكس. إن ابنتك فقدت احترامها لي منذ أسابيع مضت، ولسببٍ وجيه*». وبدل ذلك قال «*سأرى ماذا في وسعي أن أفعل*».

لاحقاً قال لنفسه «لن تفلت من العقاب. ولن ينسى الأب آيزاكس من مدينة جورج النائية هذا الحديث، بكل أكاذيبه ومراوغاته. «*سأرى ماذا في وسعي أن أفعل*». لم لا يعترف؟ كان ينبغي عليه أن يقول «*أنا الدودة في التفاحة. كيف أساعدك وأنا أسّ مصيبتك؟*»».

اتصلَ هاتفياً بالشقة فردّتْ عليه قريبتها بولين. قالت بولين بصوتها الذي تشيعُ برودته القشعريرة في الجسم «ميلاني ليست متوفرة»، «ماذا تعنين بغير متوفرة؟»، «أعني أنها لا تريد أن تكلّمك». قال «قولي لها إن الأمر يتعلّق بقرارها بالانسحاب. قولي لها إنها متهوّرة جداً».

مضى يوم الأربعاء الدراسي سيئاً، ويوم الجمعة كان أسوأ. الحضور قليل جداً. الطلاب الوحيدين الذين حضروا هم المدجّنون، السلبيّون، الطيّعون. ليس هناك إلا تفسيرٌ واحد. يجب وضع نهاية القصة.

كان في مكتبه في القسم حين سمع خلفه صوتاً يسأل: «أين أجد البروفيسور لري؟».

قال بدون تفكير «أنا هو».

الرجل الذي تكلّم كان ضئيلاً، نحيلاً، محنيّ الكتفين؛ يرتدي بذلة زرقاء اللون أكبر من مقاسه، وتفوح منه رائحة دخان السجائر.

«بروفيسور لري؟ لقد تحدثنا عبر الهاتف. أنا آيزاكس».

«نعم. كيف حالك. هلاّ ذهبنا إلى مكتبي؟».

«لا داعي». سكت الرجل، ليلم شتات نفسه، أخذ نَفَساً عميقاً، وباشَرَ بالقول، مشدِّداً بقوة على الكلمة الأولى «بروفيسور، قد تكون عالي الثقافة وما إلى ذلك، لكن ما فعلته لم يكن صائباً». سكت، هزّ رأسه «ليس صائباً».

لم تتظاهر السكرتيرتان بإخفاء فضولهما. وكان هناك أيضاً طلابٌ في المكتب؛ وحين ارتفعت نبرة صوت الرجل الغريب رانَ عليهم الصمت.

«إننا نُودِعْ أولادنا بين أيديكم لأننا نعتقد أننا نستطيع أن نثق بكم. إذا كنا لا نستطيع أن نثق في الجامعة، فبمن نثق؟ لم يخطر ببالنا قط أننا نرسل ابنتنا إلى وكر أفاعي. كلا، بروفيسور لري، قد تكون عالي المقام وقوياً وحاصلاً على كافة أنواع الدرجات العلمية، ولكن لو كنت مكانك لخجلتُ كثيراً من نفسي، والله على ما أقول شهيد. الآن جاء دورك كي تقول، هذا إذا أمسكت العصا من طرفها الخطأ، ولكن لا، لا أظن ذلك، أرى هذا بادياً على وجهك».

حقاً جاء دوره الآن: فليتكلّم مَنْ يرغبُ في الكلام. أما هو فوقفَ

مربوطَ اللسان، والدم يضرب في أذنيه. هو أفعى: كيف يمكنه أن ينكر؟

همس «عذراً، لدي عملٌ أؤديه»، ثم استدار وغادر المكان، وكأنه مصنوع من خشب.

تبِعَهُ لآيزاكس في الرواق المزدحم. هتف «بروفيسور! بروفيسور لري! لا يمكنك أن تركض هكذا ببساطة! أنت لم تسمع نهاية القصة، ها أنا أقول لك!».

* * *

هكذا بدأ الأمر. وفي صباح اليوم التالي وصلت مذكّرة، بسرعة مفاجئة، من مكتب نائب المدير (من شؤون الطلاب) تشهره بأن شكوى قد قُدِّمت ضدّه استناداً إلى البند 3-1 من دستور الجامعة السلوكي. وطلب منه أن يتّصل بمكتب نائب المدير في الوقت الذي يناسبه.

الإشعار ـ الذي وصله ضمن مغلّف ممهور بكلمة «سرّي» ـ كان مصحوباً بنسخةٍ من الدستور. المادة الثالثة تبحث في التعرُّض للاضطهاد وللمضايقة على أساس السلالة، أو الجماعة العرقية، أو الدين، أو الجنس، أو التفرقة الجنسية، أو الإعاقة الجسدية. المادة 3-1 تقصد بهذا تعرُّض الطلاب للاضطهاد والمضايقة من قِبَل الأساتذة.

الوثيقة الثانية تصف بُنية لجان البحث واختصاصاتها. قرأها، وقلبه يضرب بقوة مزعجة، وأثناء القراءة ضيَّع تركيزه. نهض واقفاً. أوصد باب غرفة مكتبه بالمفتاح، وجلس والورقة بين يديه، محاولاً أن يتصوّر ما حدث.

ما كانت ميلاني لتأخذ هذه الخطوة وحدها، إنه واثق. إنها أشد براءة من أن تفعل ذلك، وأجهل بقدراتها. لابد أن الرجل الضئيل ذا البذلة التي لا تلائمه هو الواقف خلف هذا، هو وقريبتها بولين، القبيحة، الوصيفة المُسنّة.

لابد أنهما تحدثا معها في الأمر، وأدخلاه في خلدها، وأخيراً قاداها إلى مكاتب الإدارة.

لابد أنهما قالا لها «نريد أن نقدّم شكوى».

«تقدّمون شكوى؟ أي نوع من الشكاوى؟».

«من النوع الخاص».

وتتدخّل القريبة بولين «التحرّش»، وتقف ميلاني جانباً مرتبكة ـ «ضد بروفيسور».

«اذهبوا إلى الغرفة كذا وكذا».

في الغرفة كذا وكذا سوف يزداد آيزاكس شجاعة. «نريد أن نقدّم شكوى ضد أحد البروفيسورات عندكم».

ويجيبون، متّبعين في ذلك الإجراءات القانونية «هل فكرتم في الأمر ملياً؟ أهذا حقاً ما تريدون فعله؟».

ويقول هو، ملقياً نظرة إلى ابنته، مهدّداً إياها أن تعارض «نعم، نحن نعرف ما نريد أن نفعله».

هناك استمارة يجب ملؤها. وتوضع الاستمارة أمامهم، ومعها قلم حبر. ترفع يدٌ القلمَ، يدٌ كان قد لثمها، يدٌ يعرفها معرفة حميمة. أولاً اسم جانب الادّعاء: ميلاني آيزاكس، بأحرفٍ كبيرة واضحة. تحت عمود من المربعات تتمايل اليدُ، بحثاً عن ذلك الذي ستشير إليه. «ها هو»، بإصبع الوالد الملطّخة بالنيكوتين. اليد تبطئ، تستقر، تضع إشارة X، صليبَ استقامتها: *J'accuse* (إني أتّهم). ثم الفراغ المخصّص لتدوين اسم المتَّهم. تكتبُ اليدُ: ديفيد لري: بروفيسور. أخيراً، في أسفل الصفحة، التاريخ وتوقيعها: الزخرفة الأرابسكية لحرف م، وحرف ل بالتفاف جزئه العلوي، وانخفاض حرف ياء، وازدهار آخر حرف س.

انتهى العمل. اسمان على ورقة، اسمه واسمها، جنباً إلى جنب. اثنان في سرير، لم يعودا عاشقَين بل هما خصمان.

* * *

عرَّجَ على مكتب نائب المدير وحدّد له موعداً عند الساعة الخامسة خارج أوقات الدوام الرسمي.

في الساعة الخامسة كان ينتظر في الرواق. ظهرَ آرام حكيم، الممتلئ شباباً وقاده إلى الداخل. وهناك وجدَ أن شخصين قد سبقاه إلى الغرفة: إيلين وينتر، رئيسة القسم الذي يعمل فيه، وفاروديا رسول من قسم العلوم الاجتماعية، التي ترأس لجنة الجامعة الموسّعة حول التمييز.

قال حكيم «إن الوقت متأخّر يا ديفيد، ونحن نعرف سبب وجودنا هنا، لذا دعنا ندخل في صلب الموضوع. كيف يمكننا أن نعالج هذه القضية بأفضل طريقة؟».

«تستطيع أن تُعلِمَني بفحوى الشكوى».

«حسن جداً. إننا بصدد شكوى قدَّمتها الآنسة ميلاني آيزاكس. وأيضاً بصدد» ـ ونظر إلى إيلين وينتر ـ «بعض التصرفات الشاذة السابقة التي يبدو أنها تشمل الآنسة آيزاكس. إيلين؟».

استلمت إيلين وينتر زمام الكلام. إنها لم تحبه قط؛ وكانت تعتبره من مخلّفات الماضي، كلما تمَّ الإسراع في التخلُّص منها كان أفضل. «هناك تساؤل حول حضور الآنسة آيزاكس الدوام، يا ديفيد. وفقاً لأقوالها ـ تحدثتُ معها عبر الهاتف ـ فإنها حضرت فقط درسين خلال الشهر الماضي. إن كان هذا صحيحاً، فكان ينبغي أن تبلّغ عنه». وقالت أيضاً «إنها لم تقدِّم امتحان الفصل الأول. ومع ذلك» ـ نظرت في الملفّ الموجود أمامها ـ «وفقاً لسجلاتك لا شائبة تشوب حضورها الدروس وقد نالت علامة سبعين خلال

الفصل الأول». راحت ترميه بنظرات ساخرة «إذن ما لم يكن هناك اثنان ميلاني آيزاكس...».

قال: «لا توجد إلا واحدة. لن أدافع عن نفسي».

تدخّلَ حكيم بهدوء «يا أصدقائي، ليس هذا هو الوقت أو المكان المناسبين للدخول في قضايا جوهرية. إن ما علينا أن نفعله» ـ ونظر إلى الاثنين الآخرين ـ «هو أن نوضِّح الإجراء المتّخذ. كل ما سأقوله، يا ديفيد، هو أن القضية سوف تُعَالج بسرّية قصوى، أؤكد لك هذا. اسمك سوف يُصان، واسم الآنسة آيزاكس أيضاً سوف يُصان. سوف تُشكّل لجنة، يكون عملها تحديد إن كان هناك مبرِّر لاتخاذ تدابير تأديبية. سوف تُتاح الفرصة لك أو لوكيلك القانوني أن يعترض على تأليفها. وجلسة الاستماع سوف تُعقد سراً. في تلك الأثناء، وإلى أن تقدّم اللجنة توصيتها إلى مدير الجامعة ويقوم هذا الأخير باتخاذِ الإجراء المناسب، فإن كل شيء سوف يبقى على ما هو عليه. لقد انسحبت الآنسة آيزاكس رسمياً من الدورة التي تتلقاها معك، ويُتوقع منك أن تمتنع عن أي نوع من الاتصال بها. هل هناك ما نسيتُ ذكره، فاروديا، إيلين؟».

هزَّت الدكتورة رسول رأسها نفياً، دون أن تنطق بكلمة.

«إن قضايا التحرُّش هذه، يا ديفيد، تكون دائماً معقّدة، معقّدة ومؤسفة، لكننا نعتقد أن تدابيرنا جيدة ومنصفة، لذا سوف نتّخذها بالتدريج، وطبقاً للأصول. اقتراحي الوحيد هو أن تطّلع غلى الإجراءات المتّخذة وأن تحصل ربما على نصيحة قانونية».

كاد يُدلي بجواب، لكن حكيم رفع يداً مخدَّرة. قال «أجِّلْ الأمر، يا ديفيد».

طفح كيله. «لا تقل لي ماذا عليَّ أن أفعل. أنا لستُ طفلاً».

ترك المكان وهو حانق. لكن المبنى كان موصداً وحارس الباب ذهبَ

إلى بيته. والمَخرج الخلفي أيضاً كان مُغلقاً. واضطر إلى اللجوء إلى حكيم لإخراجه.

كانت تُمطِر. قال حكيم «شاركني مظلتي»؛ ثم قال، عند سيارته، «بيني وبينك، يا ديفيد، أريد أن أقول إني متعاطف معك كليّاً. حقاً. إن مثل هذه الأمور يمكن أن تكون جحيماً».

كان يعرف حكيم منذ سنين عدّة، كانا يلعبان معاً التنس أيام كان يلعب التنس، غير أنه الآن ليس في مزاج يسمح له أن يتبادل الودّ الذكوري. هزّ كتفيه بنزق، وولج سيارته.

كان من المفترض أن تبقى القضية في طيّ الكتمان، لكنها طبعاً لم تكن كذلك، فالناس يتكلمون. وإلا فلماذا حين يدخل إلى مكانٍ عام يرينُ الصمتُ على المتكلمين، ولماذا عَمَدتْ زميلةٌ أصغرُ سناً منه، وكان حتى ذلك الحين على علاقة ودّية تماماً معها، إلى وضعِ كوبِ الشاي والرحيل، ونظرتْ إليه أثناء مرورها وكأنها لا تراه؟ لماذا لم يحضر أول محاضرة يلقيها حول بودلير غير طالبَين فقط؟.

إنه يرى أن طاحونة الثرثرة تدور ليلاً ونهاراً وتطحن السمعة، وأن مجتمع المستقيمين، يعقدون جلساتهم في الزوايا، ويتبادلون عبر الهاتف، وخلف الأبواب المغلقة، الهمسات والضحكات. *Schadenfreude* (ابتهاج خبيث). أولاً يصدُرُ الحكم، ومن ثم تجري المحاكمة.

في أروقة قسم الاتصالات أصرَّ على أن يسير مرفوع الرأس.

تحدّثَ مع المحامي الذي يقوم بمعاملة طلاقه. قال له المحامي «فلنكن واضحين أولاً. ما مدى صحة المزاعم؟».

«إنها صحيحة تماماً. كنت أقيم علاقة مع الفتاة».

«أأنتَ جادّ؟».

«هل الجدّية تفيد القضية أم تسيء إليها؟ فبعد أن يتخطّى المرء سناً معيّنة تصبح علاقاته العاطفية كلها جادّة. مثل نوبات القلب».

«حسن، إن نصيحتي إليك، من الناحية الاستراتيجية، هي أن تجد امرأة لتمثّلك»، ثم ذكر له اسم امرأتين، «ركّز على تحقيق استقرارك الشخصي. قدِّم تعهدات معيّنة، غِبْ فترة من الزمن مثلاً، وفي المقابل تعمل الجامعة على إقناع الفتاة، أو عائلتها، بإسقاط الدعوى. وهذا أقصى ما يمكنك أن تأمله. خذ بطاقة صفراء. قلِّل من حجم الضرر، انتظر حتى يخفّ ضجيج الفضيحة».

«أي نوع من التعهدات؟».

«تدريب الحساسية. الخدمة الاجتماعية. الاستشارة. افعل كل ما في وسعك».

«استشارة؟ أنا بحاجة إلى استشارة؟».

«لا تُسئ فهمي. إنني ببساطة أقول إن أحد الآراء المقدّمة إليك قد يكون الاستشارة».

«لإصلاحي؟ لشفائي؟ أم لتخليصي من الرغبات غير الملائمة؟».

هزَّ المحامي كتفيه لا مبالاة «لا يهم».

في حرَم الجامعة رُفعت شعارات «أسبوع التوعية حول الاغتصاب»، «النساء تناهض الاغتصاب، أعلنوا الحرب»، تُعلِن عن يقظة مدة أربع وعشرين ساعة تضامناً مع «الضحايا الحديثات». وأقحم أحدهم كتيّباً من تحت عقب الباب، عنوانه: «*النساء يرفعن الصوت*». وفي أسفله كتب على عجل بقلم رصاص رسالة تقول: «*انتهت أيامك، يا كازانوفا*».

تناولَ طعامَ العشاء مع زوجته السابقة روزاليند. كانا منفصلين منذ ثماني سنوات: كانا ببطء، واحتراس، يعودان صديقين من جديد، بصورةٍ

ما. محاربان قديمان. وقد طمْأنه أن روزاليند كانت ما تزال تقطن في الجوار: لعلها تكنُّ له الشعور نفسه. ثمة من نعتمد عليه عندما يصل الأسوأ: كالسقوط في الحمّام، وظهور الدم في البراز.

تحدّثا عن لوسي، نتاجه الوحيد من زواجه الأول، التي كانت تعيش حينئذٍ في مزرعةٍ في الكيب الشرقي. قال «قد أراها قريباً، إنني أفكر في القيام برحلة».

«في العطلة الانتصافية؟».

«كاد الفصل ينتهي. لم يبق غير أسبوعين».

«ألهذا أي صلة بالمشاكل التي تمرُّ بها؟ لقد سمعتُ أن لديك مشاكل».

«أين سمعتِ هذا؟».

«الناس يتكلمون، يا ديفيد. الجميع يعلمُ بأمر علاقتك الجنسية الأخيرة، وحتى أدق التفاصيل المثيرة. ولا أحد يهتم بإسكاتها، إلا أنت. هل تسمح لي أن أعبّر لك عن مدى حماقة الأمر؟».

«كلا، لا أسمح لك».

«مع ذلك سأقول. إنه أحمق وقبيح أيضاً. أنا لا أعرف ماذا تفعل فيما يخص الجنس ولا أريد أن أعرف، ولكن ليست هذه الطريقة لحل مشكلته. أنت تبلغ ماذا ـ اثنين ـ وخمسين؟ أتظن أن أي صبيّة تستمتع بمضاجعة رجل في مثل هذه السن؟ أتظن أنها تستمتع بمراقبتك وأنت منهمك في...؟ ألم يخطر هذا ببالك قط؟».

لزم الصمت.

«لا تتوقع أن أتعاطف معك، يا ديفيد، ولا تتوقع تعاطفاً من أي إنسان آخر أيضاً. لا تعاطف، لا رحمة، ليس في هذا اليوم والعمر. سوف تُرفع يدُ كل إنسان ضدك، ولم لا؟ إنني، بحق، لا أفهم ـ كيف استطعتَ أن تفعل ذلك؟».

كانت النبرة القديمة قد شابتْ صوتها، نبرة السنوات الأخيرة من حياتهما الزوجية: الاتهام المضاد الانفعالي. حتى روزاليند يجب أن تعي هذا. ومع ذلك معها حق في هذه النقطة. لعل من الأصوب أن يُصانَ الشبان من مرأى عجائزهم وهم في نوبات شغفهم. فهذا عمل العاهرات، أولاً وقبل كل شيء: أي تحمُّل لحظات نشوة القبح.

تابعت روزاليند قائلة «على أي حال، إذن تقول إنك سترى لوسي».

«نعم، فكّرتُ في أن أذهب، بعد انتهاء التحقيق وأقضي بعض الوقت معها».

«والتحقيق؟».

«هناك لجنةُ تحقيقٍ ستُعقد في الأسبوع القادم».

«هذا إجراءٌ سريع جداً. وبعد أن ترى لوسي؟».

«لا أدري. لستُ متأكداً من أنه سيُسمح لي بالعودة إلى الجامعة. لست متأكداً من أني أرغبُ في ذلك ».

هزَّت روزاليند رأسها أسفاً «ألا ترى أن هذه نهاية مشينة لحياتك المهنية؟ ولن أسألك إن كان ما حصلتَ عليه من تلك الفتاة يستحقُ هذا الثمن. كيف ستستغل وقتك؟ ماذا عن معاشك التقاعدي؟».

«سوف أتوصّل معهم إلى اتفاقٍ ما. لا يمكنهم أن ينبذوني ويتركوني بلا معاش».

«أحقاً لا يمكنهم؟ لا تغالي في ثقتك فيما تقول. كم عمرها ـ أقصد محبوبتك؟».

«عشرون. راشدة. راشدة بما يكفي لتتّخذ قراراتها».

«تقول الرواية إنها تدمن الأقراص المنوّمة. أصحيح هذا؟».

«لا أعرف أي شيء عن الأقراص المنومة. يبدو لي خبراً ملفّقاً. من أخبرك عن قصة الأقراص المنومة؟».

تجاهلتْ السؤال. «أكانت تحبك؟ أتخلّيتَ عنها؟».

«كلا. لا هذا ولا ذاك».

«إذن ما سببُ هذه الشكوى؟».

«من يدري؟ لم تصارحني بدخيلتها. لقد وقع شجارٌ من نوعٍ ما في الخفاءِ لم أُتَّهم به. كان في الأمرِ شابٌ يحبها وغيور، ووالدان ساخطان. لابد أنها قد انهارت في النهاية. لقد فوجئتُ تماماً».

«كان يجب أن تعلم، يا ديفيد، أنك أكبر سناً من أن تتورّط مع أولاد الآخرين. كان عليك أن تتوقع أوخم العواقب. على أي حال، إن الأمر برمّته مخزٍ جداً. حقاً».

«أنت لم تسأليني إن كنتُ أحبها. أليس من المفترض أن تسأليني عن هذا أيضاً؟».

«حسن. هل تحب هذه الصبية التي تمرّغ اسمك في الوحل؟».

«إنها ليست مسؤولة ولا تلوميها».

«لا ألومها! إلى جانب مَنْ تقف؟ طبعاً أنا ألومها. ألومك وألومها. إن الأمر كله مخزٍ من بدايته وحتى النهاية. مخزٍ ومنحطّ أيضاً. ولست آسفة لقولي هذا».

في الأيام الخوالي كان، عند هذا الحد، ينفجر فيها. أما في تلك الليلة فلم يفعل. لقد أضحى جلداهما سميكين، هو وروزاليند، كلٌّ اتجاه الآخر.

في اليوم التالي اتّصلتْ روزاليند به. «ديفيد، هل قرأت عدد اليوم من *آرغوس*؟».

«لا»

«حسن، استعد. ثمة كلام فيه عنك»

«ماذا يقول؟»

«اقرأه بنفسك»

كان التقرير وارداً في الصفحة الثالثة، عنوانه: «بروفيسور يُتَّهَم بقضية جنسية». قرأ بسرعة الأسطر الأولى... «وقد تقرَّرَ أن يمْثُل أمام هيئة تأديبية بتهمة التحرّش الجنسي. وال CTU تلزم الصمت التام حيال آخر فضيحة من سلسلة فضائح من ضمنها تسديدُ دُفعاتِ منحةٍ زائفةٍ وحلقات جنس مزعومة تقوم بنشاطاتها خارج منازل الطلاب. ولم نستطع أن نحصل على تعليق لري (53) سنة، مؤلف كتاب عن شاعر الطبيعة الإنكليزي ويليام ووردسوورث».

ويليام ووردسوورث (1770 - 1850)، شاعرُ الطبيعة. ديفيد لري (1945 - ؟)، معلّق على وليم ووردسوورث، وتلميذٌ شائن له. بورك الطفل اللونيد. ليس هو منبوذاً. بورك الطفل.

ستة

عُقِدَتْ جلسةُ الاستماع في غرفةِ اجتماع اللجنة قِبالة غرفة مكتب حكيم. أُدخِلَ وجلس عند طرف الطاولة إلى جانب ماناس ماثابين نفسه، بروفيسور الدراسات الدينية، الذي سيترأّس التحقيق. إلى يساره جلس حكيم، سكرتيره، وفتاة شابة، طالبة في فرع ما؛ وإلى يمينه الأعضاء الثلاثة في لجنة ماثابين.

لم يكن متوتر الأعصاب. على العكس، كان واثقاً من نفسه، متوازنَ وجيبِ القلبِ، وكان قد نام نوماً هانئاً. قال في نفسه، إنها الخيلاء، خيلاء المقامر الخطرة؛ الخيلاء والافتخار بالنفس. كان يخوض التجربة بالروح غير المناسبة. لكنه لم يأبه.

أومأ برأسه لأعضاء اللجنة. كان يعرف اثنين منهم: فاروديا رسول و ديزموند سوارتس، عميد كلية الهندسة. أمّا الثالث، طبقاً للأوراق الموضوعة أمامه، فيدرِّس في مدرسة التجارة.

قال ماثابين مفتتحاً محضر الجلسة «إن الهيئة المجتمعة هنا لا تملك الصلاحيات. وكل ما في إمكانها أن تفعله أن تقدِّم توصياتها. وزيادة على ذلك، يحقُّ لك أن تعترض على تكوينها. لذا دعني أسأل: هل بين أعضاء اللجنة مَنْ ترى أن اشتراكه فيها قد يضرُّ بك؟»

أجاب «لا اعتراض لدي بالمعنى القانوني، بل لدي تحفّظات ذات طابع فلسفي، لكنني أعتقد أنه محظورٌ الخوضُ فيها».

سادَ تململٌ وتحرُّكٌ. قال ماثايين «أعتقد أنه من الأفضل أن نقتصر على المعنى القانوني. إن لم يكن لديك اعتراض على تكوين اللجنة، فهل لديك أي اعتراض على حضور طالبة بصفة مراقب من منظمة [الائتلاف ضد التمييز]؟».

«إنني لا أخشى اللجنة. ولا أخشى المراقب».

«حسن جداً. فلنبدأ بما بين أيدينا. صاحب الشكوى الأولى هي الآنسة ميلاني آيزاكس، طالبة في برنامج الدراما، قدّمت تصريحاً لدى كلٍ منكم نسخةٌ عنه. هل من داعٍ لتلخيص ذلك التصريح؟ بروفيسور لري؟».

«هل أفهم من كلامك، يا سيدي الرئيس، أن الآنسة آيزاكس لن تحضر شخصياً؟».

«الآنسة آيزاكس مَثُلَتْ أمام اللجنة بالأمس. دعني أذكِّركَ مرة أخرى بأن هذه ليست محاكمة بل تحقيق. وقوانين إجرائنا تختلف عن قوانين قاعة المحكمة. هل يشكِّل هذا مشكلة بالنسبة إليك؟».

«لا».

تابعَ ماثايين «التهمة الثانية والمتعلقة بالأولى جاءت من أمين السجلّ، قدّمها من خلال مكتب سجلات الطلاب، وتتعلق بصحة سجل الآنسة آيزاكس. ويقول الاتهام إن الآنسة آيزاكس لم تحضر الدروس كلها أو تقدِّم وظائفها التحريرية كلها أو تحضر كل الامتحانات التي أعطيتها علامات عليها».

«أهذا كل شيء؟ أهذه هي الاتهامات؟».

«هذه هي».

أخذ نفساً عميقاً. «أنا واثق من أن لديّ أعضاء هذه اللجنة أعمالاً أفضل يستغلون بها أوقاتهم بدل إعادة صياغة حكايةٍ لن يفنّدوها. إنني أعترف بذنبي في كِلا التُهمتين. انطقوا بالحكم، ولنتابع حياتنا المعتادة».

مال حكيم على ماثابين، ودار بينهما بعض الهمس.

قال حكيم: «بروفيسور لري، يجب أن أكرر، إن هذه لجنة تحقيق، ودورها أن تسمع كِلا طرفيّ القضية وترفع توصياتها. ولا صلاحيّة لديها لاتخاذ القرارات. مرة ثانية أسألك، أليس من الأفضل أن تجد شخصاً على اطلاع على إجراءاتنا ليمثّلك؟».

«لستُ بحاجةٍ إلى تمثيل. أستطيع أن أمثِّلَ نفسي أحسن تمثيل. هل أفهم من هذا أن علينا، على الرغم من الاعتراف الذي أدليتُ به، أن نواصل جلسة الاستماع؟».

«إننا نريد أن نمنحكَ الفرصة لكي تحدِّد موقفك».

«لقد حدّدتُ موقفي. أنا مذنب».

«مذنب بماذا؟».

«بكل ما اتُّهِمْتُ به».

«إنك تدور بنا في دائرة مفرغة، بروفيسور لري».

«بكل ما تجزم الآنسة آيزاكس به، وبإعطاء سجلات زائفة».

هنا تدخّلتْ فاروديا رسول. «تقول إنك تقبل بتصريح الآنسة آيزاكس، يا بروفيسور لري، ولكن هل قرأته فعلاً؟».

«لا رغبة لدي في قراءة تصريح الآنسة آيزاكس. أنا أقبل به. إنني لا أرى أي سبب يدفع الآنسة آيزاكس إلى الكذب».

«ولكن أليس من الحكمة أكثر أن تقرأ التصريح فعلاً قبل أن تقبل به؟».

«لا. في الحياة هناك أمورٌ أهم من كونِ المرءِ حكيماً».

استرخت فاروديا رسول وأسندت ظهرها إلى مقعدها. «إن هذا كله تصرُّف دون كيخوتي، يا بروفيسور لري، ولكن هل تستطيع أن تتحمّل عواقبه؟ يبدو لي أن من واجبنا أن نحميك من نفسك؟»، وابتسمت لحكيم ابتسامةً كئيبةً.

«تقول إنك لم تسعَ للحصول على نصيحة قانونية. هل استشرتَ أحداً ـ كاهناً، مثلاً، أو مستشاراً؟ هل أنت على استعداد لتلقّي استشارة؟».

جاءه السؤال من الصبيّة القادمة من مدرسة التجارة. شعر أنه بدأ يتّخذ موقفاً عدائياً. «لا، لم أسعَ للحصول على الاستشارة ولا أنوي أن أسعى. أنا رجل راشد. ولا أتقبّل الاستشارة. لقد تجاوزت مرحلة الاستشارة بمراحل»، ثم استدار نحو ماثابين، «لقد أدليتُ باعترافي. هل هناك سببٌ معقول لمواصلة هذه المناظرة؟».

جرى همسُ الاستشارة بين ماثابين وحكيم.

قال ماثابين: «تقترح اللجنة أن تأخذ فترة راحة لتناقش اعتراف البروفيسور لري».

دارت جولة من هزّ الرؤوس.

«بروفيسور لري، هل لي أن أطلب منك أن تخرج من الغرفة بضع دقائق فقط، أنت والآنسة فان وايك، ريثما نتداول؟

دخل مع الطالبة المراقبة إلى غرفة مكتب حكيم. لم يتبادلا أي كلمة؛ من الواضح أن الفتاة شعرت بالارتباك. «*انتهت أيامك يا كازانوفا*». ما رأيها الآن بكازانوفا وهي تقف أمامه وجهاً لوجه؟.

استُدعيا من جديد. الجو السائد في الغرفة لا يبشِّر بخير: بدا له مكفهراً.

قال ماثابين: «إذن، لنتابع: بروفيسور لري، تقول إنك تقبل بصحّة الاتهامات الموجّهة ضدك؟».

«إني أقبل بكل ما تدَّعيه الآنسة آيزاكس».

«دكتورة رسول، ألديكِ ما تقولين؟».

«نعم، أريد أن أسجِّل اعتراضاً على ما أدلى به بروفيسور لري من ردود، والتي أعتبرها ملتبسة إلى أقصى حد. إن بروفيسور لري يقول إنه يقبل بالاتهامات. ولكن حين نحاول أن نفهم منه ما هي الاتهامات التي يقبل بها، لا نحصل منه إلا على السخرية. وأنا أرى أنه لا يقبل بالاتهامات إلا إسميّاً. وفي قضية ذات نبرة عالية كهذه، فإن القاعدة الشعبية الأوسع مخوّلة أن -».

لا يستطيع أن يسمح بهذا. علَّقَ ساخراً «لا نبرة عالية في هذه القضية».

واصلتْ، وقد رفعت صوتها بيسرٍ خبير، لتهيمن عليه. «إن القاعدة الشعبية الأوسع مخوّلة أن تعرف ما الذي بالضبط اعترَفَ به بروفيسور لري وبالتالي ما الذي يُلام عليه من أجله».

ماثابين: «إذا وقع اللوم عليه».

«إذا وقع اللوم عليه. سنكون قد فشلنا في أداء واجبنا إذا لم يكن واضحاً جليّاً في أذهاننا، وفي توصياتنا، ما الذي يُلامُ البروفيسور عليه».

«أعتقد أن أذهاننا صافية، يا دكتورة رسول. والسؤال هو إن كان ذهن البروفيسور هو الصافي».

«بالضبط. لقد عبّرتِ تماماً عمّا أردت أن أقول».

كان من الأحكم أن يلزم الصمت، لكنه لم يلزمه. قال: «إن ما يدور في ذهني هو شأني أنا، وليس شأنك، يا فاروديا. وبصراحة، إن ما تطلبينه

مني ليس جواب وإنما اعتراف. حسن، إني أعترف. أنا أقدِّم بيّنةً، وهذا حقي. أنا مذنب. هذه هي بيِّنتي. أقصد ما دمتُ أستعدُّ للرحيل»

«سيدي الرئيس، يجب أن أحتجّ. إن هذه القضية تتجاوز مجرد التقنيات. والبروفيسور لري يعلن أنه مذنب، لكنني أتساءل، هل هو يقبل ذنبه أم أنه ببساطة يتصنَّع ذلك أملاً في أن تُدْفَن القضية تحت الأوراق وتُنسى؟ فإذا كان ببساطة يتصنَّع، فإني أصرُّ على أن نُنْزِل فيه أشدَّ العقوبات».

قال ماثابين: «دعيني أذكِّركِ من جديد، دكتورة رسول، بأننا لسنا مخوّلين بإنزال العقوبات».

«إذن علينا أن نوصي بأشدّ العقوبات. بأن يُطْرَدْ البروفيسور لري فوراً وأن يُحرَم من كل الإعانات والمزايا».

«ديفيد؟»، الصوت صدر عن دزموند سوارتس، الذي لم يكن قد تكلَّمَ حتى ذلك الحين، «ديفيد، هل أنت واثقٌ من أنك تتعاملُ مع الوضعِ بالأسلوبِ الأمثل؟»، ثم استدارَ سوارتس إلى الرئيس «سيدي الرئيس، كما سبق وقلتُ حين كان بروفيسور لري خارج الغرفة، أعتقد أن علينا، بوصفنا أعضاء في هيئة جامعية، ألا نقيم دعوى ضد زميلٍ لنا بطريقةٍ رسمية باردة. ديفيد، هل أنتَ واثقٌ من أنك لا تريد فترةَ تأجيل لتفسح المجال لنفسك لتفكِّر وربما تستشير أحداً؟».

«ولماذا؟ ما الذي يستلزم مني أن أفكر فيه؟».

«تفكَّر في خطورة موقفك الذي أعتقد أنك لا تدركه إدراكاً تاماً. وسأكون فظاً وأقول، إنك تسعى نحو فقدان منصبك. وهذا ليس مزاحاً في أيامنا هذه».

«إذن ماذا تنصحني أن أفعل؟ أن أزيل ما تسمّيه الدكتورة رسول بالمحاكاة الساخرة الماكرة من نبرة صوتي؟ أم أن أزرف دموع الندم؟ ما الذي يلزم لإنقاذي؟».

«قد لا تصدِّق، يا ديفيد، إذا قلت لك إننا نحن المتحلِّقون حول هذه الطاولة لسنا أعداءك. إن لدينا لحظات ضعفنا، كلنا، وما نحن إلا بشر. وقضيتك ليست فريدة من نوعها. ونودُّ أن نجد طريقةً لك لكي تستمر في مهنتك».

انضمَّ حكيم إلى الحديث بسهولة «نحب أن نساعدك، يا ديفيد، على أن تجد مخرجاً من كابوسٍ فعليّ».

لقد كانا صديقين صدوقين. وأرادا أن ينقذاه من ضعفه، أن يوقظاه من كابوسه، ولم يرغبا في رؤيته يتسول في الشوارع. أرادا أن يعيداه إلى غرفة صفّه.

قال «وسط هذا الفيض من المشاعر الودّية لا أسمع صوتاً أنثوياً»

ران الصمت.

قال: «حسن جداً، دعوني أعترف. بدأت القصة ذات مساء، نسيت التاريخ، لكن ليس منذ وقت بعيد. كنت أجتاز حدائق الكلّية القديمة، وتصادف أن كانت الفتاة المعيّنة، الآنسة آيزاكس، تسير فيها. وتقاطع طريقانا. وتبادلنا بضع كلمات، وفي تلك اللحظة حصل شيء لن أحاول أن أصفه، لأني لست شاعراً. يكفي أن أقول إن إله الحب تدخل بيننا. بعد ذلك لم أعد كما كنت».

سألتْ سيدة الأعمال بحذر «لم تعد كما كنت ماذا؟»

«لم أعد نفسي. لم أعد المطلَّق الخمسيني التائه. أصبحتُ خادماً لإله الحب».

«هل ما تُدلي به أمامنا هو دفاع؟ أم حافز لا سبيل إلى ضبطه؟».

«إنه ليس دفاعاً. أنتم تريدون اعترافاً، وأنا أعطيكم اعترافاً. أما الحافز، فكان من السهل ضبطه. لقد رفضتُ حوافز مشابهة مرات كثيرة في الماضي، ولا يخجلني أن أعترف بهذا».

قال سوارتس: «ألا تظن أن الحياة الأكاديمية بطبيعتها تتطلّب تضحياتٍ معيّنة؟ وأن علينا أن ننكر على أنفسنا مسرّاتٍ معينة، لصالح المجموع؟».

«تقصد أن نفرض حظراً على العلاقة الحميمة بين الأجيال؟».

«لا، ليس بالضرورة. لكننا كأساتذة نشغلُ مراكزَ سلطة. وقد نفرض حظراً على الخلط بين علاقات السلطة والعلاقات الجنسية. وأشعر أن هذا ما كان يحدث في هذه القضية. أو نلزم منتهى الحذر».

تدخّلت فاروديا رسول «ها نحن من جديد ندور في دوائر مفرغة، سيدي الرئيس. نعم، لقد اعترفَ بذنبِهِ؛ ولكن حين نحاول أن نكون دقيقين، نجد فجأة أن ما يعترفُ به ليس إيذاءَ فتاةٍ شابةٍ، وإنما هو مجردُ حافزٍ لا يقوى على صدِّه، بدون أيِ ذكر للألم الذي سبّبه، أو لتاريخه الطويل في الاستغلال الذي تشكِّلُ هذه الحالةُ جزءاً منه. ولهذا أقول إن من العُقم أن نستمرَّ في مجادلةِ البروفيسور لري. علينا أن نأخذ جوابه بمعناه الظاهري ونضع توصياتنا على أساسه».

إيذاء: هذه هي الكلمة التي انتظرَ أن ينطقوا بها؛ التي أُلقيَتْ بصوتٍ يرتعشُ من فرطِ الاستقامة. ما الذي تراه فيه حين تنظر إليه بحيث يُبقيها على تلك الحالة العالية من الغضب؟ أتراه سمكة قرش بين الأسماك الصغيرة العاجزة؟ أم أنها ترى رؤيا أخرى: ذكراً ضخماً ثخين العظام يفترس فتاة صغيرة، ويداً هائلة تخنق صرخاتها؟ ما أسخف هذا! ثم تذكّر: لقد اجتمعوا هنا بالأمس في هذه الغرفة نفسها، وكانت هي، ميلاني، التي بالكاد يبلغ طول قامتها مستوى كتفه، ماثلة أمامهم. غير متعادلين: كيف يمكنه أن ينكر ذلك؟.

قالت سيدة الأعمال: «أميلُ إلى الاتفاقِ مع الدكتورةِ رسول، وما لم يُرِدْ البروفيسور لري أن يضيف شيئاً آخر، أعتقد أن علينا أن نتَّخذَ قراراً».

قال سوارتس: «قبل أن نفعل هذا، سيدي الرئيس، أودُّ أن أناشد

البروفيسور لري للمرة الأخيرة. هل لديه أي تصريح يستعد للإدلاء به؟».

«لماذا؟ لماذا تجد من المهم أن أدلي بتصريح؟».

«لأن ذلك سيساهم في تهدئة ما أصبح وضعاً مضطرباً جداً. ومن الناحية المثالية جميعاً يفضِّل أن تُحلّ هذه القضية بعيداً عن أضواء وسائل الإعلام. ولكن هذا مستحيل. لقد استجْلَبَتْ الكثير من الانتباه؛ اكتسبتْ نبرةً عاليةً لم يعد لنا سيطرة عليها. إن الأنظار كلها مثبّتة على الجامعة لترى كيف سنعالجُ الأمر. ولديَّ انطباعٌ، وأنا أنصتُ إليك يا ديفيد، بأنك تعتقد أنك عوملتَ معاملةً جائرة. وهذا خطأ فادح. إننا في هذه اللجنة نرى أنفسنا نحاول أن نتوصّل إلى تسويةٍ تسمح لك بالاحتفاظ بعملك. ولهذا تراني أسألك إن كانت لديك صيغة تصريح عام تناسبك، وتسمح لنا أن نوصي بشيء أقلّ من العقوبة القصوى، أي، الطرد والتعنيف».

«تقصد أن أتَّضِع وأطلب الرأفة؟».

تنهَّدَ سوارتس. «ديفيد، لن يفيدك أن تهزأ بجهودنا. على الأقل اقبلْ بفضِّ الاجتماع، لكي يتاح لك أن تعيد النظر في وضعك».

«ماذا تريدون أن أضمِّن التصريح؟».

«اعترافاً بأنك مخطئ».

«لقد اعترفتُ بذلك للتو. من تلقاءِ نفسي. أنا مذنبٌ بالتُّهم المنسوبةِ إليّ».

«لا تراوغنا يا ديفيد، هناك فرقٌ بين أن تُعلن أنك مذنب بتهمةٍ ما واعترافكَ بأنك على خطأ. وأنت تعلم هذا».

«وهذا سيرضيكم: أي اعترافي بخطأي؟».

قالت فاروديا رسول: «لا، بالعكس. أولاً على بروفيسور لري أن يدلي بتصريحه، وبعد ذلك نقرّر إن كنا نقبل به في ظروفٍ مخفّفة. نحن لا

نتفاوض أولاً حول ما ينبغي أن يحتويه تصريحه. يجب أن يعبِّر التصريح عنه، وأن يُصاغَ بكلماته. بعد ذلك يمكننا أن نرى إن كان نابعاً من قلبه».

«أوتعتقدين أن في مقدورك أن تخمّني، من كلماتي ـ أن تخمّني إن كان نابعاً من صميم قلبي؟».

«سوف نرى ما الموقف الذي ستعبّر عنه. سوف نرى إن كنتَ ستعبِّر عن أسفك العميق».

«حسنٌ جداً. لقد استغليتُ مركزي اتجاه الآنسة آيزاكس. كنت مخطئاً، وأنا نادم. أيكفيكِ هذا؟».

«المشكلة لا تكمن فيما إذا كان هذا يكفيني، بروفيسور لري، المشكلة هي ما إذا كان هذا يكفيكَ أنتَ. هل هو يعكسُ مشاعرَكَ الصادقة؟».

هزَّ رأسه مستنكراً «لقد قلتُ الكلمات التي طلبتها، وها أنت الآن تطلبين المزيد، تريدين مني أن أستعرضَ صدقَها. هذا مستحيل. إنه يتجاوزُ نطاقِ القانون. لقد ضقتُ ذرعاً. فلنعد إلى الأسلوب القانوني. أنا أقرُّ بذنبي. أي طالما أني مستعدٌّ للرحيل».

قال ماثابين من مجلسه: «حسن، إذا لم تكنْ هناك أسئلةٌ أخرى تطرحونها على بروفيسور لري، سوف نشكره على حضوره ونستأذن منه».

* * *

في أول الأمر لم يلاحظوه. ولم يسمع مَنْ يهتف «*ها هو!*» إلا أثناء هبوطه الدرج، وتبع ذلك صوتُ جرّ أقدام.

لحقوا به عند أسفل الدرج؛ بل إن أحدهم أمسكه من سترته ليخفّف من سرعته.

قال الصوت: «هلاّ تحدثنا قليلاً، بروفيسور لري؟».

تجاهله، وتابع طريقه خلال البهو المزدحم، حيث كان الناس يلتفتون

ويحدّقون إلى الرجل الطويل القامة يحثُّ خطاه هرباً من متعقّبيه.

اعترضتْ إحداهنَّ طريقَه. قالت «تمهَّل!». أشاح بوجهه عنها، ومدَّ يده. ثم ومضَ ضوء.

أخذتْ إحدى الفتيات تحومُ حولَه. كان شعرُها، المجدولُ بحبيباتٍ من الكهرمان، يسترسلُ على كِلا جانبيّ وجهها. ابتسمتْ، كاشفةً عن أسنانٍ بيضاءَ متساوية. قالت «هلاّ توقفنا لنتكلّم؟».

«عمَّ؟».

أقحمتْ جهازَ تسجيلٍ نحوه، فدفعه عنه.

قالت الفتاة «عن الأمر».

«أي أمر؟».

مرة أخرى ومضَ ضوء آلة تصوير.

«كما تعلم، جلسة الاستماع».

«لا تعليقَ لدي».

«أوكيه، عمَّ لديك تعليق؟».

«لا أريد أن أعلّق على أي شيء».

أخذ المتسكعون والفضوليون يتجمّعون حوله. ولو أراد أن يهرب لكان عليه أن يشقَّ طريقه شقاً بينهم.

قالت الفتاة: «ألا تشعر بالأسف؟» وقد قرَّبت جهاز التسجيل منه. «ألستَ نادماً على ما فعلتَ؟».

قال «لا، إنني خصبٌ بالتجارب».

ظلت الابتسامة مرتسمة على وجه الفتاة. «فهل أنت مستعدٌ لأن تُعيد الكرّة؟».

«أظن أني لن أحظى بفرصةٍ أخرى».

«أتفعلُ إذا أتيحتْ الفرصة؟».

«هذا ليس سؤالاً واقعياً».

أرادت المزيد، مزيداً من الكلام لملءِ بطنِ الجهازِ الصغير، لكنها في تلك اللحظة كانت مرتبكةً لا تعرف كيف تورّطه في مزيدٍ من الحماقة.

سمع أحدهم يسأل *sotto voce* (همساً) «ماذا قال إنه بالتجارب؟».

«خصبٌ».

سُمِعَ ضحك مكبوت.

هتف أحدهم للفتاة «اسأليه إن كان قد قدَّمَ اعتذاراً».

«سألته»

اعترافات، اعتذارات: ما سبب هذا النهم إلى التحقير؟ ساد صمتٌ عميق. تحلّقوا حوله كصيادين يحاصرون حيواناً غريباً ولا يدرون كيف يُجْهِزون عليه.

* * *

ظهرت الصور الفوتوغرافيّة في عددِ اليوم التالي من صحيفة الطالب، وفوقها العنوان التالي: «من هو الأبله الآن؟» وتبيّنه، وعيناه مرفوعتان نحو السماء، ويمدُّ يداً تتلمَّسُ طريقها نحو آلة التصوير. اللقطةُ مثيرةٌ للسخريةِ بحدّ ذاتها، لكن ما جعل من الصورة دُرَّة كان إقحامُ سلّة مهملات يحملها أمامه شابٌ يرسم تكشيراً واسعاً. وبخدعة منظورية بدت السلَّة وكأنها مستقرة على رأسه كقبعة الأبله. بوجود مثل تلك الصورة، أيُّ أملٍ تبقّى له؟.

يقول العنوان الرئيسي «للجنة تلزَمُ الصمتَ التامَّ بشأنِ الحُكم. اللجنة التأديبية التي تحقق في تُهم التحرُّش الجنسي وسوء السلوك الموجّهة ضد

بروفيسور مادة الاتصالات ديفيد لري لزمَتْ الصمْتَ المُطبَقْ بالأمس بشأن إصدارِ حكمها. وكل ما أدلى به رئيس اللجنة ماناس ماثابين أن النتائج التي توّصلت إليها قد قُدِّمتْ إلى رئيس الجامعة ليبتَّ فيها.

«بعد مشادّة كلامية مع أعضاء WAR (الحركة النسائية لمناهضة الاغتصاب) بعد انتهاء جلسة الاستماع، قال لري البالغ من العمر 53 سنة أنه وجد تجاربه مع الطالبات «خصبة».

«انفجرتْ المشكلةُ أولاً حين تقدَّمَ عددٌ من طلابِ لري، المتخصِّص في الشعر الرومانسي، بشكاوى».

* * *

في منزله تلقّى اتصالاً هاتفياً من ماثابين. «لقد أصدرتْ اللجنةُ توصيتها يا ديفيد، وقد طلب رئيس الجامعة مني أن أعود إليك مرة أخرى وأخيرة. إنه مستعدٌ لأن يتجنّب اتّخاذَ أقصى التدابير، كما قال، شريطةَ أن تُدلي شخصياً بتصريحٍ يكون مُرضياً لنا ولك».

«ماناس، لقد سبق أن تكلمنا في هذا. وأنا ـ».

«انتظر. اسمعني للنهاية. لدي أمامي مسودة تصريح يلبّي متطلباتنا. وهو قصير جداً. هل لي أن أقرأه على مسامعك؟».

«اقرأه».

قرأ ماثابين: «إنني أقرُّ بدون تحفّظ بإساءتي إلى الحقوق الإنسانية للمشتكية، بالإضافةِ إلى الإساءة إلى السلطة التي انتدبَتْها الجامعة لي. وأقدمُ اعتذاري الصادق لِكِلا الطرفين وأقبلُ بإنزالِ أي عقوبةٍ مناسبةٍ بي».

«ماذا تعني بـ«أي عقوبة مناسبة»؟»

«كما أفهمها أنا، تعني التغاضي عن طردك. وفي أسوأ الاحتمالات،

سوف يُطلَب منك أن تأخذَ إجازةً مفتوحة. ومسألة عودتك في نهاية المطاف إلى أداء واجباتك في مجال التعليم تعتمد عليك، وعلى قرار عميد كلّيتك ورئيس القسم».

«أهذا كل شيء؟ أهذا هو الأمر كله؟».

«هذا تأويلي له. وإذا أشرت إلى أنك تقبل بالتوقيع على التصريح، الذي سيأخذ شكل الالتماس المخفّف، سيكون رئيس الجامعة مستعداً لقبوله بصِبغته تلك».

«بأي صِبغة؟».

«صِبغة الندم».

«ماناس، لقد ناقشنا مسألة الندم بالأمس. قلت لك رأيي. لن أفعل ذلك. لقد مثلْتُ أمام هيئةِ قضاءٍ دستوريةٍ رسمية، أمام فرعٍ من القانون. وأمام تلك الهيئة القضائية المدنية أقرّيتُ بذنبي، إقراراً مدنياً. ذاك الإقرار يجب أن يكون كافياً. وإعلان التوبة لا يقدّم ولا يؤخّر. التوبة تنتمي إلى عالم آخر، إلى كونٍ آخر من المخاطبة».

«أنت تخلط المسائل يا ديفيد. ليس المطلوب منك أن تعلن توبتك. وما يجري في نفسك مبهم لنا، بوصفنا أعضاءً في ما تسمّيه بالهيئة القضائية إذا لم أقل بشراً مثلك. إن المطلوب منك هو أن تُدْلي بتصريحٍ».

«أليس المطلوب مني أن أقدِّمَ اعتذاراً قد لا أكون صادقاً فيه؟».

«المحكّ ليس إن كنتَ صادقاً أم لا. هذه المسألة، في رأيي، تعود إلى ضميرك. أما المحكّ فهو ما إذا كنتَ مستعداً للإقرار بخطئك علناً واتخاذ خطوات لتصحيحه».

«الآن نحن نقطع كل ما يصلُ بيننا. أنتم اتّهمتموني، وأنا أقرّيت بذنبي بالتُهم الموجّهة إليّ. هذا كل ما تحتاجونه مني».

«لا، بل نريد المزيد. ليس كثيراً جداً، وإنما فقط المزيد. آمل أن ترى طريقك بوضوح وتمنحنا هذا».

«آسف، لا أستطيع».

«ديفيد، لا أستطيع أن أظل أحميك من نفسك. لقد مللتُ هذا، وكذا بقية أعضاء اللجنة. هل تحتاج إلى وقت لتعيد التفكير؟».

«كلا».

«حسن. ليس أمامي إلا أن أقول، ستسمعُ النطقَ بالحكمِ من رئيسِ الجامعة».

سبعة

حالما قرّر أن يسافر، لم يعد هناك ما يمنعه. نظّفَ الثلاجة من محتوياتها، وأوصدَ منافذ المنزل، وعند الظهيرة كان على الطريق العامة. توقّفٌ في أوتشورن، ورحيلٌ عند انبلاج الفجر: وفي منتصف الفترة الصباحيّة كان قد اقتربَ من غايته، بلدة سالم على طريق غرامستاون كنتون في الكيب الشرقي.

ملكيّةُ ابنته الصغيرة تقع في نهاية دربٍ متعرِّج قذر يبعد بضعة أميال عن البلدة: خمسة هكتارات من الأرض، معظمها صالح للزراعة، فيها مضخّة هوائية، وإسطبلات ومبان إضافية، وبيت مزرعة منخفض، وممتد، مدهون باللون الأصفر، وله سقف من الحديد المطلي بالزنك وشرفة ذات مسطبة مغطاة. الحدود الأمامية معلّمة بسياجٍ من الأسلاك وبأجمات من أبي خنجر وإبرة الراعي، أما باقي الجهة الأمامية فترابٌ وحَصى.

كانت سيارة فوكس فاغن كومبي قديمة متوقفة على الدرب؛ فتوقّف خلفها. ومن ظِلّ الشرفة المُغطاة ظهرت لوسي تحت ضياء الشمس. للوهلة الأولى لم يتعرّف عليها. لقد مرّ عام على آخرِ لقاءٍ له معها، وقد ازدادت بدانة. أصبح ردفاها وثدياها (فتّشَ عن الكلمةِ المناسبة لوصفها) وافرةً. تقدّمتْ لترحّب به، حافية القدمين لأن ذلك أكثر راحة، فاتحةً ذراعيها واسعاً، وعانقته، وقبّلته على وجنته.

قال في نفسه، وهو يعانقها، ما ألطفها من فتاة، ما أمتعه من ترحاب بعد رحلة طويلة!.

كان المنزل، الفسيح، المظلم، المُصقِع، حتى في منتصف الظهيرة، يعود تاريخه إلى زمن العائلات الكبيرة، والضيوف الذين كانوا يأتون بعربات ممتلئة بهم. قبل ست سنوات انتقلت لوسي إلى هنا كعضوٍ في مجموعةٍ، قبيلةٍ من الشبّان الذين يبيعون متجولين بضائعَ جلدية وأوانيَ فخاريّة مجفّفة بأشعة الشمس في غرامستاون، وزَرَعتْ قنّب الداغا، بين عيدان الذرة. وحين انفرط عقد المجموعة، انتقلت بقيّتُها إلى نيو بيتسدا، ومكثتْ لوسي في المزرعةِ الصغيرةِ مع صديقتها هيلين. لقد عشقت المكانَ، كما قالت، وأرادت أن تجعل منه مزرعة جيدة. وقد ساعدها هو لتشتريها. وها هي الآن، بثوبها المزيّن بالزهور، وقدميها الحافيتين وكل شيء، تعيش في منزلٍ يعبقُ برائحة خبزٍ طازج، لم تعد طفلة تلهو بعملِ الزراعة وإنما امرأة ريفية صلبة، *boervrou*.

قالت: «سأضعك في غرفة هيلين. نور شمس الصباح يصلها. لن تَتَصوَّر كم كانت أوقات الصباح باردة خلال هذا الشتاء».

قال: «كيف حال هيلين؟». كانت هيلين امرأة ضخمة، وحزينة المظهر، عميقة الصوت، وذات بشرة خشنة، وأكبر سناً من لوسي. ولم يفهم قط ما كانت لوسي تراه فيها؛ كان يتمنى في داخله أن تعثر على شخصٍ أفضل، أو أن يعثر عليها ذاك الشخص.

«لقد عادت هيلين إلى جوهانسبرغ منذ شهر نيسان. ومنذ ذلك الحين وأنا وحدي، لولا بعض المساعدة».

«لَمْ تخبريني بهذا. ألا تشعرين بالخوف وأنتِ وحدك؟».

ضحكت لوسي «يوجد لدي كلاب. لا زال للكلاب فائدة. وكلما

زاد عدد الكلاب، زادت قوة الردع. على أي حال، إذا ما تصادف وحدث اختراقٌ، أعتقد أن شخصين لن يكونا أفضل من شخص وحده».

«أصبحتِ فيلسوفاً».

«نعم. حين يفشل كل شيء، تفلسف».

«ولكن لديك سلاح».

«لدي بندقية. سأريها لك. اشتريتها من أحد الجيران. لم أستخدمها قط، لكني سأفعل».

«عظيم. أصبحتِ فيلسوفاً مسلّحة. يعجبني هذا».

كلابٌ وبنادقٌ؛ خبزٌ في الفرنِ ومحصولٌ في الأرض. غريب أن ينجب هو وأمها، ساكنا المدينة، العقلانيان، هذه المستوطنة الشابة المتينة البنية، هذا النتاج المتأسِّل[1]. ولكن لعلها ليست من نتاجهما: لعل للتاريخِ الفضلُ الأكبرُ فيها.

قدّمت له شاياً. كان جائعاً: التهمَ قطعتين ضخمتين من الخبزِ مع مربى التين الشوكي، صنعُ بيتيّ. وكان يشعر بعينيها متركزتين عليه وهو يأكل. يجب أن يكون حذراً: لا شيء أشدّ إثارةً لاشمئزازِ طفلٍ من مشاهدته لجسديّ والديه وهما يعملان.

أظافرُ يديها كانت قذرة. إن القذارة الريفية، في رأيه، مشرِّفة.

فضَّ محتويات حقيبته في غرفة هيلين. الأدراجُ فارغة؛ وفي خِزانةِ الملابسِ القديمةِ الضخمةِ عُلِّقَ فقط رداءٌ سرواليّ أزرق اللون. إن كانت هيلين غير موجودة، فذلك ليس لوقتٍ طويل.

---

(1) النتاج المتأسِّل: أي الذي يحمل صِفات الأسلاف التي كانت قد فُقِدَتْ من الأنسال السابقة.

رافقَتْه لوسي في جولةٍ في الأرض التي تملكها. ذكّرتْهُ بأن لا يهدرَ الماء، وبأن لا يلوِّثَ الحوضَ المسبِّب للعفن. كان يعرف ما يتوجّب إلا أنه أنصتَ إليها طائعاً. ثم جالت به على مثوى الكلاب. في زيارته الأخيرة كانت هناك حظيرة واحدة. أما الآن فأصبحت خمساً، متينةَ البناءِ، بقواعدَ إسمنتيَّة، وقوائمَ ودعائمَ مطلية بالزنك، وشبكة من القياس الكبير، وتظلّلها أشجار الأوكالبتوس الغضّة. فرحتْ الكلابُ لرؤيتها: الدوبرمن، وكلاب رعي ألمانية، والضيقة الظهر، والبولترير، والروتوايلر. قالت «كلها كلابُ حراسة. كلابٌ عاملة، بعقودٍ قصيرةِ الأمد: أسبوعين، أو أسبوع، وأحياناً لسحابةِ العطلةِ الأسبوعية. إن الحيوانات الأليفة تتوافد عادةً خلال العُطَل الصيفية».

«والقطط؟ ألا تأوين قططاً؟».

«لا تسخر مني. إنني أفكر في التوجّه نحو إيواء القطط. كل ما في الأمر أني لستُ مستعدة لها بعد».

«أما زلتِ تحتفظين بالكُشك في السوق؟».

«نعم، في صباح كل يوم سبت. سأصحبك».

هكذا تكسب رزقها إذن: من إيواء الكلاب، وبيع الأزهار ونتاج الحديقة. لا شيء أشدّ بساطة.

قال، يشير إلى أحدها، وكانت أنثى بولدوغ لونها أسمر مسفوع، رابضةً في قفصٍ خاصٍ بها، تُريحُ رأسها على مخالبها، تراقبهما بكآبة، ولا تزعج نفسها حتى بالنهوض «ألا تشعر الكلاب بالملل؟».

«تقصد كيتي؟ إنها منبوذة. مالكوها صنعوا لها معلفاً. لم يُدفع حسابها منذ أشهر. لا أدري ماذا سأفعل بها. أعتقد أني سأبحث عمَّن يأويها. إنها في حالة اكتئاب، فيما عدا ذلك لا بأس بها. ونحن نأخذها كل يوم للتريّض. أنا أو بتروس. وهذا جزء من المعاملة».

«بتروس؟».

«ستقابله. بتروس هو مساعدي. في الواقع، منذ شهر آذار أصبح شريكي في المِلْكية. إنسان ممتاز».

تمشّى معها مارّين بالسدّ الطيني، حيث عائلةٌ من البطّ تسبح بصفاء، ثم بخلايا النحل، ثم اجتازا الحديقة: بمساكب أزهارها وخضرواتها الشتوية ـ من قرنبيط، وبطاطا، وجذور الشمندر، والشوندر، والبصل. زارا المضخّة وسدّ التخزين القائمين عند حافة العقار. لقد كانت الأمطار غزيرة في السنتين الأخيرتين، وارتفع مستوى الأرض المشبّعة بالماء.

تحدَّثتْ بسلاسة عن تلك المسائل. كانت مزارعة رائدة من السلالة الجديدة. أيام زمان كان الاهتمام بالماشية والذرة. اليوم، بالكلاب والنرجس البرّي. كلما تبدّلت الأشياء بقيت على ما هي عليه. إن التاريخ يعيد نفسه، وإن كان باعتدال أكثر. لعل التاريخَ تعلَّمَ درساً.

سارا عائدين على طول أخدود الريّ. كانت قدما لوسي الحافيتين تتشبّثان بالتربة الحمراء، مخلّفتين آثاراً واضحة. إنها امرأةٌ صلبةٌ، مطوّقةٌ بحياتها الجديدة. عظيم! إن كان هذا كل ما سيخلِّفه ـ هذه الابنة، هذه المرأة ـ إذن فلن يكون لديه ما يخجل منه.

قال، بعد عودتهما إلى المنزل: «لا داعي لأن ترفّهي عني، لقد جلبتُ معي كتبي. أحتاجُ فقط إلى طاولة وكرسي».

سألته بحذرٍ «هل تعدُّ لإنجاز عمل معيّن؟». لم يكن عمله موضوعاً يدورُ حولَه حديثهما عادة.

«لديَّ بعضُ الخطط. أعدُّ عملاً حول السنوات الأخيرة من عمر بايرون. هو ليس كتاباً، أو ليس شيئاً يشبه الكتاب الذي أَلّفته في الماضي. هو عمل للمسرح، بالأحرى. كلمات وموسيقى. شخصيات تتكلم وتغني».

«لم أكن أعلم أنه ما زال لديك طموحات في هذا المنحى».

«فكّرتُ في أن أدلِّل نفسي. لكن الأمر يتجاوز هذا بكثير. إن الإنسان يرغب في أن يخلِّف وراءه شيئاً ذا قيمة. أو على الأقل هذا ما يريد الرجل أن يفعله، فالأمر أيسر على المرأة».

«لماذا هو أيسر على المرأة؟».

«أقصد أنه أسهل عليها أن تنتج شيئاً يتمتّع بحياة خاصةٍ به».

«أليس لكونِ الرجلِ أباً قيمة؟».

«إن كونَ المرءِ أباً... لا أقوى إلا أن أشعرَ، مقارنةً بكون المرأة أماً، أن كون المرء أباً هو عملٌ مجرّد. ولكن فلننتظر حتى نرى النتيجة. إذا ما أثمرتْ نتيجة، فسوف تكونين أول من يسمع بها. الأولى وربما الأخيرة».

«هل تنوي أن تؤلِّف الموسيقى بنفسك؟».

«سأستعير الموسيقى، في أغلبِ أجزاء العمل. لا حساسية لديّ حيالَ استعارةِ الموسيقى. في البدايةِ حسبتُ أنه موضوع يستدعي توزيعاً أوركسترالياً فخماً جداً. على غرار شتراوس، مثلاً. وكان ذلك يتجاوز طاقتي. أما الآن فأميل إلى عكس ذلك، نحو مُصاحبةٍ موسيقيةٍ متواضعةٍ جداً ـ آلة كمان، أو تشيللو، أو أوبو أو ربما باسون. ولكن كل شيء ما زال محصوراً ضمن نطاقِ الأفكار. أنا لم أؤلِّف نغمةً واحدة بعد ـ كنتُ مبلبلَ التفكير. لابد أنكِ سمعتِ بمشاكلي».

«لقد ذكرتْ روزالي طرفاً مما حدثَ عبر الهاتف».

«حسن، لن نخوضَ في هذا الآن. في وقتٍ لاحق».

«هل تركتَ الجامعة إلى الأبد؟».

«لقد استقلتُ. طُلِبَ مني أن أستقيل».

«ألن تشتاق إليها؟».

«أشتاقُ إليها؟ لا أدري. لم أكن فِطْحَلاً في التدريس. لاحظتُ أني

أفقدُ تآلُفي مع طلابي باطراد. لم يكونوا يهتمُّون بما أقول. لذا لعلني لن أفتقدها. لعلي سأستمتع بتحرُري».

وقف رجلٌ في ممرِّ الباب، رجلٌ طويلُ القامةِ برداءٍ سرواليّ أزرق اللون وحذاء مطاطي وقلنسوة صوفية. قالت لوسي «أدخل يا بتروس وسلِّم على والدي».

مسحَ بتروس حذاءه. تصافحا. وجهٌ مُرهق، كثيرُ التجاعيدِ؛ عينان قاسيتان. في الأربعين؟ في الثانية والأربعين؟

التفت بتروس إلى لوسي. قال «المِرشّة، جئتُ من أجل المِرشّة».

«إنها في السيارة. انتظر هنا، سأحضرها».

تُرِكَ مع بتروس. قال، ليكسر جدار الصمت «أنت تعتني بالكلاب».

«أنا أعتني بالكلاب وأعمل في الحديقة. نعم»، ورسمَ ابتسامةً عريضة «أنا البستانيُّ وراعي الكلاب»، وفكّر برهة، ثم كرّر: «راعي الكلاب»، متلذّذاً بلفظ العبارة.

«لقد قَدِمْتُ لتوّي من كيب تاون. أحياناً ينتابني القلق على ابنتي وهي وحدها هنا. إنه مكان منعزل جداً».

قال بتروس: «نعم، إنه مكان خطر» ثم سكتَ. «كل شيء محفوف بالخطر هذه الأيام. لكن، أعتقد أن هذا المكان آمن»، ورسمَ ابتسامةً أخرى على وجهه.

عادت لوسي مع زجاجةٍ صغيرة. «أنت تعرف المعيار: مَلِ ملعقةِ شاي لكل عشرة ليترات من الماء».

«نعم، أعرف»، وانحنى بتروس خارجاً من الباب الواطئ.

علّقَ، «يبدو بتروس رجلاً صالحاً».

«تفكيره سديد».

«هل يقيم في المكان؟».

«إنه يقطن مع زوجته في الإسطبل القديم. لقد أدخلتُ الكهرباء إليه. أصبح مريحاً جداً. لديه زوجة أخرى في أديلايد وأطفال، بعضهم بالغون. وهو يذهب إلى هناك بين حين وآخر ويقضي معهم بعض الوقت».

ترك لوسي لمهامها وأخذ يتمشى حتى وصل إلى طريق كنتون. كان يوماً شتائياً بارداً، وقد باشرتْ الشمس بالغروب خلف التلالِ الحمراءِ المنقّطة بالعشب المنتثر، الحائل اللون. قال في نفسه، أرضٌ فقيرةٌ، تربةٌ فقيرة. مرهقةٌ. لا تصلُحُ إلا لرعي الماعز. أحقاً تنوي لوسي أن تقضي حياتها هنا؟ أمِلَ في أن تكون هذه مجرد مرحلةٍ عابرة.

مرّت به مجموعة من الأطفال في طريق عودتهم من المدرسة إلى المنزل. حيّاهم؛ فردّوا له التحية. إنها الأساليب القروية. كانت كيب تاون قد أخذتْ لتوها تغيب في الماضي.

بدون سابقِ إنذارٍ عادت إليه ذكرى الفتاة: ذكرى ثدييها الصغيرين بحلمتيهما المنتصبتين، وبطنها المستوية والملساء. سَرَتْ فيه موجةٌ من الرغبة. من الجليّ أنه كائناً ما كان ذلك فإنه لم ينته بعد.

عاد إلى المنزل وأنهى فتح حقائبه. لقد مرَّ وقت طويل منذ أن عاش مع امرأةٍ آخر مرة. عليه أن ينتبه إلى حُسنِ سلوكه؛ عليه أن يكون مرتباً.

إن وصف «وافرة» رحيمٌ بلوسي. فقريباً ستصبحُ ثقيلةً بدون أدنى شك. إنها تطلقُ العنان لنفسها، كما يحدث عندما ينسحب الإنسان من مجال الحب *Q U'est devenu ce front poli, ces cheveux blonds, sourcil voutes?* (ماذا ألمَّ بهذا الجبين الصقيل، بهذا الشعر الأشقر، والحاجبين المقوّسين؟).

كانت وجبةُ العشاءِ بسيطةً: حساءٌ وخبزٌ، ثم بطاطا حلوة. عادة هو لا يحبُّ البطاطا الحلوة، لكن لوسي عالجتها بقشورِ الليمون والزبدِ والفلفل الحلو جعلتها سائغة، بل أكثر من سائغة.

سألته «هل ستمكثُ مدة؟».

«أسبوع؟ ما رأيكِ بأسبوع؟ هل تتحملينني تلك المدة؟».

«تستطيع أن تمكث قدر ما تشاء. إنني أخشى فقط أن ينال الضجرُ منك».

«لن أشعرَ بالضجر».

«وبعد مضي الأسبوع، إلى أين ستذهب؟».

«لا أعلم بعد. لعلّي سأضربُ على غير هدى، في تجوالٍ طويل».

«حسن، إن وجودك مرحَّبٌ به».

«جميل قولك هذا يا ابنتي، لكني أحب أن أحتفظ بصداقتك. الزيارات الطويلة لا تصنع أصدقاء حميمين».

«ما رأيك ألا نسمّيها زيارة؟ ماذا لو سمّيناها لجوءاً؟ هل تقبل باللجوء بدون تجديد المدة؟».

«تقصدين مَصَحّاً؟ لم يصل الأمر إلى هذا القدرِ من السوء، يا لوسي. أنا لست هارباً».

«روز قالت إن الجوَّ كان موبوءاً».

«أنا الذي جلبتُهُ على نفسي. لقد عُرِضَتْ عليَّ تسوية، ورفضتُها».

«أي نوعٍ من التسويات؟».

«إعادةُ تأهيل. إصلاحُ الشخصية. وكلمة السرّ كانت الاستشارة».

«وهل أنت من الكمالِ بحيثُ تستغني عن قليلٍ من الاستشارة؟».

«إنها تذكّرني كثيراً بالصين في عهد ماو. التخلّي عن المعتقَد، نقدُ الذات، والاعتذارُ العلني. إنني عتيقُ الطراز، وكنت سأودُّ ببساطة أن أُوضَعَ عند الجدار لأُرمى بالرصاص. وأنتهي».

«ترمى بالرصاص؟ لعلاقةٍ جنسيةٍ أقمتَها مع طالبة؟ هذه مغالاة، ألا ترى هذا، يا ديفيد؟ هذا النوع من العلاقات يحدث دائماً. وكانت تحدث حتماً حين كنتُ طالبة. ولو أنهم أعدموا كل مَنْ أقام علاقة لما بقي أحدٌ في المهنة».

هزَّ كتفيه استخفافاً. «إننا نمرّ بأوقات تطهُّريّة. الحياة الخاصة هي شأنٌ عام. الشبقُ محترمٌ، الشبقُ والعاطفةُ. إنهم يريدون عَرْضاً مسلّياً: خفقانَ الصدر، الندمَ، وزرفَ الدموع إذا أمكن ذلك؛ بل عرضاً تلفزيزنياً، في واقع الأمر. وأنا لن أتفضَّل عليهم بهذا».

كان ينوي أن يضيف «الحقيقة هي أنهم يريدون خِصائي»، لكن لم يستطع الجهر بهذه الكلمات، ليس لابنته. في الواقع، بعد أن سمع تقريعه المطوَّل من خلال أذنيّ شخصٍ آخر أصبحت له مسحة ميلودرامية، مفرطة.

«إذن أنت أصريتَ على رأيك وهم أصروا على رأيهم، أهكذا كان الأمر؟».

«بشكلٍ أو بآخر».

«ما كان ينبغي أن تكون بكل ذاك العناد يا ديفيد. ليس من البطولة العناد. هل بقيتْ أمامك فُسحةٌ من الوقت لتتراجع؟».

«كلا، الحكمُ الصادرُ نهائيّ».

«أما من استئناف؟».

«لا استئناف. أنا لا أتذمّر. إن المرء لا يقرُّ بذنبه في اتهامات بالفساد الخلقي ويتوقع في المقابل أن يتلقّى فيضاً من التعاطف. ليس بعد سنٍ معيَّنة. فبعد سنٍ معيَّنة لا يعود المرء ببساطة مثارَ إعجابِ أحد، وينتهي الأمر. ولا يبقى له إلا أن ينكبَّ على عملِهِ ويظلَّ هكذا حتى آخر حياته. ويفيد من وقته».

«شيء مؤسف. امكثْ هنا قدر ما تشاء. على أي أساس كان».

أوى إلى الفراش باكراً. وفي قلب الليل استيقظ على نباحٍ مضطرب. ثمة كلب معيّن ينبحُ نباحاً ملحاحاً، آليّاً، بدون توقّف؛ ثم انضم إليه الآخرون، فسكتَ صوتُه، ثم، لما كَرِهَ أن يعترف بهزيمته، انضمَّ إليهم من جديد.

في الصباح قال للوسي «أيحدثُ هذا في كل ليلة؟».

«ستتعوّد عليه. أنا آسفة».

هزَّ رأسه غير مصدِّق.

ثمانية

كان قد نسي كم يمكن لأوقاتِ الصباحِ الشتائيّة أن تكون باردة في أعالي شمالي الكيب. لم يكن قد أحضر معه الملابس المناسبة: اضطرَّ إلى أن يستعير كنزة من لوسي.

راح يتنقّل بين مساكبِ الأزهار، ويداه في جيبيه. وبعيداً عن مرمى البصر على طريق كنتون هدرتْ سيارةٌ مارةً، وتمهّلَ الهديرُ عالقاً في الجو الساكن. طار الإوز في نسقٍ عالياً فوق الرؤوس. ماذا سيفعل ليستغلّ وقته؟.

قالت لوسي من خلفه «أتحب أن نتمشّى؟».

صَحِبا معهما ثلاثةً من الكلاب: جروَيْن من الدوبرمن، كانت لوسي تُبقيهما في قيديهما، وأنثى البولدوغ، المنبوذة.

حاولتْ الكلبةُ أن تتغوّط وهي تثبِّت أذنيها إلى الخلف. ولم يخرج شيء.

قالت لوسي «إنها تعاني من مشاكل، ويجب أن أعطيها علاجاً».

واصلت الكلبة الشدّ، وهي تدلّي لسانها، وتنقِّلُ نظراتٍ سريعةٍ حولها وكأنها خَجِلة ممّن يراقبها.

تركا الطريق، وأخذا يجتازان أرضاً ذات شجيرات خفيضة، ومنهما انتقلا إلى غابةٍ من أشجار الصنوبر.

قالت لوسي: «الفتاة التي كنت متورطاً معها ـ أكانت العلاقة جادّة؟.

«ألم تخبرك روزاليند القصة؟».

«ليس بالتفصيل».

«إنها تنحدر من هذا الجزء من العالم. من مدينة جورج. كانت طالبةً في صفّي. متوسطة المستوى كطالبة، لكنها جذابة جداً. أكانت العلاقة جادّة؟ لا أدري. من المؤكد أنه كانت لها عواقب خطيرة».

«لكن هل انتهت الآن؟ لا أظنك ما زلت تشتاق إليها؟».

انتهت؟ أما زال يشتاق إليها؟ قال «الاتصال بيننا انتهى».

«لماذا اتّهمتْكَ؟».

«لم تقلْ: لم تُتَحْ لي الفرصة لسؤالها. كانت في وضعٍ صعب. كان هناك شاب، عاشق أو عاشق سابق، يهدّدها. وسادت غرفةَ الصف أجواءٌ متوترة. ثم سمع أبواها بالأمر وجاءا إلى كيب تاون. وأعتقد أن الضغط أصبح لا يُطاق».

«وأتيتَ إلى هنا».

«نعم، أتيتُ إلى هنا. أعتقد أني لم أكن سهلاً».

وصلا إلى بوابة تحمل لافتة تقول «مصنوعات SAPPI - المتعدّدون سيقاضَون». فتراجعا.

قالت لوسي: «حسن، لقد دفعتَ الثمنَ. ولعلها حين تتذكّر ما حدث لا يكون رأيها فيك شديدَ القسوة. إن النساء يمكن أن يكنَّ متسامحات بدرجةٍ مدهشة».

ساد بينهما صمت. هل تتجرّأ لوسي، ابنته، على أن تحاضره عن النساء؟.

سألته «هل فكّرتَ في أن تتزوّج ثانية؟».

«تقصدين من امرأةٍ من جيلي؟ أنا لم أُخلَق للزواج يا لوسي. ها قد رأيتِ بنفسك».

«نعم، ولكن ـ».

«ولكن ماذا؟ تقصدين أنه من غير المعقول الاستمرار في افتراسِ الفتياتِ الصغيرات؟».

«ليس هذا ما قصدتُ. عنيتُ فقط أنك ستجدُ الأمرَ أصعب، وليس أسهلَ، مع مرورِ الوقت».

لم يكن قد سبق له أن تحدّثَ مع لوسي عن حياته الخاصة. لقد اتّضحَ أن ذلك ليس سهلاً. ولكن إذا لم يتحدّث إليها، فإلى مَنْ يتحدُّث؟».

قال: «أتذكرين ما قال بليك؟: «حالما تقتلُ وليداً في مهدِهِ ترغبُ المرضةُ الخاملةُ فيه[1]».

«لمَ اقتطفتَ هذا لي؟».

«يمكن للرغباتِ الخاملةِ أن تغدو قبيحة في العجائز كما في الشبان».

«وعليه؟».

«كلُّ امرأة اقتربتُ منها علَّمتني شيئاً عن نفسي. إلى ذاك الحدّ جعلن مني إنساناً أفضل».

«آمل أنك لا تدّعي العكس أيضاً. فمعرفة النساء لك حوّلتْهُنَّ إلى مخلوقات أفضل».

رماها بنظرة حادة. ابتسمت. قالت «إني أمزح».

عادا أدراجهما على الدرب المسفلت. وعند المنعطف إلى الملكيّة كان هناك إشارة مكتوبة لم يكن قد لاحظها من قبل تقول: «اقطع الأزهار. السيكاسية[2]»، ثم سهمٌ يشير إلى «1 كيلو متر».

قال: «سيكاسيّة؟ حسبتُ أن السيكاسية غير قانونية».

---

(1) البيت من قصيدة بليك الطويلة «زواج الجنة والنار»، فصل «أمثال الجحيم». المترجم

(2) السيكاسيّة: نبتة من فصيلة عاريات البذور. شبيهة بالنخيل. المترجم.

«من غير القانوني اقتلاعها من البرّية. أما أنا فأزرعها من البذرة. سأريك».

تابعا المسير، والجروان يشدّان وثاقهما ليتحررا، والكلبة وراءهما بخطاها القصيرة، تلهث.

قال، ملوّحاً بيده باتجاه الحديقة «وأنتِ؟ أهذا ما تريدين من الحياة؟»، ونحو المنزل الذي كان سقفه يعكس أشعة الشمس المتلألئة.

أجابت لوسي بهدوء «إنه يفي بالغرض».

* * *

كان يوم سبت، يوم السوق. أيقظته لوسي عند الساعة الخامسة، كما اتّفقا، بالقهوة. انضمّا إلى بتروس في الحديقة، وهما متدثران درءاً للبرد، حيث كان قد باشر لتوّه بقطف الأزهار على ضوء مصباح هالوجيني.

عَرَضَ على بتروس أن ينوب عنه في العمل، لكن أصابعه سرعان ما تأثّرت من شدّة البرد حتى أنه عجز عن ربط الحزَم. أعاد خيط القنَّب إلى بتروس وبدل ذلك أخذ يغلِّف الحزَم.

بحلول الساعة السابعة، وخيوط الفجر تمسُّ التلال وقد بدأت الكلاب تتململ، تمَّ إنجاز العمل. حُمِّلَتْ السيارةُ بصناديقِ الأزهار، وبأكياسِ البطاطا، والبصل، والملفوف. تولَّتْ لوسي القيادة، وبقي بتروس في المقعد الخلفي. لم يعمل المحمِّي؛ سلكت طريق غرامستاون وهي تنظر من خلال الحاجز الزجاجي الغبِش. جلس إلى جوارها، وكان يأكل شطائر أعدَّتها له. قَطَرَ أنفه، وتمنَّى ألا تلاحظ ذلك.

إذن: إنه يخوض تجربة جديدة. وابنته، التي كان في يومٍ من الأيام يوصلها بالسيارة إلى درس الباليه، وإلى السيرك وإلى حلبة التزلج، تأخذه هي في نزهة، وتريه الحياة، تريه ذلك العالم الآخر، غير المألوف.

في ساحة دونكن كان أصحاب الأكشاك قد باشروا لتوّهم وضع الطاولات المنصّبة وأخذوا يمدّون بضائعهم. كان الجو يعبق برائحة لحمٍ محروقٍ، والضباب البارد يخيّم على البلدة؛ والناس يفركون أيديهم معاً، ويضربون بأقدامهم، ويسبّون. كان عرضاً للأُنس لعبت لوسي نفسها فيه دوراً، وكان ذلك مصدر ارتياحه.

كان موقعهم هو فيما بدا قسم الغلّة. إلى يسارهم كانت ثلاث نساء من الأفارقة يبعن حليباً؛ و masa، وزبد؛ وأيضاً يبعنَ، في كيس مغطى بقماشة رطبة، عظاماً لصنع الحِساء. وإلى يمينهم زوج من الأفارقة العجائز حيّتهما لوسي باسم طانت ميمس و أووم كوس، مع مساعد صغير يعتمر قلنسوة بالاكلافية لا يتجاوز العاشرة من العمر. كانا، مثل لوسي، يبيعان البطاطا والبصل. ولكن كان معهما أيضاً برطمانات المربى، ومواد حافظة، وفاكهة مجففة، ورزم شاي البوكو، وشاي شجيرات العسل، والأعشاب الطبيّة.

كانت لوسي قد جلبت معها مقعدين نقّالين. وراحا يحتسيان القهوة من دورق حافظ، بانتظار مجيء أول الزبائن.

قبل أسبوعين كان واقفاً في غرفة الدرس يشرح لشباب البلدة الضجرين الفرق بين «يشرب» و «يجرع»، و «حرق» و «محروق». والفعل المكتمل، يشير إلى فعل يُنجَز حتى آخره. كم يبدو هذا كله بعيداً نائياً! أعيش، عشتُ لتوّي، عشتُ.

سُكِبَت بطاطا لوسي في سلة مكيال وغُسِلَتْ. كانت بطاطا كوس وميمس ما تزال ملوّثة بالتراب. وعلى امتداد فترة الصباح حصلت لوسي على ما يقارب الخمسمائة راند. وكانت أزهار لوسي تُباع بدون توقف؛ عند الساعة الحادية عشرة أخفضت أسعارها ونفق آخر ما تبقّى من محصول. وكانت التجارة ناشطة أيضاً في كشك بيع الحليب واللحم؛ لكن العجوزين

الجالسين جنباً إلى جنب لا يأتيان بحركة وتبدو عليهما الكآبة لم يحقّقا بيعاً حسناً.

كان كثير من زبائن لوسي يعرفونها بالاسم: نساء في منتصف العمر، في غالبيتهن، ينطبع موقفهن منها بطابع أصحاب الأملاك، وكأن نجاحها هو أيضاً نجاحهم. وفي كل مرة كانت تقدّمه إليهن بالقول: «أقدِّمُ لكنَّ والدي، ديفيد لري، قادم في زيارة من كيب تاون»، فيقلن، «يجب أن تكون فخوراً بابنتك، يا سيد لري»، فيجيب «نعم، إني شديد الفخر».

تقول لوسي، بعد إحدى عمليات التعريف، «بف تدير ملجأ الحيوانات، وأحياناً أمدُّ لها يد العون. سوف نعرِّج عليها في طريق عودتنا، إذا لم يكن لديك مانع».

لم يكن يميل إلى بف شو، تلك المرأة الضئيلة، والبدينة، والصخَّابة، ذات النمش الأسود، والشعر السلكي، المقصوص قصيراً جداً، والمعدومة العنق. لم تكن تعجبه النساء اللواتي لا يبذلن أي مجهود ليبدين جذابات. كان نفوراً شعرَ به من قبل اتجاه صديقات لوسي. وهو أمرٌ لا يدعو إلى الفخر: تحاملٌ ترسَّخَ في ذهنه، ترسَّخَ عميقاً. كان عقله قد أضحى ملجأ للأفكار البالية؛ خاملاً، فقيراً، لا يعرف كيف يتوجه. كان يجب أن يطردها، وينظِّف رأسه منها، لكنه غير متحمِّس لفعل ذلك، ولا يأبه.

* * *

«جمعية الرفق بالحيوان» التي كانت مؤسسةً خيريةً نشطةً في مدينة غرامستاون اضطرتْ إلى إيقافِ عملها. إلا أن حفنةً من المتطوعاتِ بقيادةِ بف شو ظلّت تدير مستوصفاً في أرض الملكية القديمة.

لم يكن لديه اعتراض على مُحبّي الحيوانات الذين تختلط لوسي بهم حسبما يذكر. لا شك في أن العالمَ كان سيغدو أفضل لو خلا منهن. وحين فتحت بف شو الباب الأمامي رسم تعبيراً طيباً على وجهه، على الرغم من

أن عبقَ بول القطط وجَرَبْ الكلاب وسائل *Jeyes* التي رحّبتْ به أثارت نفوره.

كان المنزل كما تخيّله: أثاث رثّ، فوضى من الزخارف (راعيات من بورسلين، خيوط عنكبوت، ومذبّة من ريش النعام)، عويل جهاز الراديو، وشقشقة العصافير داخل الأقفاص، والقطط المنتشرة في كل مكان بين الأقدام. لم تكن بف شو وحدها، كان هناك بيل شو أيضاً، قصير وبدين مثلها، يحتسي الشاي على مائدة المطبخ، ذا وجه أحمر بلون الشوندر وشعرٍ فضيّ ويرتدي كنزة ذات ياقة عريضة وليّنة. قال بيل «اجلس، اجلس، ديف. خذ كأساً، خذ راحتك»

كانت فترة صباحٍ طويلة، كان تعِباً، وآخر ما أراد أن يفعله أن يتبادل الحديث مع هؤلاء الناس. رمى نظرة إلى لوسي. قالت «لن نطيلَ المكوث، يا بيل. سأنتقي فقط بعض الأدوية»

أرسل بصره من خلال النافذة وتجوّل بنظره في أرجاء فناء منزل شو الخلفي: شجرة تفاح ترمي ثماراً مدوّدة، وأعشاب ضارة منتشرة، وبقعة مسيّجة بألواح من الحديد المكسو بالزنك، ومنصّات نقّالة خشبية، وإطارات قديمة، حيث كان الدجاج يخربش في المكان وشيء يشبه بشكل غريب ظبياً صغيراً يأخذ غفوة في الزاوية.

قالت لوسي بعد ذلك وهما في السيارة «ما رأيك؟».

«لا أريد أن أكون فظاً. أنا واثق من أنه يمثّل ثقافة خاصة قائمة بذاتها. أليس لديهما أطفال؟».

«لا، لا أطفال. لا تستخف ببف. إنها ليست حمقاء، وهي تقدِّم قدراً هائلاً من عمل الخير. إنها تتردّد على قرية د. منذ سنين، في أول الأمر من أجل جمعية *الرفق بالحيوان*، والآن تدير العمل وحدها».

«لابد أنها معركة خاسرة».

«نعم، هي كذلك. لم تعد تتوفّر الموارد المالية. فعلى قائمة أولويات الدولة، لا وجود لذِكْرِ الحيوانات».

«يجب أن ينالها القنوط، وأنت أيضاً».

«نعم. لا. أهي مسألة هامة؟ إن الحيوانات التي تساعدها لا ينتابها القنوط. إنها سعيدة جداً».

«إذن فهذا رائع. آسف، يا طفلتي، إنني فقط لا أستطيع إلا أن أبدي هتمامي بالموضوع. إن ما تفعلينه، وتفعله هي، مثير للإعجاب، ولكنني أجد أصحاب جمعية الرفق بالحيوان أشبه بأصحاب رسائل مسيحية من نوع ما. فالكل غاية في البِشْر وطيب النوايا حتى أنك بعد قليل تنتابك رغبة حادّة في أن تتهوّري وتقومي بأعمالِ سلبٍ واغتصاب، أو أن ترفسي قطة.

فوجئ بثورة غضبه. فلم يكن في مزاجٍ سيئ، على الإطلاق.

قالت لوسي: «في رأيك يجب أن أنخرط في أعمال أكثر جدّية». كانا قد أصبحا في الشارع العام؛ وكانت تقود بدون أن تنظر إليه. «تظن أنه لأنني بنتك عليّ أن أقوم بعمل أفضل من هذا في حياتي».

كان قد بدأ يهزُّ رأسه نفياً «لا... لا... لا»، هكذا غمغم.

«تظن أن عليّ أن أرسم طبيعة صامتة أو أن أتعلم اللغة الروسية. ولا تحبّذ أصدقاءً من أمثال بف وبيل شو لأنهما لن يرفعاني إلى حياةٍ أرقى».

«هذا ليس صحيحاً، يا لوسي».

«بل صحيح. إنهما لن يرقيا بي إلى حياةٍ أفضل، والسبب في ذلك يعود إلى أنه لا وجود لحياةٍ أرقى. هذه هي الحياة الوحيدة المتوفّرة. أي التي نتقاسمها مع الحيوانات. هذه هي القدوة التي يحاول أناسٌ مثل بف أن يؤسسوها. هذه هي الأمثولة التي أحاول أن أقتدي بها؛ أن أتقاسم مع الحيوانات بعضاً من امتيازنا الإنساني. لا أريد أن أعود إلى الحياة في خلقٍ

آخر على صورة كلب أو خنزير وأضطر أن أعيش كما يعيشُ الكلاب أو الخنازير حياةً أدنى من حياتنا».

«لوسي، عزيزتي، لا تغضبي. نعم، أوافقك، هذه هي الحياة الوحيدة المتوفرة. أما الحيوانات، فلنكن رحماء بهم مهما كلَّفَ الأمر. ولكن ينبغي ألا نفقد نظرتنا الصحيحة إلى الأشياء. نحن من المخلوقات التي تختلف عن الحيوانات. لسنا بالضرورة أرقى، بل فقط مختلفون. فإذا أردنا أن نكون رحماء، فلنفعل ذلك بعيداً عن دافع الكرم المباشر، وليس لأننا نشعر بالذنب أو نخشى العقاب في الآخرة».

أخذت لوسي نَفَساً. بدت وكأنها توشكُ أن تستجيب لمحاضرته الأخلاقية، لكنها تراجعت. ووصلا إلى المنزل وهما صامتان.

تسعة

كان جالساً في الغرفة الأمامية، يشاهد لعبة كرة قدم على شاشة التلفزيون. كانت النتيجة التعادل بدون أهداف؛ وكأن أياً من الفريقين غير مهتمّ بالفوز.

كان التعليق يجري متنقلاً بين لغتيّ سوتو و زوسا اللتين لا يفهم منهما كلمة واحدة. أخفضَ الصوت حتى الغمغمة. كان بعد ظهيرة يوم السبت في جنوب أفريقيا وقتاً مكرّساً للرجال ولمتعهم. ثم أغفى.

حين استيقظ وجد بتروس جالساً على الأريكة إلى جانبه ويحمل زجاجة من البيرة في يده. كان قد رفع صوت التلفزيون.

قال بتروس: «إنه فريقي المفضّل بوشبك. *بوشبك* يلعب مع *صن داون*».

فريق صن داون نال ضربة ركنية. ميليه يقف في حراسة المرمى، وبتروس يئنُّ ويمسك رأسه بين يديه. بعدما انجلى الغبار، رأينا حارس مرمى بوشبك منطرحاً على الأرض والكرة تحت صدره. قال بتروس «إنه بارع! بارع! حارس مرمى جيّد. يجب أن يحتفظوا به».

انتهت اللعبة بدون أهداف. غيَّرَ بتروس القنوات. ملاكمة: رجلان ضئيلان، من فرط الضآلة بحيث بالكاد يبلغان مستوى صدر الحكَمْ، يدوران، يتقافزان، ويرهق كل منهما الآخر.

نهض واقفاً، وأخذ يتجوّل حتى وصلَ إلى خلفيّة المنزل. كانت لوسي مستلقية على سريرها، تقرأ. قال «ماذا تقرئين؟». نظرت إليه بفضول، ثم نزعت السماعتين من أذنيها. كرّر السؤال «ماذا تقرئين؟»، ومن ثم قال «إنني أتطفّلُ، أليس كذلك؟ هل أغادر؟».

ابتسمت، ووضعتْ كتابها جانباً. إنه كتاب «*لغز إدوين دروود*»[1]: ليس ما كان يتوقّع. قالت «اجلس».

جلس على السرير، وأخذ يعبث بقدمها الحافية بتكاسل. قدمٌ صحيحة، حسنة التكوين. عظام قوية، كأمها. امرأة في ريعان شبابها، جذّابة على الرغم من ضخامتها، على الرغم من الملابس التي لا تُبرِز شيئاً من محاسنها.

«في رأيي، ديفيد، أن الأمرَ يسيرُ على أحسن ما يرام. أنا سعيدةٌ لوجودك هنا. إن التلاؤم مع إيقاع الحياة في الريف يستغرق بعض الوقت، هذا كل ما في الأمر. وحالما تجد ما يشغلك لن يعرفَ الضجرُ سبيلاً إليك».

هزَّ رأسه بشرود. قال في نفسه، إنها جذابة، لكن الرجال لا يرونها. أيلومُ نفسَه، أم أن الأمرَ سينجحُ كما هو في كل حال؟ منذ يوم مولد ابنته لم يشعر نحوها إلا بأنقى حب وأصفاه. مستحيل ألا تكون قد وَعَتْ ذلك. أكان ذلك الحبُ مغالياً؟ هل وجدتْ أنه يشكِّلُ عبأً عليها؟ هل فهمَتْه فهماً غامضاً؟.

تساءلَ عن طبيعة علاقة لوسي بعُشّاقها، وعن علاقة عشاقها بها. إنه لم يخشَ قط أن يتابعَ فكرةً ما حتى آخر مسارها الملتوي، وهو لا يخشى الآن. هل كان والداً لامرأة فيّاضةَ العاطفة؟ علامَ تستطيع أن تعتمد، كائناً ما كان، في عالم الأحاسيس؟ هل هما، هو وهي، قادران على التحدُّث عن ذلك

---

(1) «لغز إدوين دروود»: آخر رواية كتبها الروائي الإنكليزي تشارلز ديكنز، وهي ناقصة. المترجم.

أيضاً؟ إن لوسي لم تعِش حياةً آمنة. لماذا لا يتصارحان، لِمَ يضعان حواجز بينهما، في وقتٍ لا يفعل شخصٌ آخر ذلك؟.

قال، لدى عودته من جولات فكرِهِ «حين أجد ما يشغلني. إلامَ تلمِّحين بذلك؟».

«يمكنك أن تساعدني في رعاية الكلاب. يمكنك أن تقطّع اللحم للكلاب. إنني دائماً أجد هذا العمل صعباً. يمكنك أن تساعدني. ثم هناك بتروس. إن بتروس منهمكٌ في إعداد أراضيه، تستطيع أن تساعده».

«أحبُّ أن أمدَّ يد العون لبتروس. أحبُّ الحِدَّة التاريخية. أتعتقدين أنه سيدفع لي أجراً مقابل جهدي؟.

«اسأله. أنا متأكدة من أنه سيدفع. لقد حصل في وقت مبكر من هذا العام منحة *شؤون الأرض*، وكانت كافية لشراء أكثر من هكتار بقليل من الأرض مني. ألم أخبرك؟ وخطُّ الحدود يخترق السد مباشرة. إننا نشترك في ملكيَّة السد. كل شيء من هناك وحتى السياج ملك له. لديه بقرة سوف تلد في فصل الربيع. وله زوجتان، أو زوجة وصديقة. ولو أنه أحسن التصرّف لاستطاع أن يحصل على منحة ثانية ليبني بيتاً؛ عندئذ سيستطيع أن ينتقل من الإسطبل. وبالقياس إلى معايير منطقة شرق الكيب يُعتَبَرُ صاحب ملك. اطلبْ منه أجراً. إنه قادر على الدفع. لست واثقة من أني قادرة على الدفع له بعد الآن».

«حسنٌ. سأقوم بعملِ لحم الكلاب، سأعرضُ على بتروس أن أقوم بالحفر. وماذا أيضاً؟».

«تستطيع أن تكون ذا عونٍ في المستوصف. إنهم في أمسِّ الحاجة إلى متطوعين».

«تقصدين أن أساعد بف شو».

«نعم».

«أعتقد أني وهي لن نتوافق معاً».

«لستَ بحاجةٍ إلى أن تتوافق معها. عليك فقط أن تساعدها. ولكن لا تتوقع أن تتلقّى أجراً. سوف يتوجّبُ عليكَ أن تؤدّي العمل بدافع من طيبة قلبك».

«ينتابني الشك يا لوسي. يبدو أشبه بالخدمة الاجتماعية بشكلٍ مريب. وكأن أحداً يحاولُ أن يصلِح أخطاءً قام بها في الماضي».

«بالنسبة إلى دوافعك يا ديفيد، أؤكد لك أن الحيوانات في المستوصف لن تستفسر عنها. لن تطرح أسئلة ولن تبدي اهتماماً».

«حسن، أنا موافق. ولكن فقط ما دمتُ لستُ مضطراً إلى أن أصبح إنساناً أفضل. لست مستعداً للإصلاح. أريد أن أبقى كما أنا. سأقبل على هذا الأساس». كانت يده ما تزال مرتاحة على قدمها؛ ثم قبض بحزم على كاحلها «مفهوم؟».

منحته ما لم يكن في مقدوره أن يصفه إلا بالابتسامة العذبة. «إذن فأنت مصمّم على أن تظل مشاغباً. مجنون، ومشاغب، ومعرفتك خطرة. أعدك، لن يطلب منك أحد أن تتغيّر».

إنها تضايقه كما كانت أمها تفعل معه. غير أن ذكاءها أكثر حِدّة. ولطالما انجذبَ إلى نساءٍ على جانبٍ من الذكاء. الذكاءُ والجمال. وهو لم يعثر على أدنى قدرٍ من الذكاء عند ميلاني. لكنه وجد الجمال.

مرة أخرى سرى ذلك الشيء فيه: رعشة الاشتهاء الخفيفة. إنه يدرك أن لوسي تراقبه. يبدو أنه عاجز عن إخفاء الأمر. شيء مثير للاهتمام.

نهض واقفاً، وخرج إلى الفناء. ابتهجت الجراء لمشاهدته: أخذت تسير جيئة وذهاباً داخل أقفاصها، وهي تعوي اشتياقاً. لكن كلبة البولدوغ العجوز بالكاد تململت.

دخل إلى قفصها، وأغلق الباب خلفه. رفعت رأسها، ورمقته، وخفضت رأسها من جديد؛ كانت أثداؤها العجوز تتدلى رخوة.

جلس القرفصاء، وأخذ يدغدغها خلف أذنيها. غمغم «منبوذان، ألسنا كذلك؟».

تمدّدَ على طوله إلى جانبها على الأرض الإسمنتية الجرداء، تظلّلهما قبّة السماء الزرقاء الشاحبة وتراخت أطرافه.

هكذا عثرتْ لوسي عليه. لابد أنه استغرق في النوم: كان أول ما وعاه أنه وجدها داخل القفص حاملة وعاء الماء، والكلبة واقفة تشمّ ساقيها.

قالت لوسي «أتعقدان صداقة؟».

«ليس من السهل مصادقتها».

«مسكينة كيتي العجوز. إنها حزينة. لا أحد يريدها، وهي تعرف ذلك. والمفارقة هي أنه يجب أن يصبح لها ذرّية في أرجاء المنطقة كلها وحينئذ سيسعد الناس أن يفتحوا لها بيوتهم. ولكن ليس في مقدورهم أن يستضيفوها هي. إنهم جزء من الأثاث، جزء من جهاز الإنذار. وهم يشرّفوننا بأن يعاملوننا كآلهة، فنجيب على ذلك بمعاملتهم كأشياء».

غادر القفص. جلست الكلبة بتراخٍ، وأغمضتْ عينيها.

علّقَ قائلاً: «لقد تناقش آباء الكنيسة مطولاً حولهم، وقرروا أنهم لا يتّصفون بالروح المناسبة. إن أرواحهم مقيّدة إلى أجسامهم وتموت معهم».

ارتعشت لوسي «لست واثقة من أن لي روحاً. ولن أتعرّف إلى روحٍ إذا ما رأيتُها».

«هذا غير صحيح. أنت روح. نحن جميعاً أرواح. نحن أرواح حتى قبل أن نولد».

رمقته باستغراب.

قال: «ماذا ستفعلين بها؟».

«تقصد كيتي؟ سأحتفظ بها، إذا اضطررت إلى ذلك».

«ألا تقتلين الحيوانات أبداً؟».

«لا، أنا لا أفعل. بف تفعل. إنه عمل رفض كل مَنْ عداها أن يقوم به، فأخذت أمرَ تنفيذهِ على عاتقها. إنه يعرّضها لإحساسٍ رهيب بالتمزّق. إنك تبخس قدرها. إنها إنسان مثيرٌ للاهتمام أكثر مما تظن. حتى وفقاً لشروطك».

شروطه هو: ما هي يا ترى؟ أن تلك النسوة الضئيلات البدينات ذوات الأصوات القبيحة يستحقون الإهمال؟ انتشر ظلٌ من الحزن عليه: حزن على كيتي، الوحيدة في قفصها، وعلى نفسه، وعلى الجميع. تنهد بعمق، ولم يكظم التنهُّد. قال «سامحيني، يا لوسي».

«أسامحك؟ على ماذا؟». كانت تبتسم بخفّة، وسخرية.

«لكوني أحد اثنين كُتِبَ عليهما أن يُحضراكِ إلى العالم ولأني أثبتُّ أني لستُ بالمرشد الصالح. لكنني سوف أساعد بف شو. شريطة ألا أضطر إلى مناداتها ببف. إن تداوله أمر سخيف. يذكّرني بقطيعٍ من الغنم. متى أبدأ؟».

«سوف أتصل بها».

عشرة

كانت اللافتة المعلّقة خارج المستوصف تقول «جمعية الرفق بالحيوان» W.O 1529 . وتحتها خطٌ يحدّد الدوام اليومي، لكنه طُمِسَ بشريط. وأمام الباب كان هناك طابور من المنتظرين، بعضهم برفقة حيوانات. حالما ترجّل من سيارته تحلّق الأطفال حوله، يستجدون النقود أو يكتفون بالتحديق إليه. شق طريقه خلال الزحام، وخلال تنافر مفاجئ لصوتيّ كلبين، يكبحهما صاحبهما، يزمجران ويتبادلان النهش.

كانت غرفة الجلوس الصغيرة، الجرداء، مزدحمة حتى آخرها. وقد اضطر إلى أن يفرشخ عبر ساقيّ أحدهم ليتمكّن من الدخول.

سأل «سيدة شو؟».

أومأت امرأة عجوز باتجاه باب مغلق بستارة من البلاستيك. كانت المرأة تكبح جماح معزاة مربوطة بحبلٍ قصير؛ والمعزاة ترمي نظرات نارية متوترة نحو الكلاب، وحوافرها تضرب على الأرض القاسية.

في الغرفة الداخلية، التي تفوح بعبق البول الذي يثير اشمئزاز النفس، كانت بف شو تعمل على طاولة واطئة أعلاها من الفولاذ. وبمعيّة ضوء على شكل قلم رصاص كانت تنعم النظر داخل حنجرة جرو بدا أنه هجين من كلب ريدجباك وابن آوى. وفوق الطاولة كان طفل حافي القدمين، واضح أنه صاحبه، يركع ويقبض على رأس الكلب تحت إبطه ويحاول أن يحافظ

على فتح فكّيه. وكانت حنجرته تُصدِرُ زمجرةً خفيضة مقرقرة؛ وكان الجزء الخلفي القوي منه مشدوداً ومتوتراً. انضمّ بشكلٍ أخرق في المشادّة، وأخذ يشدُّ قائمتيّ الكلب الخلفيتين معاً، ليجبره على الجلوس على عجزيه.

قالت بف شو، وقد تورّدت وجنتاها «شكراً لك، يوجد خِراج هنا من سنٍ مغروزٍ بين الفكّ وسنٍ آخر. ليست لدينا مضادات حيوية، لذا ـ أحكِمْ الإمساك به! ـ لذا سوف نكتفي ببضعِهِ ونأمل بذلك خيراً».

جسّتْ داخل الفم بمبضع. اهتزَّ الكلب اهتزازة هائلة، وتملَّصَ متحرِّراً منه، وكاد يفلت من الصبي. فقبض عليه وهو يخربش لكي ينزل عن الطاولة، وفي لحظةٍ ما رمتْهُ عينا الجرو، اللتان تقدحان شررَ الغضبِ والخوفِ، بنظرةٍ متلظّية.

قالت بف شو «ضعه على جنبه ـ هكذا». أمسكت الكلب من الأعلى بخبرةٍ، وهي تُصدِر أصواتاً مدندنة، وقَلَبتهُ على جنبه. قالت «هات الحزام». أحاط جسمه بحزامٍ وتولَّتْ هي تثبيته. قالت بف شو «هكذا، استحضِرْ أفكاراً مهدِّئة، استحضِرْ أفكاراً قوية. الحيوانات تشمُّ أفكارك».

مالَ بكاملِ ثقلِهِ على الكلب. وبحذَرٍ شديدٍ، وبيدٍ ملفّعةٍ بخرقة قديمة، عاد الصبي إلى فتح الفكّين بحركة قوية. دارت عينا الكلب في محجريهما رعباً. إنها تشمُّ أفكارك: أي سخافة! غمغم «اهدأ، اهدأ!». عادت بف شو إلى البضع بالمبضع. ثبتَ الكلبُ فجأة، ثم تصلّبَ، ثم تراخى.

قالت: «انتهينا، والآن فلندع الطبيعة تأخذ مجراها»، وحلّتْ الحزام وراحت تكلِّمُ الصبي بما بدا أشبه بلغة زوسا عرجاء. عاد الكلب إلى الوقوف على قوائمه، وربض مرتعداً تحت الطاولة. وكان أعلاها ملوّثاً برشاش من الدم واللعاب؛ مسحته عنها. وأخذ الصبي يلاطف الكلب ليخرج.

«شكراً لك، سيد لري. كان حضورك مفيداً. أشعرُ أنك تحب الحيوانات».

«أنا أحب الحيوانات؟ إنني ألتهمها، إذن فأنا أحبها، أحبُ أجزاءَ منها».

كان شعرها كتلةً من العقصات الصغيرة. أهي التي صبغتها بنفسها بالملاقط؟ لا يظن. إنها تستغرقُ ساعات كل يوم. لابد أنها هكذا بطبيعتها. إنه لم ير قط مثل ذاك الـ *tessitura* (التكوين) عن قُرب. كانت عروق أذنيها مرئية على شكل زركشة دقيقة من لونيّ الأحمر والوردي. وكذا عروق أنفها. ثم هناك ذقنها البارز مباشرة من صدرها، مثل أنف حمامة. وكلها على بعضها، كانت أبعد ما تكون عن الجاذبية.

كانت تزِنُ كلماته، التي بدا أنها لم تدرك نبرتها الساخرة.

قالت: «نعم، إننا في هذا البلد نأكل الكثير من الحيوانات. ويبدو أنها لا تفيدنا كثيراً. لستُ واثقة كيف سنبرِّرُ عملنا هذا لها». ثم قالت «هل نبدأ مع التالي؟».

نبرّره؟ متى؟ أفي يوم الحساب العظيم؟ اشتاقَ أن يسمع المزيد، لكن الوقتَ لم يكن مناسباً.

كان تيساً، كامل النموّ، بالكاد يقوى على المشي. كان نصف صفنِهِ، الأصفر والوردي، متورِّماً ومنفوخاً كالبالون؛ والنصف الآخر كتلةً متراصّةً من الدم والقذارة. تعرَّضَ لوحشية الكلاب، كما قالت المرأة العجوز. غير أنه بدا مشرقاً، ومرحاً ومستعداً للقتال. وبينما أخذت بف شو تتفحّصه، طرحَ دفقاً قصيراً من البعر على الأرض. جلست المرأة على رأسه، وقبضت على قرنيه، وتظاهرت بأنها تؤنِّبُهُ.

لمست بف شو الصَفَنَ بقطعةِ قماشٍ على طرفِ عود. أخذ التيس يرفسُ. سألته «أتستطيع أن تربط قوائمه؟» وأرته كيف. أوثق القائم الخلفي الأيمن إلى القائم الأمامي الأيمن. حاول التيس أن يرفس من جديد، فترنّح. مسحت الجرح برفق. ارتعش التيس، وثغا: صوت قبيح، منخفض وأجش.

مع خروج القذارة شاهد الجرحَ زاخراً باليرقات الدودية البيضاء تلوِّح

برؤوسها العمياء في الهواء. ارتعش اشمئزازاً. قالت بف شو «الذبابة السَّروء[1]. عمرها على الأقل أسبوع»، وزمّتْ شفتيها، ثم قالت للمرأة «كان ينبغي أن تحضريه قبل وقت طويل». قالت المرأة «نعم، إن الكلاب تأتي كل ليلة. وهذا أمر سيئ جداً. ومثل هذا الذكر يساوي خمسمائة راند».

استقامت بف شو وقالت «لا أدري ماذا في وسعنا أن نفعل. لستُ خبيرةً في إجراء عمليّة استئصال. تستطيع أن تنتظر مجيء الدكتور أوسويزن يوم الخميس، ولكن في كل الأحوال سيصبح المسكين عقيماً، فهل هذا ما تريده هي؟ ثم هناك مشكلة المضادات الحيوية. هل هي على استعداد لدفع ثمن المضادات الحيوية؟».

عادت إلى الركوع إلى جانب التيس، وحكَّتْ نحره، مداعبةً أعلاه بشعرها. ارتعش التيس لكنه لزم الهدوء. ثم طلبت من المرأة أن تفلت قرنيه. رضختْ المرأة. ولم يأتِ التيس بحركة.

همست. وسمعها تقول: «ما رأيك يا صديقي؟ ما رأيك؟ أيكفي هذا؟».

سَكَنَتْ حركات التيس سكونَ الجماد وكأنه منوَّم مغناطيسياً. وتابعت بف شو مداعبته برأسها. وكأنها غاصت في نشوة خاصة بها.

تمالكت نفسها ونهضت واقفة على قدميها. وجّهتْ كلامها إلى المرأة «أخشى أن الأوان قد فات. لا أستطيع أن أشفيه. يمكنك أن تنتظري مجيء الطبيب في يوم الخميس، أو أن تتركيه معي. أستطيع أن أوفِّر له نهاية هادئة. وسوف يدعني أفعل ذلك له. فهل أفعل؟ هل أبقيه هنا؟».

تردّدت المرأة، ثم هزّت رأسها نفياً. وبدأت تدفع التيس نحو الباب.

قالت بف شو: «تستطيعين أن تستردّيه لاحقاً. سوف أساعده على

---

(1) الذبابة السَّروء: ذبابة تضع بيضها على اللحم وما شابه.

الخلاص، لا أكثر». على الرغم من أنها حاولت أن تسيطر على صوتها، إلا أنه سمع فيه نبرة الهزيمة. التيس أيضاً سمع ذلك: أخذ يرفس مقاوماً اللجام، بالشدّ والاندفاع بتهوّر، والانتفاخ الفاحش يهتزّ من خلفه. حلّتْ المرأة اللجام، وطرحته جانباً. ورحلا.

سأل: «ماذا كنتِ تقصدين؟».

أخفت بف شو وجهها، وتمخّطت. «لا شيء. إنني أحتفظ بقدرٍ كافٍ من المادة الهالكة للحالات السيئة، لكننا لا نستطيع أن نجبر أصحابها. إنها حيواناتهم، ويحبون أن يعدموها على طريقتهم. خسارة! حيوان جيد، على قدرٍ كبير من الشجاعة، والاستقامة والثقة بالنفس!».

الهالك: أهو اسم المادة؟ ما كان ليسمح بخروجها من نطاق شركات الأدوية. ظُلمةٌ مفاجئة، من مياه نهر النسيان.

قال: «لعله يفهم أكثر مما تظنين». وكم دُهِشَ حين وجد نفسه يحاول أن يواسيها. «لعله سبق أن مرَّ بهذا. أقصد أن لديه معرفة مسبقة به. هذه أفريقيا على أي حال. لقد وُجِدَ الماعز هنا منذ بدء الخليقة. ليس بحاجةٍ إلى مَنْ يخبره عن فائدة الفولاذ، والنار. إنه يعرف كيف يأتي الموت إلى تيس. إنه مولود باستعداد فطري».

قالت: «أتظن؟ لستُ واثقةً. أعتقد أن أياً منا ليس مستعداً أن يموت، ليس بدون مرافقة».

بدأت الأشياء تأخذ مجراها. وأخذ فكرةً أوّلية عن المهمة التي أوكلتها تلك المرأة الضئيلة إليه. وذلك المبنى الكئيب لم يكن مكاناً للشفاء ـ فطبابتها من البدائية بحيث تفعل ذلك ـ وإنما كان المقرّ الأخير. وتذكّرَ قصةَ ـ مَنْ كان؟ أكان القديس هيوبرت؟ ـ الذي أوى أيلاً كان يثير فوضى في كنيسته، يلهث ويهتاج، ويفرّ من ملاحقة كلاب الصيد. لقد كانت بف شو، التي ليست طبيبة بيطرية بل كاهنة، مملوءة بخزعبلات العصر الحديث، تحاول،

عبثاً، أن تخفّف العبء عن كواهل حيوانات أفريقيا المُعانية. لقد اعتقدت لوسي أنه سيجدها مثيرة للاهتمام، لكنها كانت على خطأ. إن عبارة مثيرة للاهتمام لا تنطبق عليها.

أمضى طوال فترة بعد الظهر في حجرةِ العمليات، يقدّم يد المساعدة قدر إمكانه. وبعد انتهاء آخر عمليات النهار، جالت به بف شو في أرجاء الفناء. في قفصِ الطيور لم يكن هناك غير طائر واحد من نوع العقاب النّسارية[1] ذات الجناح المشظّى. أما في الباقي فكلابٌ: ليست من النوع الأصيل والأنيق المفضّل لدى لوسي وإنما حشدٌ من الهجين الأعجف يملأ حظيرتين حتى درجة الانفجار، ينبح، يعوي، ينتحب، يقفز من الإثارة.

ساعدها في سكب الطعام الجاف وفي ملء أحواض الماء. أفرغا جرابين سعة كل منهما عشرة كيلو غرامات.

سألها: «كيف تسدّدين ثمن هذه الأشياء؟».

«نشتريها بالجملة. نقيم أسواقاً خيرية. نحصل على تبرعات. نقوم بعمليات خِصاء مجانيّة، وأحصل على هِبة مقابل ذلك».

«مَنْ يقوم بعمليات الخِصاء؟».

«الدكتور أوسويزن، طبيبنا البيطري. لكنه لا يأتي إلا بعد ظهر يوم واحد في الأسبوع».

كان يراقب الكلاب وهي تأكل. ودُهش من قِلّة ما يجري بينها من شجار. كان الصغار، والضعفاء يتراجعون، راضين بما قُسِمَ لهم في انتظار أن يأتي دورهم.

قالت بف شو: «المشكلة هي أن هناك أعداداً كبيرة جداً منها. وطبعاً هي لا تتفهَّم الوضع، وليست لدينا وسيلة لإفهامها. وهي كثيرة العدد

---

(1) العُقاب النّسارية: عُقاب تألف البحار وتأكل السمك.

بمعيارنا نحن، لا بمعيارها. ولو نتبع أسلوبها فسوف يتضاعف عددها ويتضاعف إلى أن تملأ الأرض. إنها لا ترى أن كثرة النسل أمر سيئ. فكلما ازدادت عدداً كان أفضل. الأمر ذاته مع القطط».

«والجرذان».

«والجرذان. وهذا يذكُّرني: حين تصل إلى المنزل تفحّص نفسك فلعلك تحمل قملاً».

أحد الكلاب، بدين، لامع العينين من فرط السعادة، أخذ يشمُّ له أصابعه من خلال الشبك، ويلعقها.

علّقَ «إنهم شديدو الإيمان بالمواساة. لا طبقات. لا أحد من العلوّ والقوة بحيث يأنف من شمِّ مؤخّرة آخر». جلس القرفصاء، وسمح للكلب أن يشمَّ له وجهه، وأنفاسه. وكانت للكلب ما رأى أنها نظرةً ذكية، على الرغم من أنها ربما ليست كذلك. «هل سيموتون جميعاً؟».

«سيموت مَنْ لا يريده أحد. سوف نقضي عليهم».

«وأنتم مَنْ يقوم بذلك».

«نعم».

«ألا اعتراض لديكم؟».

«أنا أعترض. أعترض بشدّة. لا أقبل أن يُنَفَّذْ الأمرُ نيابة عني أنا مَنْ لا اعتراضَ لديه. أكنتَ قبلتَ أنتَ؟».

لزمَ الصمت. ثم قال «أتعلمين لماذا أرسلتني ابنتي إليكِ؟».

«قالت لي إنك كنت في ورطة».

«لستُ فقط في ورطة. إنه فيما أعتقد يسمّى خِزي».

راقبها بإمعانٍ. بدت مضطربة؛ ولكن لعله كان يتخيّل ذلك.

قال: «بعد أن علمتِ هذا، أما زلتَ بحاجةٍ إليّ؟».

«إن كنتَ مستعداً...»، وفتحت يديها، وضغطتهما معاً، وعادت ففتحتهما. لم تدرِ ماذا تقول، وهو لم يساعدها.

* * *

من قبلُ كان لا يمكث مع ابنته إلا فتراتٍ قصيرة. أما الآن فهو يقاسمها بيتها، وحياتها. كان عليه أن يحذر لئلا يسمح للعادات القديمة أن تزحف عائدة، عادات أب: كوضع لفّة ورق المرحاض على المكبّ،وإطفاء الأنوار، وطردِ القطة عن الأريكة. كان يحثُّ نفسه على التدرُّب على سنوات الشيخوخة. التدرُّب على التكيُّف، على السكنى في دار المسنين.

تظاهرَ بالتعب، وبعد تناول طعام العشاء انسحبَ إلى غرفته، وهناك تناهى إليه بخفوتٍ ضجيج لوسي وهي تعيش حياتها الخاصة: فتحُ أدراجٍ وإغلاقها، صوتُ المذياع، غمغمةُ محادثةٍ هاتفية. هل تُكلِّمُ أحداً في جوهانسبرغ، هيلين مثلاً؟ هل وجوده هنا يحول دون اجتماعهما معاً؟ هل تجرؤان على النوم في سرير واحد أثناء وجوده في المنزل؟ وإذا ما صرَّ السرير ليلاً، فهل ستشعران بالحرج؟ هل ستُحرجان إلى حدّ الكفِّ عما تفعلان؟ ولكن ما أدراه هو بما تفعله النسوة معاً؟ لعل النساء لسن بحاجة إلى جعل السرير يصرّ. بل ماذا يعرف عن هاتين الاثنتين بالذات، لوسي وهيلين؟ لعلهما تنامان معاً فقط كما يفعل الأطفال، تتعانقان، تتلامسان، تقهقهان بضحك مكبوت، تستعيدان عهد الطفولة ـ كأختين أكثر منهما عشيقتين. تتشاركان السرير، تتشاركان الاغتسال في الحمّام، تعدّان كعك الزنجبيل، وتجرِّب كلٌّ منهما ملابس الأخرى. حبٌ سابويّ[1]؛ ذريعةٌ لزيادة وزنيهما.

في الحقيقة، إنه لا يحب أن يفكّر في ابنته على ضوء فورات ولَهِهَا

(1) سابويّ: نسبةً إلى سابو، شاعرة الحب السحاقي عند الإغريق. عاشت في القرن السادس قبل الميلاد.

بامرأةٍ أخرى، بواحدةٍ عاديّة كتلك. ولكن هل كان أسعدَ حالاً لو أن عشيقها رجل؟ ما الذي حقاً يتمنّاه للوسي؟ وهذا لا يعني أنها ستبقى إلى الأبد طفلةً، إلى الأبد بريئة، وإلى الأبد مُلْكُهُ ـ حتماً ليس هذا هو المعنى. لكنه أب، هذا قَدَرَهُ، وبينما الأب يتقدَّم في السن يلتفتُ أكثر فأكثر ـ ولا حيلة له في ذلك ـ نحو ابنته. تصبحُ خَلاصَةُ الثاني، عروسَ شبابه المتجدِّد. ولا عجبَ أن تحاول الملكات، في الحكايات الخرافية، أن تطارد بناتها حتى موتها!

تنهَّدَ. مسكينةٌ لوسي! مسكينةٌ البنات! أي مصير، أي عبء يتحمّلنَ! والأبناء: هم أيضاً عليهم تحمُّل مِحَنهم، على الرغم من أن معرفته في هذا المجال أقلّ.

يتمنّى لو ينام. لكنه يشعر بالبرد، ولا يواتيه النوم أبداً.

ينهضُ من سريره، ويضعُ سترةً على كتفيه، ثم يعود إلى السرير. يقرأ رسائل بايرون لعام 1820. بايرون أصبح بديناً، بلغ منتصف العمر وهو في الثانية والثلاثين، يعيش مع آل جويتشيولي في رافينا: مع تيريزا، عشيقته الراضية، العرجاء، وزوجها الحاقد، والدمث. حرارة فصل الصيف، وشاي بعد الظهيرة، والثرثرة الريفية، والتثاؤب الواضح، يقول بايرون «تجلسُ النسوةُ على شكلِ دائرةٍ ويلعب الرجال لعبة الورق الكئيبة». في علاقةِ الزنا، يُعادُ اكتشافُ ضَجَرِ الزواج كله. «إنني منذ الآن أنظر إلى سنِّ الثلاثين بوصفهِ عائقاً في وجهِ أي ابتهاجٍ حقيقي أو عنيفٍ بالأهواء».

من جديد تنهَّدَ. ما أقصرَ فصل الصيف، بعده يأتي الخريف ومن ثم الشتاء! ظل يقرأ حتى ما بعد منتصف الليل، ولكن حتى بعد ذلك جافاه النوم.

أحد عشر

إنه يوم الأربعاء. يستيقظ باكراً، لكن لوسي استيقظت قبله. يجدها تتفرّج على الإوز البري على السدّ.

تقول: «أليس جميلاً، إنها تعود في كل عام. الإوزات الثلاث ذاتها. أشعر أني محظوظة لأن هناك من يزورني، لأني مُختارة».

ثلاث. قد يشكِّل هذا حلاً ما. هو ولوسي وميلاني. أو هو وميلاني وثريا.

تناولا طعامَ الإفطار معاً، ثم خرجا في نزهةٍ مع كلبيّ الدوبرمن.

سألته لوسي بلا مقدمات «أتعتقد أن في إمكانك أن تعيش هنا، في هذا الجزء من العالم؟».

«لماذا؟ أأنتِ بحاجةٍ إلى رجلٍ جديد للعنايةِ بالكلاب؟».

«لا، لم أكن أفكر في هذا. لكنك تستطيع حتماً أن تجد عملاً في جامعة رودس ـ يجب أن تعقد علاقات هنا ـ أو في بورت اليزابيث».

«لا أظن ذلك، يا لوسي. لم أعد رائجاً، سوف تلاحقني الفضيحة، ستلازمني. لا، إن كنت سأقبلُ عملاً فسوفَ يكونُ محاطاً بالغموض، كمُحاسِب، إن كانوا ما زالوا يستخدمونهم، أو مُرافق كلاب»

«ولكن إذا أردتَ أن تضع حداً للمتاجرة بك بواسطة الفضيحة، أما ينبغي أن تصمد؟ ألن تتزايد الثرثرة إذا ما هربت؟».

في طفولتها كانت لوسي هادئة وبعيدة عن الأضواء، تراقبه ولكن أبداً، حسب ما يعرف، لم تُصدِر أحكاماً عليه. أما الآن، وهي في منتصف عشرينات عمرها، فبدأت تميّز الأشياء. الكلاب، الاعتناء بالحديقة، كتب التنجيم، الملابس التي لا تدلُّ على جنسٍ معيَّن. في كلٍ من هذه الأشياء لاحظَ تصريحاً بالاستقلال، مدروساً، ذا معنى. والانصراف عن الرجال أيضاً. وصُنعُ حياتها بنفسها. وخروجها عن مجال حمايته. عظيم! إنه يستحسن هذا!.

قال «أهذا ما تظنين أني فعلت؟ هربتُ من مسرح الجريمة؟».

«في الواقع، لقد انسحبتَ. لأسبابٍ عمليّة، ما الفرق؟».

«أنت لا تفهمين، يا عزيزتي. إن الوضع الذي تريدين مني أن أبرّره لم يعد في الإمكان تبريره، *basta* (انتهى). ليس في أيامنا هذه. وإذا حاولتُ أن أبرّره فلن أجد آذاناً صاغية».

«هذا ليس صحيحاً. حتى لو كنتَ كما تقول، ديناصوراً أخلاقياً، فثمة مَنْ لديه الفضول للإنصات إلى ديناصور. وأنا أوّلُهم. ما هي قضيتُّكَ؟ أسمعنا».

تردّدَ. أحقاً تريده أن يدلي بالمزيد عن خصوصياته؟.

قال: «إن قضيتي ترتكزُ على حق الشهوة، على الرب الذي يجعلُ حتى أصغر طائرٍ يرتعش».

تراءى له أنه موجود في شقةِ الفتاة، في غرفةِ نومها، والمطرُ ينهمرُ سيولاً في الخارج والسخّان في الزاوية يُطلِقُ رائحة البرافين، يركعُ فوقها، ينزعُ عنها ملابسها، وذراعاها متراخيتان كذراعيّ شخص ميّت «*لقد كنتُ خادم إله الحب*»: هذا ما أراد أن يقول، ولكن هل لديه الوقاحة اللازمة لقوله؟ «*كان إلهاً مَنْ حرّكني*». يا للتفاهة! لكنها ليست كذباً، ليس كلها. لقد كان الأمرُ

البائسُ برمَّتِهِ ينطوي على شيءٍ سخيّ يبذلُ جهده ليزهر. ليته فقط عَلِمَ أن الوقت سيكون بذاك القِصَر!.

قامَ بمحاولةٍ أخرى، ببطء أشدّ، «حين كنتِ صغيرة، وكنا ما نزال نقطن في كينلوورث، كان لدى الجيران كلب، كلب صيد ممتاز. لا أدري إن كنتِ تتذكرين».

«ذكرى غامضة».

«كان ذكَراً. وكلما قابلَ كلبةً في الجوار تثور شهوته ويصعب التعامل معه، وكان أصحابه يضربونه بانتظام بافلوفي[1]. واستمرَّ الأمر هكذا إلى أن احتارَ الكلبُ المسكين في أمره ولم يعد يعرف كيف يتصرَّف. وأصبح كلما شمَّ رائحة كلبةٍ تراقصَ حولَ الحديقة وأذناه متراخيتان بين قوائمه، يئنّ، محاولاً أن يختبئ».

صمتَ. قالت لوسي «لا أفهم المغزى». معها حق، إذ ما المغزى؟

«لقد كان في المشهد شيء على جانبٍ شديدِ الخِسّةِ أثار قنوطي. إن الإنسان، كما رأيت، يمكن أن يعاقِبَ كلباً لأنه سبّبَ أذى، كأن يمضغ الخفّ. والكلب يقبل حكم العدالة في هذا المجال: الضرب مقابل المضغ. أما الشهوة الجنسية فأمر آخر. لا حيوانَ يقبل حكماً بالعقاب لأنه يتبع غرائزه».

«إذن أنتَ ترى أنه يجب أن يُسمَحَ للذكور أن يتبعوا غرائزهم بدون أي ضابط؟ أهذه هي الأخلاق؟».

«لا، هذه ليست الأخلاق. إن الجانب الخسيس في مشهد كينلوورث هو أن الكلبَ المسكين قد بدأ يكره طبيعته. لم يعد بحاجة إلى أن يُضْرَبَ، فقد أصبح لديه استعداد لمعاقبة نفسه. هنا بات من الأفضل رميه بالرصاص».

«أو خصيه».

---

(1) بافلوفي: نسبةً إلى راقصة الباليه الروسية آنا بافلوفا (1885 - 1931).

«ربما. لكني من أعمق أعماقي أعتقد أنه ربما كان يفضّل أن يُقتَل. لعله كان يفضّل هذا على الخيارات التي قُدِّمَتْ له: من ناحية، أن يُنكِرَ طبيعته، ومن ناحية أخرى، أن يمضي البقية الباقية من حياته يقطع أرض غرفة الجلوس جيئة وذهاباً، يتنهَّد ويشمَّ القطة ويزداد بدانة.

«أهكذا كان شعورك دائماً، ديفيد؟».

«لا، ليس دائماً. أحياناً أشعرُ العكس تماماً. أشعر أن الرغبة عبء يمكننا أن نستغني عنه».

قالت لوسي: «أعترفُ أن هذا الرأي هو الذي أميلُ إليه أنا نفسي».

انتظر منها أن تواصلَ الكلام، لكنها لم تفعل. قالت «على أي حال، فلنعد إلى موضوعنا ونقول إنك فد طُرِدْتَ بدون أضرار. وأصبح في وسع زملائك أن يتنفسوا الصعداء الآن، بينما كبش الفداء يتجوّلُ في البراري».

تصريح؟ استجواب؟ هل هي تصدِّق أنه مجرد كبش فداء؟.

قال بحذر: «أعتقد أن وصف كبش الفداء ليس الوصف الأمثل. كان تقديم كبش الفداء فعّالاً حين كان ما يزال ينطوي على طاقة دينية. كانت آثام المدينة تُحَمَّلُ على ظهر كبش ومن ثم يُطْرَد، وتصبح المدينة نظيفة. لقد كان هذا العمل ينجح لأن الجميع كانوا يعرفون تفسير الطقس، حتى الآلهة. ثم ماتت الآلهة، وفجأة أصبح تنظيف المدينة يتمّ بدون عون من الإله. وبات مطلوباً أفعال حقيقية بدل الإيحاء الرمزي. ثم وُلِدَ الرقيب، بالمعنى الروماني. أصبحت كلمة الحَذَر هي كلمة السر: حَذَر. الكلّ من الكلّ. واستُبدِلَ التنظيف بالتخلُّصِ من الأعضاء غير المرغوب فيها».

كان يتمادى؛ يُحاضِرُ. ختم قائلاً «على أي حال، بعد أن ودَّعتُ المدينة، ماذا وجدتني أفعل في البريّة؟ أطبِّبُ الكلابَ. أقوم بدور اليد اليمنى لامرأة متخصصة في التعقيم والقتل الرحيم».

ضحكت لوسي «أتقصد بف؟ أتظن أن بف هي جزء من الأداة القمعية؟ إن بف تشعر بالرعب منك! أنت بروفيسور، وهي لم تقابل من قبل أي بروفيسور قديم الطراز. إنها تخاف أن ترتكب أخطاءً نحويّة أمامك».

كان هناك ثلاثة رجالٍ يقتربون منهما على الدرب، أو رجلان وفتى. كانوا يسيرون مسرعين، بخطى قرويين واسعة. أبطأ الكلبُ الذي يسير بجانب لوسي خطاه، واتخذ وِقْفةً عدوانية.

غمغم «أينبغي أن نصاب بالهلع؟».

«لا أدري».

قصَّرتْ مقود الكلب. اقترب الرجال منهما. إيماءة، وتحية، وتجاوزاهما.

سألها: «من هم؟».

«لم يسبق لي أن رأيتهم».

وصلا إلى تخوم المزرعة ثم رجعا. كان الغرباء قد اختفوا.

لدى اقترابهما من المنزل سمعا الكلاب الحبيسة وهي في حالة هياج، فحثّت لوسي خطاها.

كان الثلاثة هناك، في انتظارهما. كان الرجلان يقفان على مبعدة بينما الفتى، الواقف عند الأقفاص، يهشُّ للكلاب ويقوم بإيماءات مهدّدة، مفاجئة. الكلاب كانت في حالةٍ من الغضب الشديد، تنبح وتنهش. حاولَ الكلبُ الواقفَ إلى جوار لوسي أن يتحرّر. حتى الكلبة العجوز، التي بدا أنه قد تبنّاها، كانت تزمجرُ بصوتٍ خافت.

نادت لوسي «بتروس!»، ولكن لا أثرَ لبتروس. صرخت «ابتعد عن الكلاب! هيا!».

مشى الفتى بخطى متمهلة وانضمَّ إلى رفيقيه. كان يحمل وجهاً فاتر القسمات، خال من التعبير وعينان كعينيّ خنزير؛ ويرتدي قميصاً مزيّناً

برسومِ الزهور، وبنطالاً فضفاضاً، ويعتمر قبعة صغيرة صفراء اللون واقية من الشمس. وكان رفيقاه كلاهما يرتديان السترة السروالية، الأطول قامة بينهما كان وسيماً، وسامةً صاعقة، ذا جبين عالٍ، ووجنتين كوجنتيّ تمثال، وفتحتيّ أنف واسعتين متوهجتين.

لدى اقتراب لوسي هدأت الكلاب. قال في نفسه، حركة جريئة، ولكن أتراها حكيمة؟.

قالت للرجلين: «ماذا تريدان؟».

تكلَّمَ الفتى، قال: «يجب أن نجري اتصالاً هاتفياً»

«ولماذا يجب أن تتصلا هاتفياً؟».

«أخته» ـ وقام بإيماءة غامضة نحو الخلف منه ـ «وقعتْ لها حادثة».

«حادثة؟».

«نعم، خطيرة جداً».

«أي نوع من الحوادث؟».

«طفل».

«أخته تضع طفلاً؟».

«نعم».

«من أين أنتم؟».

«من إراسموسكرال».

تبادل مع لوسي النظرات. إراسموسكرال، التي تقع داخل منطقة الامتياز الحرجي، هي قرية بلا كهرباء، ولا هاتف. وكانت حكايتهم معقولة.

«لماذا لم تتصلوا من المحطة الحرجية؟».

«لا أحد هناك».

غمغمت لوسي له «ابق هنا»؛ ثم قالت للفتى: «مَنْ يريد أن يجري الاتصال؟».

أشار إلى الرجل الطويل القامة، الوسيم.

قالت «ادخل». فتحت بالمفتاح الباب الخلفي ودخلت. تبعها الرجل الطويل القامة. بعد قليل اندفع الرجلُ الثاني ماراً به وولج المنزل بدوره.

أدرك على الفور أن ثمة خطباً. نادى «لوسي، اخرجي إلى هنا!». ظلّ برهة لا يدري أيلحقُ بها أم ينتظر حيث يستطيع أن يراقب الفتى.

لم يصدر عن المنزل غير الصمت. نادى من جديد «لوسي!»، وهمَّ بالدخول وإذا بقفل الباب يقرقع ثم يُغلَق.

صرخَ بأعلى ما استطاع «بتروس!»

استدار الفتى وانطلق بأقصى سرعة، يبغي الباب الأمامي. أفلتَ لجامَ الكلبة، وصرخ «عليه!». اندفعت الكلبة بتثاقُل خلف الفتى.

أمام المنزل لحقَ به. كان الفتى قد التقط وتدَ عريشة البازلاء وأخذ يستخدمه ليبعد الكلبة عنه. وقال لاهثاً «شو... شو... شو!»، وهو يدفع بالعصا نحوها. أخذت الكلبة تزمجر بصوتٍ خافت وتدور يساراً ويميناً.

تركهما، واندفع عائداً إلى باب المطبخ. لم يكن مصراع القفل السفلي موصداً؛ تكفي بضع رفسات قوية ويُفتَح الباب واسعاً. زحفَ إلى المطبخ على أربع.

تلقّى ضربة قوية على قمة رأسه. كان لديه وقت للتفكير. «*إن كنتُ واعياً فأنا على ما يرام*». تراختْ أطرافه وتداعى.

وعى أن أحدهم يجرّه عبر أرض المطبخ. ثم غاب عن الوعي.

كان منبطحاً على وجهه على القرميد البارد. حاول أن يقف على قدميه لكن ساقيه لسبب ما رفضتا أن تتحركا. أغمضَ عينيه من جديد.

ثم كان في المرحاض، مرحاض منزل لوسي. نهضَ واقفاً على قدميه مشوشاً بالدوار. الباب موصد، والمفتاح مفقود.

جلس على كرسي المرحاض وحاولَ أن يستعيد رشده. المنزل يرين عليه السكون؛ الكلاب تنبح، من باب أداء الواجب، كما بدا، أكثر منه نباح الهياج.

نعقَ «لوسي!»، ثم بصوتٍ أعلى: «لوسي!».

حاولَ أن يرفس الباب، لكنه لم يكن متمالكاً لقواه، وعلى أي حال المساحة صغيرة جداً، والباب عتيق جداً وصلب.

إذن فقد حان يوم الامتحان. حلَّ، بدون سابق إنذار، بلا ضجيج، وهو في معمعته. كان قلبه في صدره يطرق بقوة بحيث أنه كان على قلبه أيضاً، بطريقته الخرساء، أن يعرف. كيف سيصمدان في الامتحان، هو وقلبه؟.

إن ابنته واقعة تحت رحمة أشخاص غرباء. بعد دقيقة، بعد ساعة، سيكون قد فات الأوان؛ كائناً ما كان يحدث لها سوف يتحجَّر، سيصبح من الماضي. أما *الآن* فلم يفت الأوان بعد. *الآن* يجب أن يتصرَّف.

على الرغم من أنه أرهفَ سمعه، فلم يميّز أي صوت يندُّ عن المنزل. ومع ذلك لو كانت تنادي، حتى وإن بحروفٍ صامتة، لسمعَ!.

ضرب بقوة على الباب. صرخ «لوسي! لوسي! أجيبيني!».

فُتِحَ الباب، ارتطمَ به وأفقده توازنه. مَثُلَ أمامه الرجل الثاني، الأقصر قامة، حاملاً زجاجة سعة ليتر واحد فارغة من عنقها. قال الرجل «هات المفاتيح».

«كلا».

دفعه الرجل. تعثّرَ إلى الخلف، وجلس بتثاقُل. رفع الرجل الزجاجة. كان وجهه هادئاً، لا يحملُ أي أثر من غضب. إنه مجرّد عمل يؤديه: يدفع

أحدهم ليسلّمه غَرَضاً ما. إذا استلزم الأمر أن يضربه بزجاجة، فسيضربه، ويضربه قدر ما يرى أنه ضروري، حتى وإن اضطر إلى كسر الزجاجة أيضاً.

قال «خذها، خذ كل شيء. فقط دع ابنتي وشأنها».

بدون أن ينطق أي كلمة تناول الرجل المفاتيح، وأوصد عليه الباب من جديد.

ارتعشَ. ثلاثيّ خطر. لِمَ لَمْ يلاحظ ذلك في الوقت المناسب؟ لكنهم لا يؤذونه، ليس بعد. أيمكن أن يكتفوا بما يجدونه في المنزل؟ أيمكن أن يتركوا لوسي أيضاً بدون أن يؤذوها؟.

من خلفيّة المنزل صدرت أصواتٌ بشرية. مرة أخرى تصاعدَ نباح الكلاب، وازداد هياجاً. وقف على كرسي المرحاض وأخذ ينظر من خلال قضبان النافذة.

كان الرجل الثاني، الذي يحمل بندقية لوسي وكيس قمامة منتفخ على وشك أن يختفي عند منعطف زاوية المنزل. ثم صُفِعَ باب سيارة. تعرَّفَ إلى الصوت: صوت سيارته. عاد الرجل إلى الظهور خالي اليدين. نظر كلٌّ منهما برهة في عينيّ الآخر مباشرة. قال الرجل «هاي!» ورسم ابتسامة مقيتة، وهتف ببضع كلمات. ثم نوبة من الضحك. بعد ذلك بلحظة انضم الفتى إليهما، ووقفوا تحت النافذة، يتفحّصون سجينهم، ويناقشون مصيره.

إنه يتكلم الإيطالية، والفرنسية، لكن الإيطالية والفرنسية لن تنقذاه هنا في مجاهل أفريقيا. إنه عاجز، عجوز أبله، شخصية كرتونية، مبشِّر برداء غفّارة وقلنسوة ينتظر بيدين مضمومتين بشدة وعينين متّجهتين نحو الأعلى بينما البرابرة يثرثرون بلغتهم الخاصة عن استعدادهم لإغراقه في مرجلهم الذي يغلي. عملُ التبشير: ما الذي خلّفه مشروع الاستنهاض الهائل ذاك؟ إنه لا يرى أي شيء منه.

عندئذ ظهر الرجل الطويل القامة من منعطف مقدّم المنزل، حاملاً

البندقية. وبسهولة حركةِ شخصٍ خبير أقحم خرطوشةً في مؤخّر البندقية، وأدخلَ فوهتها إلى قفص الكلاب. عمد أكبر كلاب الرعي الألمانية إلى نهشها، وهو يريِّل من شدّة الغضب. وكان انفجاراً مدوياً: دماءٌ وأدمغةٌ منتشرة أشلاءً في القفص. توقف النباح لحظة. أطلق الرجل النار مرتين أُخريَيْن. أحد الكلاب، أُصيبَ في صدره، مات على الفور؛ وآخر، فُتِحتْ حنجرته بجرحٍ واسعٍ، جثَمَ بتثاقُل، وفرش أذنيه، يتابع محدِّقاً حركات ذلك الكائن الذي لا يزعج نفسه حتى بإطلاق *coup de grace* (رصاصة الرحمة).

وساد صمتٌ. الكلاب الثلاثة الباقية، حين وجدتْ أن لا مكان تختبئ فيه، تراجعت إلى خلفية الحظيرة، وهي تدور في المكان، وتئنُّ بخفوت. تصيّدها الرجل، متمهلاً بين كل طلقةٍ وأخرى.

وقعُ خطى على طول الممر، ثم فُتِحَ باب المرحاض من جديد. كان الرجل الثاني واقفاً أمامه؛ من خلفه لمح الفتى ذا القميص المزيّن بالزهور، وهو يأكل من وعاءٍ يحوي بوظة. حاول أن يقتحم طريقه بينهما، واجتاز الرجل، ثم سقطَ منهاراً، بما يشبه الخطوة الرشيقة: يجب أن يجرّبوها في لعبة كرة القدم.

بينما هو ممدّد هكذا ومبسوط الذراعين بلّله من رأسه وحتى قدميه بسائلٍ ما. التهبتْ عيناه، وحاول أن يجفّفَ نفسه. تعرَّفَ إلى الرائحة: إنه كحولٌ مُمثّل. جاهدَ كي ينهضَ ويقف على قدميه، فدُفِعَ إلى الخلف وأُعيدَ إلى المرحاض. سمع صوت حكَّ عودَ ثقاب، وعلى الفور التهمه لهبٌ أزرق بارد.

إذن كان مخطئاً! لن يُطْلَقَ سراحه وابنته بسهولة! يمكن أن يحترق، أو يموت؛ وإذا مات هو، فلوسي ستموت، ولوسي قبله هو!.

أخذ يضرب وجهه كالمجنون؛ كان شعره يطقطق وهو يحترق؛ وراح يرتمي في أرجاء المكان، مُطلقاً جواراً غير مفهوم وخالٍ من الكلمات، لا

ينطوي إلا على الخوف. حاول أن ينهض على قدميه فأُجبِرَ من جديد على البقاء أرضاً، وللحظة من الزمن صفا بصره ورأى مقطعاً من وجهه، ورداءً سروالياً أزرقَ وحذاءً. تقوّسَ إصبع الحذاء الكبير نحو الأعلى؛ هناك أوراق من العشب تبرز من السطح الأسفل للحذاء.

تراقص اللهب بلا صوت على ظاهر يده. جاهدَ كي يرتكز على ركبتيه وغمر يده في حوض المرحاض. ومن خلفه أُغلِقَ الباب ودار المفتاح في قفله.

ظلَّ مدلّى فوق حوض المرحاض، وهو يرش وجهه بالماء، ويغطّس رأسه. وفاحت رائحة قذرة من الشعر الشائط. وقف على قدميه، وأطفأ آخر ألسنة اللهب عن ملابسه.

غسلَ وجهه بحشوةٍ من الأوراق المبللة. كانت عيناه تحرقانه، وأحد الجفنين قد أغمض لتوه. مرّرَ يده على رأسه فخرجت رؤوس أصابع يده سوداء اللون من السخام. وفيما عدا بقعة موجودة فوق إحدى الأذنين لم يبق عليه أي شعر؛ أصبحت فروة رأسه كلها طريّة. كل شيء فيه طريّ، كل شيء محترق، محترق، محترق.

صرخ: «لوسي! أنتِ هنا؟».

تراءت له لوسي تصارع الرجلين بالرداء السروالي، تكافحُ لتتخلّصَ منهما. وأخذ يتلوى، محاولاً أن يمحو الرؤيا.

سمع السيارة تنطلق، وسحْقَ الإطارات للحصى. هل انتهى الأمر؟ أيعقل أنهم قد رحلوا؟.

صرخ «لوسي!» مرارا وتكرارا، إلى أن بدأ يسمع نبرة جنون في صوته.

أخيراً، والحمد لله، دار المفتاح في القفل. في اللحظة التي فتح فيها الباب، أشاحت لوسي بوجهها عنه. كانت ترتدي مبذلَ حمّام، حافية القدمين، ومبلّلة الشعر.

مشى خلفها خلال المطبخ، حيث كان باب البراد مفتوحاً والطعام منتثراً في كل أرجاء الأرضية. وقفت عند الباب الخلفي تستوعب مجزرة كلاب الحظائر، وسمعها تغمغم «يا أحبائي، يا أحبائي!».

فتحت القفص الأول وولجته. كان الكلب ذو الحنجرة الممزقة ما تزال فيه بقية من رمق. مالت عليه وكلّمته. هزَّ ذيله بحركة واهنة.

هتف من جديد: «لوسي!»، وهنا وللمرة الأولى التفتت وحدّقت إليه مباشرة. كان العبوس يرتسم على وجهها. قالت: «ماذا فعلوا بك بحق الله؟».

قال: «يا طفلتي العزيزة!». لحق بها إلى داخل القفص وحاول أن يضمّها بين ذراعيه. فتملّصت منه برفقٍ، وحزم.

كانت غرفة الجلوس في حالة فوضى عارمة، وكذا كان حال غرفته. ثمة أغراض أُخِذَتْ: سترته، حذاؤه الجيد، وكانت تلك فقط البداية.

نظرَ إلى نفسه في المرآة. لم يتبقَّ من شعره غير رمادٍ بنّي، يكسو فروة رأسه وجبينه. ومن تحته كانت الفروة بلون الغضب الوردي. لمس البشرة: آلمته وبدأت تنزُّ سائلاً. أحد الجفنين كان مُسْدلاً ومتورِّماً؛ وحاجباه قد احترقا، ورموشه أيضاً.

ذهب إلى الحمّام، لكن الباب كان موصداً. قال صوتُ لوسي: «لا تدخل».

«أأنتِ على ما يرام؟ أتتألمين؟».

أسئلةٌ حمقاء؛ لم تُجِبْ.

حاولَ أن يغسل عنه الرماد تحت صنبورِ المطبخ، وهو يصبُّ ملء كأسٍ بعد كأس من الماء على رأسه. سال الماء منحدراً على ظهره؛ وبدأ يرتعش من البرد.

قال لنفسه، إنه يحدث في كل يوم، وكل ساعة، وكل دقيقة، في كل بقعة من البلاد. اعتبرْ نفسك محظوظاً لأنك نجوتَ بحياتك. اعتبرْ نفسك محظوظاً لأنك لست سجيناً في السيارة في هذه اللحظة، وتنطلق إلى المجهول، أو في قاع أخدودٍ سحيقٍ مع رصاصة مستقرة في رأسك. واعتبرْ لوسي محظوظة. لوسي أولاً وقبلك.

من المجازفة أن تمتلك أي شيء: سيارة، حذاءً، علبة سجائر. ليس هناك ما يكفي من السيارات، والأحذية، والسجائر. ثمة أعداد غفيرة من الناس، وأشياء قليلة جداً. يجب توزيع الممتلكات، حتى تتاح الفرصة لكل إنسان أن يكون سعيداً مدة يومٍ واحدٍ. هذه هي النظرية؛ تمسَّكْ بالنظرية وبما توفّره النظرية من عزاء. إنها ليست شراً إنسانياً، بل نظامُ توزيعٍ هائل، لا دخلَ للشفقة والرعب في أعمالها. هكذا ينبغي أن يرى المرء الحياة في هذا البلد: في وجهتها التخطيطية. وإلا أصيب بالجنون. سيارات، وأحذية ونساء أيضاً. يجب أن يكون في النظام موضعٌ لائقٌ للنساء ولِما يحدث لهنَّ.

لحِقَتْ لوسي به. حينئذ كانت ترتدي بنطالاً فضفاضاً ومعطفاً واقياً من المطر؛ وقد مشطت شعرها ورتّبته إلى الخلف، وكان وجهها نظيفاً وخالياً من أي تعبير. نظر في عينيها. قال: «عزيزتي، عزيزتي...»، واختنق بجيشانٍ مفاجئ من الدموع.

لم تحرّك ساكناً لتهدِّئ من روعه. علّقَتْ قائلة «رأسك يبدو فظيعاً. في غرفة الحمّام مشمّعاً للأطفال. اعتمره. هل سُرِقَتْ سيارتك؟».

«نعم. أعتقد أنهم ذهبوا باتجاه بورت اليزابيث. يجب أن أتّصل بالشرطة».

«لا تستطيع. لقد هشّموا جهاز الهاتف».

غادرته. جلس على السرير وانتظر. على الرغم من أنه قد تلفّع بدثار، إلا أنه ظل يرتجف من البرد. كان أحد رسغيه متورماً وينبض بالألم. لا يذكر

كيف تسبّبَ لنفسه بهذا. بدأ الظلام يزحف. وكأن فترة بعد الظهيرة كلها مرّت كلمح البصر.

عادت لوسي. قالت: «لقد أفرغوا إطارات سيارة الكومبي. سأقطع المسافة إلى محل إيتنغر سيراً على الأقدام. لن أغيب طويلاً». ثم سكتت «ديفيد، حين يسألك الناس، هلاّ اكتفيتَ برواية حكايتك فقط، ما حدث لك أنت؟».

لم يفهم.

كرّرتْ «احكِ لهم ما حدثَ لك، وأنا أحكي ما حدث لي».

قال بصوتٍ انحدر بسرعة إلى مستوى النعيق: «أنتِ ترتكبين خطأً».

قالت: «كلا لست مخطئة».

قال، ماداً ذراعيه نحوها «صغيرتي، صغيرتي!». ولمّا لم تقترب منه، نحّى الدثار جانباً، ونهضَ واقفاً، وضمّها بين ذراعيه. كانت بين أحضانه جامدة كعمودٍ، لا تمنحُ أي شيء.

اثنا عشر

إيتنغر رجلٌ طاعنٌ في السن يتكلم الإنكليزية مع نبرةٍ ألمانية واضحة. زوجته متوفاة، وأولاده عادوا إلى ألمانيا، وهو الوحيد الذي بقي في أفريقيا. وصل بسيارته البيك أب ذات سعة الثلاثة ليترات مع لوسي الجالسة إلى جانبه وتوقّفَ ينتظر والمحرّك ما يزال يدور.

حالما انطلقا على طريق غرامستاون قال معلِّقاً «نعم، أنا لا أذهب إلى أي مكان بدون مسدسي»، وربَتَ على قراب موجود عند ردفه، «من الأفضل أن تنقذ نفسك، لأن الشرطة لن تنقذك، لم يعودوا يفعلون ذلك، أؤكد لك»

هل إيتنغر على حق؟ لو كان لديه مسدس، أكان أنقذ لوسي؟ يشكُّ في ذلك. لو أن لديه مسدساً، لعله كان ميتاً الآن، هو ولوسي معاً.

لاحظَ أن يديه أصبحتا ترتجفان لأيسر سبب. كانت لوسي تعقد ذراعيها على صدرها. أهذا لأنها بدورها ترتجف؟.

كان يتوقَّع من إيتنغر أن يأخذهما إلى مركز الشرطة، ولكن اتضح أن لوسي كانت قد أمرته أن يتوجّه إلى المستشفى.

سألها: «ألأجلي أم لأجلك؟».

«لأجلك».

«ألا تريد الشرطة أن تقابلني أنا أيضاً؟».

أجابت: «ليس هناك ما تستطيع أن تخبرهم به ولا أستطيعه أنا، أم ماذا؟».

في المستشفى راحت تشقُّ طريقها بخطى واسعة خلال الباب المكتوب عليه «الإصابات»، وملأت الاستمارة نيابة عنه، وأجلسته في غرفة الانتظار. إنها زاخرة بالقوة، والعزم، في حين بدا أن الرعشة قد استولت على جسمه كله.

قالت وهي تعطيه التعليمات: «إذا صرفوكَ، انتظر هنا، سأعود لأصحبك».

«وأنتِ؟».

هزّتْ كتفيها استخفافاً. إن كانت ترتعش، فذلك لم يكن بادياً عليها.

عثر على مكان للجلوس بين فتاتين ضخمتين لعلهما أختان، إحداهما تمسك بطفلٍ يعول، وبين رجل يعصب رأسه بضمادٍ مدمّى. كان رقمه اثنا عشر في الصف. الساعة على الجدار تشير إلى الخامسة وخمس وأربعين. أغمضَ عينه السليمة وغاب في حالة نشوةٍ كانت الأختان خلالها تواصلان الحديث همساً، *chuchotantes*. حين فتح عينه كانت الساعة ما تزال تشير إلى الخامسة وخمسٍ وأربعين. أهي معطّلة؟ كلا: إن مؤشّر الدقائق يهتزّ ويستقر على الخامسة وستٍ وأربعين.

مرّت ساعتان قبل أن تنادي ممرضة على اسمه، وهناك مزيد من الانتظار قبل أن يأتي دوره لمقابلة الطبيب الوحيد العامل، وكان امرأةً هنديةً شابة.

قالت، إن الحروقَ في فروةِ رأسه ليست خطيرة، على الرغم من أنه ربما ينبغي عليه أن يحذر التلوّث. استغرق فحص عينه فترة أطول. كان الجفنان العلوي والسفلي ملتصقين؛ وقد اتّضح أن فصلهما يسبّب ألماً رهيباً.

بعد إجراء الفحص علّقت قائلة: «أنت محظوظ. لا يوجد أي تلف في العين نفسها. ولو أنهم استعملوا البترول لكانت قصة مختلفة.

خرج وهو مكسو الرأس ومضمّده، وعينه مغطّاة، وقطعة من الثلج مربوطة إلى رسغه. وفي غرفة الانتظار دُهِشَ إذ وجد بيل شو. بيل، الأقصر قامة منه بمقدار علو رأس، أمسك به من كتفيه. قال: «إنها صدمة، صدمة شديدة. لوسي موجودة عندنا. كانت تنوي أن تأتي لتصحبك بنفسها لكن بف رفضت هذا الرأي تماما. كيف حالك؟».

«أنا على ما يرام. فقط حروق خفيفة، لا شيء خطير. آسف لأني أفسدت عليك أمسيتك».

قال بيل شو: «كلام فارغ! وما نفع الأصدقاء؟ لو كنت مكاني لفعلتَ مثلي».

لأن الكلمات قيلت بلا سخرية استقرّت في نفسه ولن تبرحها أبداً. ورأى بيل شو أنه لو ضُرِبَ، أي بيل شو، على رأسه وأضرمت فيه النار لكان ساقه ديفيد لري إلى المستشفى وسهر عليه، بدون أن يقرأ حتى صحيفة، ومن ثم لأعاده إلى بيته. وبيل شو يعتقد أن ديفيد لري صديق له، لأنه تناول مع ديفيد لري مرة كوباً من الشاي، وأن على كلٍ منهما التزامات اتجاه الآخر. فهل بيل شو مخطئ أم مصيب؟ هل بيل شو، الذي ولد في هانكي، التي تبعد مسافة تقلُّ عن مائتيّ كيلو متر، ويعمل في محل لبيع الخردوات، لم ير شيئاً من العالم بحيث يجهل أن هناك أناساً لا يعقدون صداقات بسهولة، ورأيهم في الصداقات القائمة بين الرجال يفسده الشك؟ إن كلمة صديق *friend* في اللغة الإنكليزية الحديثة مستمدّة من كلمة *freond* في الإنكليزية القديمة، والتي أُخِذَتْ بدورها من *freon*، أن تحب. هل شِربُ الشاي يصدِّق على رباط حب، في عينيّ بيل شو؟ ومع ذلك لولا بيل شو، لولا العجوز إيتنغر، ولولا وجود روابط بشكلٍ من الأشكال، ماذا كان مصيره الآن؟ في مزرعة مدمَّرة بجهاز هاتف محطَّم وسط جثث الكلاب.

قال بيل شو من جديد وهما في السيارة: «أمرٌ مريع. وحشيّ. فظيعٌ

حين تقرأ عنه في الصحف، ولكن حين يحدث لإنسان تعرفه «ـ هزَّ رأسه ـ» فإنه بحقّ يصيبك في الصميم. وكأنك تعيش الحدث من بدايته».

لم يزعج نفسه بالردّ. فالنهار لم ينته بعد وما زال حياً. *الحرب، الوحشية*: إن كل كلمة يحاول المرء أن يلخّص بها هذا النهار، يبتلعها النهار داخل جوفه الأسود.

قابلتهما بف شو عند الباب. أخبرتهما أن لوسي تناولت مهدّئاً ثم استلقتْ؛ والأفضل عدم إزعاجها.

«هل ذهبتْ إلى مركز الشرطة؟».

«نعم، وصدرت نشرة بشأن سيارتك».

«ألم تزُر طبيباً؟».

«كل شيء تمَّ كما ينبغي. كيف حالك أنت؟ تقول لوسي أنك أُصبتَ بحروقٍ بالغة».

«لقد حُرِقتُ، لكنها ليست حروقاً خطيرة كما تبدو».

«إذن يجب أن تأكل وتأخذ قسطاً من الراحة».

«لستُ جائعاً».

صبَّت ماءً لأجله في مغطس كبير، عتيق الطراز، من حديد الصبّ: تمدّدَ على طوله الواهن داخل الماء المتبخِّر وحاول أن يسترخي. ولكن عندما حان وقت الخروج من الماء، انزلق وكاد يسقط: إنه ضعيف البنية كطفل، وطائش أيضاً. اضطرَّ إلى المناداة على بيل شو ومعاناة خزي تلقّي المساعدة للخروج من المغطس، والمساعدة في تجفيف نفسه، والمساعدة في ارتداء البيجاما المستعارة. لاحقاً سمع بيل ويف يتحدثان بصوتٍ منخفض، وعلم أنهما كانا يتحدثان عنه.

كان قد خرج من المستشفى مع أنبوب من أقراصٍ مخففة للآلام،

ورزمة من ضماد الحروق، وأداة صغيرة من الألومنيوم ليسند رأسه عليها. أجلسته بف شو على أريكة تفوح برائحةِ القطط، وغاص في النوم بسهولةٍ مدهشة. وفي قلب الليل استيقظ وهو في حالةِ صفاءٍ قصوى. لقد تراءت له رؤيا: تحدّثت لوسي إليه، قالت: ـ «إليّ، أنقذني!» ـ وكان صدى كلماتها ما يزال يتردّد في أذنيه. وفي الرؤيا كانت واقفة، ممدودة اليدين، وشعرها المبلل مسرَّح إلى الخلف، وسط حقلٍ من النور الأبيض.

نهض واقفاً، تعثّرَ بكرسيّ، وأطاح به. أُضيء نور وإذا ببف شو تمْثُل أمامه وهي بقميص النوم. غمغمَ، وقد جفَّ فمه، وثقُلَ لسانه: «يجب أن أتحدث إلى لوسي».

فُتِحَ الباب المؤدي إلى غرفة لوسي. لم تكن لوسي أبداً كما شاهدها في الرؤيا. إن وجهها منتفخ بتأثير النوم، وكانت تشدُّ حزام المبذل الذي كان جلياً أنه ليس لها.

قال: «أنا آسف، كنت أحلم». فجأة تبدّى له أن كلمة *رؤيا* عتيقة الطراز جداً، وشديدة الغرابة. «حسبتُ أنكِ ناديتني».

هزَّت لوسي رأسها نفياً «لم أنادِكَ. نم الآن».

كانت على صواب، طبعاً. إنها الثالثة صباحاً. ولكن لم يفُته أن يلاحظ برهة أنها للمرة الثانية في ذاك اليوم كلّمته وكأنها تكلِّمُ طفلاً ـ طفلاً أو عجوزاً.

حاول أن يعاود النوم لكنه لم يستطع. قال في نفسه، لابد أنه تأثير الحبوب: ليست رؤيا، ولا حتى حلمٌ، هي مجرد هلوسة كيميائية. مع ذلك، ما زالت هيئة المرأة وسط حقلٍ من النور ماثلة أمامه. صرخت ابنته «أنقذني!»، بكلماتٍ واضحة، مدوّية، فوريّة. أيعقل أن تكون روح لوسي قد غادرت جسدها بالفعل وأتت إليه؟ أيمكن أن الناس الذين لا يؤمنون بالأرواح يملكون أرواحاً، وأن أرواحهم تعيش حياةً مستقلّة؟.

ما زال شروق الشمس بعيداً. رسغه يؤلمه، وعيناه تحرقانه، وفروة رأسه متقرحة ومبتهجة. بحذرٍ أدارَ مفتاحَ النور ونهضَ واقفاً. تلفّع بدثار ودفع باب غرفة لوسي ودخل. كان إلى جانب السرير كرسي؛ جلس. دلّته أحاسيسه إلى أنها يقظة.

ماذا يفعل؟ إنه يحرس ابنته الصغيرة، يقيها من الأذى، يدفع عنها الأرواح الشريرة. بعد مرور فترة طويلة شعر أنها قد بدأت تسترخي. حين كانت شفتاها تنفرجان تخرج من بينها فرقعةٌ خفيفة، وأرقٌّ شخير.

طلع النهار. قدَّمتْ بف شو له إفطاراً من رُقاقات الذرة والشاي، ثم اختفت داخل غرفة لوسي.

حين رجعتْ سألها: «كيف حالها؟».

كان جواب بف شو فقط هزّة موجزة من الرأس. وكأنها تريد أن تقول، هذا ليس من شأنك. إن فترة الطمث، والمخاض، والاغتصاب وآثاره الكارثيّة: أي شؤون الدم، هي عبء المرأة، منطقة النساء المحرّمة.

تساءل، وليس للمرة الأولى، إن لم تكن النساء أسعد حالاً إذا ما عشن في مجتمعات مقتصرة على النساء، لا يقبلن زيارات الرجال لهنَّ إلا باختيارهن. لعله مخطئ إذ يعتقد أن لوسي سحاقية. لعلها ببساطة تفضِّل صحبة النساء. أو لعل السحاقيات كلهن لسنَ أكثر من ذلك: نسوة لا حاجة لهنَّ إلى الرجال.

لا عجبَ أنهما شديدتا المناهضة للاغتصاب، هي وهيلين. الاغتصاب، إله العماء واللا امتزاج، منتهِك الحرمات. واغتصاب سحاقيّة أسوأ من اغتصاب عذراء: ضربةٌ أكثر إيجاعاً. هل كان أولئك الرجال يعلمون علامَ هم مُقدِمون؟ هل سرَتْ الشائعة؟.

عند الساعة التاسعة، وبعد أن انطلق بيل شو إلى عمله، قرَعَ باب لوسي. كانت مستلقية ووجهها في مواجهة الجدار. جلس إلى جوارها، لمس وجنتها. كانت مبللة بالدموع.

قال: «هذا أمرٌ ليس من السهل التحدُّث بشأنه، ولكن هل زرتِ طبيباً؟».

استقامت في جلستها وتمخّطت «مساء أمس قابلت طبيبي العام».

«وهل يحسب حساب كل الاحتمالات؟».

قالت: «هي، هي، ليس هو. لا» ـ هنا أصاب صوتها شرخٌ من الغضب ـ «كيف يمكنها أن تفعل؟ كيف يمكن لطبيبة أن تحسب حساب كل الاحتمالات؟ تعقَّل قليلاً!».

نهضَ واقفاً. إذا اختارت أن تكون مستفزّة، فهو أيضاً يستطيع أن يكون كذلك. قال «آسف لأني سألت. ما هي خططنا هذا اليوم؟».

«خططنا؟ أن نعود إلى المزرعة ونقوم بعملية تنظيف».

«ثم؟».

«ثم نستمرّ كما كنا».

«في المزرعة؟».

«طبعاً. في المزرعة».

«تعقّلي، لوسي؟ لقد تغيّرتْ الأوضاع. لا نستطيع أن نبدأ من حيث توقفنا».

«ولم لا؟».

«لأنها ليست فكرة سديدة. لأنها ليست آمنة».

«إنها لم تكن مرة آمنة، وهي ليست مجرد فكرة، أسديدة كانت أم سيئة. لن أعود إكراماً لفكرة ما. سأعود فقط».

جلست بمبذلها المستعار تواجهه، ثابتة العنق، برّاقة العينين. إنها ليست ابنة والدها الصغيرة، لم تعد كذلك.

ثلاثة عشر

قبل أنٍ ينطلقا كان بحاجة إلى أن يغيّر أربطته. في غرفة الحمّام الصغيرة المزدحمة فكَّت له بف شو ضماداته. كان الجفنُ ما يزال مغمضاً والقروح قد انتفخت على فروة رأسه، لكن التلف لم يكن بالسوء المتوقَّع. الجزء الأشدّ إيلاماً كان حافّة أذنه اليمنى: إنها، كما عبّرت الطبيبة الشابة، الجزء الوحيد منه الذي احترق فعلاً.

غسلَتْ بف بمحلولِ مطهِّرِ البشرةَ التحتيةَ الوردية اللونِ والمكشوفةِ من فروة الرأس، ثم، وباستخدام ملقاطِ صغير، وضعت الرباط الأصفر المزيّت فوقه. وبرهافةٍ دهنت مرهماً على تضاعيف جفنه وأذنه. لم تتكلم أثناء العمل. وتذكّر التيس في المستوصف، وتساءل، وهو مستسلم بين يديها، إن كان قد شعَرَ بما يشعر به هو من سكينةٍ.

أخيراً قالت، بعد أن ابتعدت «انتهينا»

تفحّصَ صورته المنعكسة في المرآة، ذات القلنسوة البيضاء الأنيقة والعين المغطّاة. علّقَ قائلاً «يا للأناقة»، لكنه في نفسه قال: أشبهُ مومياءً.

حاول من جديد أن يثير موضوع الاغتصاب «تقول لوسي إنها زارت طبيباً عاماً مساء أمس».

«نعم».

ألحَّ قائلاً: «هناك خطرُ حدوث حمل. وهناك خطر حدوث مرضٍ

تناسلي. وخطر من الإصابةِ بفيروس الإيدز. ألا يجدر أن تزور أيضاً طبيباً نسائياً؟».

انتقلت بف شو بانزعاجٍ من مكانها قائلة «عليك أن تسأل لوسي نفسها. أنا سألتها. لم أحصل منها على أي جوابٍ ناجع».

«اسأليها ثانية».

كانت الساعة الحادية عشرة، لكن لم يظهر أثر للوسي. راح يتجوّل بلا هدف في أرجاء الحديقة. المزاج الكئيب يتلبّسه. ليس فقط لأنه لا يعرف ماذا يفعل بنفسه. لقد صعقته أحداثُ الأمس حتى أعمق أعماقه. والرعشة، والضعف ليسا أكثر من الدلالات الأولى والسطحية إلى تلك الصعقة. لديه شعور بأن في داخله عضواً حياً جُرِحَ، وتأذّى ـ لعله يكون حتى قلبه. لأول مرة يشعر بمعنى أن يكون الرجل عجوزاً، منهكاً حتى العظام، بلا آمال، ولا رغبات، ولا مبالٍ بالمستقبل. متراخياً على كرسي من البلاستيك وسط زنخ ريش الدجاج والتفاح العفن، يشعر أن اهتمامه بالعالم يستنزف منه قطرة فقطرة. قد يستغرق الأمر أسابيع، وقد يستغرق شهوراً قبل أن يجفَّ معينُهُ تماما، لكنه ما زال ينزف. وبعد أن ينتهي هذا، سيصبحُ أشبه بذبابة اصطناعية[1] داخلَ عنكبوت، هشّة الملمس، وأخفّ من قش الأرز، تطير لأقلّ نفخة هواء.

لم يكن في استطاعته أن يتوقع مساعدة من لوسي. يجب أن تشقّ لوسي طريق عودتها، بصبرٍ، وصمتٍ، من الظُلمةِ إلى النور. وريثما تستعيدُ توازنها، فإن مسؤولية تدبير حياتهما يقع على كاهله. إلا أنها جاءته بفُجاءةٍ كبيرة. إنها مسؤولية ليس أهلاً لها: المزرعة، الحديقة، الكلاب. مستقبل لوسي، مستقبله هو، مستقبل الأرض بشكل عام ـ أراد أن يقول، إن هذا كله لا أهمية له؛ فليذهب كل شيء إلى الكلاب، لا يهمني. أما عن الرجال

(1) ذبابة اصطناعية: تستعمل في صيد السمك.

الذين زاروهما، يتمنّى أن ينالهم الأذى، أينما كانوا، ولكن فيما عدا ذلك لا يريد أن يفكّر فيهم.

قال في نفسه، إن هذا مجرد ذيل للحادث، ذيل للاجتياح. سرعان ما سيُستعاد النظام، وسأعود أنا، الشبحُ القابع داخله، إلى ذاتي العجوز من جديد. غير أنه كان يعلم أن الحقيقة شيء آخر. لقد نضبَ معين استمتاعه بالحياة. بدأ يطفو نحو نهايته، كورقة نبات يجرفها جدول ماء، كزورقٍ في مهب الريح. تراءىٰ له ذلك بجلاء تام، وملأته (لم يستطع أن يتخلّص من الكلمة) باليأس. دماءُ الحياة تغادر جسمه ليحلّ اليأس محلّها، يأسٌ أشبه بالغاز، بلا رائحة، ولا طعم، ولا فائدة. تستنشقه، فتتراخى أطرافك، وتكفّ عن الاهتمام، حتى في اللحظة التي يلمس الفولاذ نحرك.

رنَّ جرس الباب: إنهما رجلا شرطة بزيّهم الجديد الأنيق، مستعدان للبدء بإجراء تحقيقاتهما. ظهرتْ لوسي من غرفتها يبدو عليها الإرهاق، وترتدي ملابس الأمس نفسها، ورفضتْ أن تتناول طعام الإفطار. أقّلتهما بف بسيارتها إلى المزرعة، يتبعهم رجلا البوليس في عربتهما.

كانت جثث الكلاب ممدّدة حيث أُرديت في القفص. الكلبةُ ما تزال حيّة: لمحوها تتوارى خوفاً بالقرب من الإسطبل، مبدية فتوراً. ولم يروا أثراً لبتروس.

في الداخل، خلع رجلا الشرطة قبعتيهما، وأقحماهما تحت إبطيهما. وقف بعيداً، وترك للوسي أمر إخبارهما بالقصة التي اختارت أن تحكيها. أصغيا بكل احترام، مدوّنين كل كلمة تفوهت بها، والقلم يتحرّك بسرعة متوترة عبر صفحات دفتر الملاحظات. كانا من جيلها، لكنهما مع ذلك شعرا بالتوتُّر منها، وكأنها مخلوق ملوّث ويمكن للتلوّث أن ينتقل منها إليهما، ويلوثهما.

قالت، كانوا ثلاثة رجال، أو رجلين وفتى. دخلا بالحيلة إلى المنزل،

وأخذوا (عدّدتْ الأغراض) مالاً، وملابس، وجهاز تلفزيون، وجهاز تشغيل الأسطوانات المُدمجة، وبندقية مع ذخيرتها. وحين أبدى والدها مقاومةً اعتدوا عليه، وصبّوا الكحول عليه، وحاولوا أن يحرقوه. ثم أطلقوا النار على الكلاب وانطلقوا في سيارته. ووصفت الرجال ولباسهم؛ وأعطت وصفاً لسيارته.

كانت لوسي طوال فترة كلامها تنظر بثبات إليه، وكأنها تستمدّ القوة منه، أو أنها تتحداه أن يناقض كلامها. وحين سألها أحد الشرطيين: كم دامت فترة الهجوم بأكملها؟»، قالت: «عشرين دقيقة، ثلاثين دقيقة». وهذا غير صحيح، كما يعرف، وكما تعرف. لقد استغرق الأمر أكثر من ذلك بكثير. أكثر بكم؟ مدة كافية للرجال كي ينهوا عملهم مع سيدة المنزل.

مع ذلك لم يقاطعها. *لا يهتم*: بالكاد أصغى للوسي وهي تحكي حكايتها. كانت الكلمات قد بدأت منذ الليلة السابقة تتخذ شكلاً مرفرفاً على حواف الذاكرة. «*سيدتان عجوزان محبوستان في المرحاض / ظلتا هناك من الاثنين وحتى السبت / لم يعلم بأمرهما أحد*». كان حبيس المرحاض بينما ابنته تُستَغَلّ. إنها أنشودة من عهد طفولته عادت إليه لتبرز له إصبعاً ساخراً. «*يا إلهي، ما هذا؟*». إنه سرّ لوسي: خِزيه هو.

تنقّلَ رجلا الشرطة بحذر في أرجاء المنزل، يعاينان. لا دماء، لا أثاث مقلوباً. فوضى المطبخ أُعيدَ ترتيبها (ألوسي فعلت؟ متى؟) خلف باب المرحاض عودا ثقاب مستعملان، لكنهما حتى لم يلاحظا وجودهما.

في غرفة لوسي كان السرير المزدوج مجرّداً من أي شيء. قال في نفسه «*إنه مسرح الجريمة*»، فحوّلَ رجلا الشرطة بصريهما عنه، وكأنما قرأا ما يفكر فيه، وتابعا طريقهما.

منزل يلفّه السكون في صباح شتائيّ، لا أكثر، ولا أقلّ.

لدى مغادرتهما قالا: «سوف يأتي تحرّي ويرفع بصمات الأصابع.

حاولا ألا تلمسا أي شيء. إذا تذكّرتما أي غرض آخر أخذوه، اتصلا بنا في المركز».

ما كادا يغادران المكان حتى وصل مصلّح الهاتف، ثم جاء العجوز إيتنغر. وقد قال إيتنغر عن غياب بتروس كلاماً غامضاً «لا يمكن الوثوق من أحد»، ثم قال إنه سيبعث بفتى ليصلح سيارة الفوكس فاغن.

في الماضي كان يرى لوسي تستشيط غضباً حين يستخدم كلمة فتى. أما الآن فلم تُبدي أي ردّة فعل.

أوصل إيتنغر إلى الباب.

علّق إيتنغر «مسكينة لوسي، كان أمراً شنيعاً ما وقع لها. ومع ذلك كان يمكن أن يكون أفظع».

«أحقاً؟ كيف؟».

«كان يمكن أن يأخذوها معهم».

هذه العبارة أسكتته. إيتنغر هذا ليس أحمق.

أخيراً أصبح ولوسي وحيدين. قال متبرعاً «سأدفن الكلاب إذا أريتني أين أفعل. ماذا ستقولين لأصحابها؟».

«سأقول الحقيقة».

«هل تغطي قيمة تأمين الخسائر؟».

«لا أدري. لا أدري إن كانت بوليصات التأمين تغطي قيمة المذابح. يجب أن أستعلم».

سكت. «لمَ لا تحكين القصة كلها يا لوسي؟».

«لقد حكيت الحكاية كلها. الحكاية كلها هي ما قلته أنا».

هزَّ رأسه بارتياب «أنا واثق من أن لديك أسبابك، ولكن في سياق المدى الأوسع هل أنت واثقة من أن هذا هو المسار الأمثل؟».

لم تُجِبْ، ولم يلحّ عليها، للوهلة الأولى. لكن أفكاره اتجهت نحو الدخلاء الثلاثة، المُغيرين الثلاثة، الرجال الذين قد لا تقع عينه عليهم ثانية، إلا أنهم أصبحوا وإلى الأبد يشكّلون الآن جزءاً من حياته، ومن حياة ابنته. سوف يرى الرجال ما كُتِبَ في الصحف، وينصتون إلى الأقاويل. سوف يقرؤون أنهم مطلوبون بتهمة السرقة والاعتداء ولا أكثر. سوف يدركون أن ستاراً من الصمت قد أُسدِلَ على جثةِ صمتِ المرأة. سوف يقول كلٌّ منهم للآخر «*إنها من فرط الإحساس بالخجل بحيث لن تبوح*»، وسوف يتضاحكون في سرّهم مستمتعين، وهم يسترجعون مأثرتهم. هل لوسي مستعدة لأن تسلِّم لهم ذلك الانتصار؟.

حفَرَ حيثُ دلّتهُ لوسي، بالقرب من خط الحدود، قبراً يتّسعُ لستةٍ من الكلاب البالغة: حتى في التربة المحروثة حديثاً استغرق منه الحفرُ ما يقارب الساعة، ومع انتهائه كان ظهره يؤلمه، وذراعاه تؤلمانه، وعاوده ألم رسغه. جرَّ الجثث محمولة على عربة يدّ. كان الكلب ذو الحنجرة المثقوبة ما يزال يكشف عن أنيابه المدمّاة. كان الأمر أشبه بإطلاق النار على السمك وهو داخل برميل. شيء وضيع، لكنه ربما مُبهِجٌ في بلدٍ تُربّى فيه الكلاب لكي تزمجر في وجه حتى رائحة رجلٍ أسود. عملٌ بعد ظهيرة مُرْضٍ، وعنيف، ككل أعمال الانتقام. رمى بالكلابِ واحداً إثر آخر في الحفرة، ثم طمرها.

عاد ليجدَ لوسي تُقيمُ سريرَ مخيّمٍ في غرفةِ المؤونة الصغيرة والعفنة، التي كانت تستخدمها كمخزن.

سألها «لمن هذا؟».

«لأجلي».

«وماذا عن الغرفة الإضافية؟».

«ألواحُ خشب سقفها اختفت».

«والغرفة الكبيرة في الخلفية؟».

«المجمِّدْ يُصدِرُ الكثير من الضجيج».

غير صحيح. المجمِّدْ في الغرفة الخلفية بالكاد يصدر هريراً. إن سبب رفض لوسي النوم هناك يعود إلى ما يحتويه ذاك المجمِّدْ: فضلات ذبائح، عظاماً، لحوماً خاصة بالكلاب لم تعد من حاجةٍ إليها.

قال: «خذي غرفتي، وأنا سأنام هنا»، وباشر على الفور في إخراج أغراضه.

ولكن، أحقاً كان يريد أن ينتقل إلى تلك الحُجيرة، بما تحتويه من صناديق برطمانات الأطعمة المحفوظة الفارغة المكوّمة في إحدى الزوايا ونافذتها الوحيدة الصغيرة الجنوبية؟ إن كانت أشباحُ مغتصبي لوسي ما زالت تحوم من غرفةِ نومها، فلابد من طردها، لا أن يُسمَحَ لها أن تحتلها وتستفرد بها. وهكذا نقل متعلّقاته إلى غرفة لوسي.

هبط المساء. لم يكونا جائعين، لكنهما تناولا الطعام. فتناولُ الطعامِ هو طقسٌ، والطقوس تسهِّلُ الأمور.

مرة أخرى طرحَ سؤاله بأرقِّ أسلوبٍ ممكن «لوسي، يا عزيزتي، لماذا لا تريدين أن تحكي ما حدث؟ لقد كانت جريمة. وليس عاراً أن يكون الإنسان هدفَ عملٍ إجراميّ،أنت لم تختاري أن تكوني كذلك. أنتِ الطرفُ البريء».

جذبت لوسي، الجالسة قبالته على المائدة، نَفَساً عميقاً، ولملمت شتات نفسها، ثم زفرت من جديد وهزّتْ رأسها رفضاً.

قال: «هل لي أن أخمِّن السبب؟ هل تحاولين أن تذكّرينني بشيء؟»

«أحاولُ أن أذكّركُ بماذا؟».

«بما تتعرَّضُ له النساء على أيدي الرجال».

«لا شيء أبعد من هذا عمّا يدور في خلدي. ليس للأمر علاقة بك يا ديفيد. أنت تريد أن تعرف لماذا لا أحدِّد تهمةً معيّنةً مع الشرطة. سأقول لك، إذا وافقت على ألا تفتح الموضوع ثانية. إن السبب، من ناحيتي، هو أن ما حدثَ لي مسألةٌ خاصةٌ محض. ولو أنه وقع في وقتٍ آخر، وفي مكانٍ آخر

لاعتبِرَ الأمرُ شأناً عاماً. ولكن في هذا المكان، وهذا الوقت، هو ليس كذلك. إنه شأني أنا، شأني وحدي».

«وما هو هذا المكان؟».

«هذا المكان هو أفريقيا الجنوبية».

«لا أوافقك. لا أوافقك على ما تفعلين. أتظنين أنك بقبولك الخنوع لما حدث لك تستطيعين أن تنأي بنفسك عن مزارعين مثل إيتنغر؟ أتظنين أن ما حدث هنا كان امتحاناً: إذا اجترتِهِ تحصلين على شهادةٍ وانتقالٍ آمن إلى المستقبل، أو على لافتةٍ معلّقةٍ على الباب تجعلُ الوباء يتجاوزكِ دون أن يمسّكِ؟ ليس هكذا يكون الانتقام يا لوسي. الانتقام كالنار. كلّما التهمَ أكثر، ازداد جوعاً».

«كفى، ديفيد! لا أريد أن أسمع هذا الحديث من الأوبئة والنيران. إنني لا أحاولُ فقط أن أنفد بجلدي. إنْ كان هذا ما تفكّر فيه، فأنتَ لا تفهمُ أي شيء».

«ساعديني إذن. هل تحاولين أن تحقّقي شكلاً من أشكال الخلاص الذاتي؟ هل تأملين في أن تتمكّني من التكفير عن جرائم الماضي بالمعاناة في الحاضر؟».

«لا. إنك دائماً تسيء فهمي. إن الشعورَ بالذنبِ والخلاصِ مجرّدان. وأنا لا أتصرّفُ على أساس المجرّدات. ولن أتمكّنُ من مساعدتك إلى أن تجتهد لتفهم هذا».

أراد أن يستجيب، لكنها قاطعته. «إننا متّفقان يا ديفيد. لا أريد أن نواصل هذا الحديث».

لم يحدث قط من قبل أن كانا متباعدين بتلك الصورة المريرة.

أربعة عشر

يومٌ جديد. اتصلَ إيتنغر هاتفياً، عارضاً أن يقرضهما بندقية «مؤقتاً». أجاب «شكراً لك، سوف نفكر في الأمر».

أخرج أدوات لوسي وأصلح باب المطبخ قدر استطاعته. يجب أن يضعوا قضباناً من الحديد، وبوابات آمنة، وسياجاً يحيط بالمكان كله، كما فعل إيتنغر. ويجب أن يحولوا المزرعة إلى حصنٍ حصين. وعلى لوسي أن تشتري مسدساً وجهاز إرسال واستقبال، وأن تتلقّى تدريبات على إطلاق النار. ولكن هل ستوافق؟ إنها موجودة هنا لأنها تحب الأرض والأسلوب الـ *landliche* (الريفي) في الحياة. فإذا ما فشل أسلوب الحياة هذا، ماذا يتبقّى لها أن تحب؟.

استدُرجَتْ كيتي لتخرج من مخبئها ثم وضِعَتْ في المطبخ. كانت تشعر بالقهر والخوف، وتتبع لوسي حيثما تحركت، وتظل ملتصقة بإثرها. وأخذت الحياة، شيئاً فشيئاً، تبدو مختلفة عمّا كانت عليه، أصبح المنزل يبدو غريباً، منتَهَكاً؛ وأصبحا على الدوام في حالة انتباه، ينصتان لدى سماع أي صوت.

ثم عاد بتروس. أنّتْ عربةٌ شاحنةٌ عتيقة على الممر المخدّد وتوقفت بجانب الإسطبل. ترجّل بتروس من السيارة، مرتدياً بذلة شديدة الضيق عليه، تتبعه زوجته والسائق. ومن خلفيّة الشاحنة أفرغَ رجلان صناديق كرتونية، وأعمدة مطليّة بالقطران، وصفائحَ من الحديد المطلي بالزنك، ولفّة

من الأنابيب البلاستيكية، وأخيراً، وبكثير من الضجيج والهياج، خروفين متوسطيّ السن، قيّدهما بتروس إلى عمود السياج. دارتْ الشاحنة باندفاع دورة واسعة حول الإسطبل وهدرت عائدة إلى الممر. اختفى بتروس وزوجته في الداخل. بدأ ذيل من الدخان يتصاعد من أنبوب مدخنة الاسبستوس.

تابع المراقبة. بعد قليل ظهرت زوجة بتروس وأفرغت ملء دلو من الفضلات بحركات مرتاحة، وعفوية. قال في نفسه، إنها امرأة أنيقة، بتنورتها الطويلة وغطاء رأسها المكوَّم عالياً، على الطريقة القروية. امرأة أنيقة ورجل محظوظ. ولكن أين كانا؟.

أخبر لوسي «عاد بتروس مع حملٍ من مواد البناء».

«عظيم».

«لماذا لم يخبرك بأنه سيغيب؟ ألا ترين أن من الغريب أن يختفي في هذا الوقت بالذات؟».

«لا أستطيع أن أتحكَّم بتحركاته. إنه سيد نفسه».

استنباط غير مناسب، لكنه تجاوزه. قرر أن يدع كل شيء يمرّ، مع لوسي، في الوقت الراهن.

إن لوسي كتومة، لا تعبِّر عن مشاعرها، ولا تبدي أي اهتمام بأي شيء من حولها. وكان عليه هو، على الرغم من جهله بأمور إدارة المزارع، أن يُخرج البط من الحظيرة، ويتحكّم في نظام تدفّق المياه ويرشِّد استخدام المياه لكي يجنِّب الحديقة الجفاف. كانت لوسي تمضي ساعات طوالاً مستلقية على السرير، تحدِّق إلى الفراغ أو تنفرج على المجلات القديمة، التي يبدو أنها كانت تحتفظ بمخزون لا ينضب منها. وكانت تستعرضها استعراضاً سريعاً ونزقاً، وكأنها تفتِّش عن شيء غير موجود. ولم يعد هناك أثر لرواية «إدوين دروود».

كان يراقب عمل بتروس عند السد، وهو يرتدي رداءه السروالي. والغريب في الأمر أن الرجل لم يكن بعد قد أثبت وجوده عند لوسي. لقد جال في المكان، يتبادل التحيات. «لابد أنك سمعت أننا تعرّضنا لعملية سرقة كبيرة في يوم الأربعاء أثناء غيابك».

قال بتروس: «نعم، سمعت. أمرٌ سيئ جداً، سيئ جداً. لكنكما الآن على ما يرام».

أهو مصيب؟ أحقاً لوسي على ما يرام؟ أم أن بتروس يطرح سؤالاً؟ لا يبدو كسؤال، لكنه لا يستطيع أن يتقبّله خلاف ذلك، ليس بالمعنى اللائق. المهم الآن، ما هو الجواب؟.

قال «إنني حيّ، وما دام الإنسان حياً أعتقد أنه يكون على ما يرام. وعليه، نعم، أنا على أحسن ما يرام». وسكت، انتظر، أفسح مجالاً للصمت كي يهيمن، صمت كان على بتروس أن يملأه بالسؤال التالي: «*وكيف حال لوسي؟*».

كان على خطأ. سأله بتروس «هل ستذهب لوسي إلى السوق غداً؟».

«لا أدري».

قال بتروس «لأنها إذا لم تذهب فقد تفقد كشكها».

قالت لوسي «لم لا تذهبان أنتما الاثنان، لا أشعر برغبة في الذهاب».

«أنت واثقة؟ من المؤسف أن يمرَّ أسبوع بدون أن تذهبي».

لم تُجب. كانت تفضِّل أن تخفي وجهها، وكان يعرفُ السبب. إنه الإحساس بالخزي. هذا ما أنجزه زوّارهما؛ هذا ما فعلوه بهذه المرأة الشابة العصرية، والواثقة من نفسها. لقد كانت القصة تنتشر في المنطقة كانتشار بقعة. إنها ليست قصتها بل قصتهم: هم أصحابها. كيف وضعوها في مكانها، وبيّنوا لها وظيفة المرأة.

* * *

بعينه الواحدة وقلنسوته البيضاء الضيقة، نال نصيبه من الإحساس بالخجل من الظهور العلني. لكنه إكراماً للوسي مضى في إنجاز مهمة السوق، وجلس إلى جوار بتروس في الكشك، متحمّلاً تحديق الفضوليين، متجاوباً بكل أدب مع أصدقاء لوسي الذين اختاروا أن يواسوه. كان يقول «نعم، فقدنا سيارة، والكلاب أيضاً، إلا واحدة. لا، ابنتي في حالة جيدة، لكنها ليست على ما يرام اليوم. لا، لا يملؤنا الأمل، لقد انتشر رجال الشرطة، كما تعلم حتماً. نعم، سأبلغك بدون شك».

قرأ قصتهما كما وردت في صحيفة «*هيرالد*». أطلقوا على الرجال لقب «*المعتدين المجهولين*»: «هاجم ثلاثة رجال مجهولي الهوية الآنسة لوسي لوري ووالدها الكهل وهما في ملكيّتهما الصغيرة الكائنة خارج نطاق «سالم»، ثم فرّوا مع ثياب، وأجهزةٍ إلكترونية وسلاح ناري. وبحركة غريبة الأطوار، عمدَ السارقون أيضاً إلى قتل ستةٍ من كلاب الحراسة قبيل هروبهم في سيارة تويوتا كورولا 1993 تسجيل CA 507644. وقد عولجَ السيد لري، الذي أصيب بجروح طفيفة أثناء الهجوم، في مستشفى المقيمين ثم أخلي سبيله».

فرحَ لأنهم لم يربطوا بين والد الآنسة لوري الكهل وديفيد لري، مُريد شاعر الطبيعة وليم ووردسوورث وكان حتى عهدٍ قريب بروفيسوراً في جامعة الكيب التقنية.

لم تكن لديه أي معرفة بعمل التجارة الحقيقي. كان بتروس هو الذي نشر بضائعهما بسرعة واقتدار، وكان على معرفة بالأسعار، ويتلقّى النقود، وبعيدُ باقيها. في الواقع كان بتروس هو الذي يقوم بالعمل. في حين كان هو يكتفي بالجلوس وتدفئة يديه. تماما كما في الأيام الخوالي *baas en klaas* (الريّس الراقي). إلا أنه لم يكن يجرؤ على إصدار الأوامر لبتروس. كان بتروس يقوم بما يحتاج إلى أن يفعله، فقط.

ومع ذلك، كان دخلهم منخفضاً: أقلّ من ثلاثمائة راند، والسبب بلا أدنى شك هو غياب لوسي. واضطرا إلى إعادة صناديق الأزهار، وأكياس الخضروات، إلى سيارة الكومبي. هزّ بتروس رأسه، وقال «هذا ليس جيداً».

لم يكن بتروس حتى ذلك الحين قد قدَّمَ بعد تفسيراً لغيابه. كان له الحق في أن يتنقّل كما يشاء؛ وقد مارس ذلك الحق؛ وكان مؤهّلاً لأن يلزم الصمت. لكن السؤال ظل مطروحاً. هل يعرف بتروس هوية الغرباء؟ أيكون سبب اختيارهم للوسي كهدفٍ لهم بدل، مثلاً، إيتنغر أن كلمةً أفلتت من بتروس عفواً؟ هل كان بتروس يعرف مسبقاً ما كانوا يخططون له؟.

أيام زمان كان في الإمكان حسمُ الأمور مع بتروس. أيام زمان كان في الإمكان حسم الأمور إلى حد فقدان الأعصاب وطرده وتشغيل شخصٍ آخر مكانه. وعلى الرغم من أن بتروس كان يتلقّى أجراً، إلا أن بتروس لم يعد، حتماً، مساعداً أجيراً. كان من الصعب تحديد شخصية بتروس، بدقّة. إلا أن أفضل كلمة تصفه هي أنه «جار». كان بتروس جاراً تصادفَ حينئذ أن كان يبيع جهده، لأن ذلك يناسبه. يبيع جهده طبقاً لعقد، عقد غير مكتوب، وذلك العقد لا يشترط الطرد على أساس الريبة. لقد كانوا يعيشون عالماً جديداً، هو ولوسي وبتروس. وكان بتروس يعلم هذا، وهو يعرفه، وبتروس يعرف أنه يعرفه.

على الرغم من ذلك كان يرتاح إلى بتروس، بل كان على استعداد، وإن بالتدريج، أن يحبه. فبتروس من أبناء جيله. ولا ريب في أن بتروس قد مرَّ بتجارب كثيرة، ولا شك في أن لديه حكاية يحكيها. ولم يكن لديه مانع أن يسمع حكاية بتروس ذات يوم. ولكن من الأفضل ألا تشوَّه بروايتها باللغة الإنكليزية. لقد كان يقتنع باطراد بأن الإنكليزية وسيلة غير صالحة لنقل صورة حقيقية لجنوب أفريقيا. إن كميات هائلة من المدوّنة الإنكليزية بجُمَلِها الطويلة الكاملة قد غَلُظَتْ، فقدَتْ ألفاظها، ووضوحَ نُطقها، واتساقه. لقد تجمّدت اللغة كديناصورٍ ينفق ويستقر في الطين. فإذا ما صُبَّتْ قصة بتروس

في قالبٍ من اللغة الإنكليزية خرجت عرجاء، عفا عليها الزمن.

وما أعجبه في بتروس كان وجهه، وجهه ويداه. إن كان في العالم ما يدعى بالعمل الشريف، فإن بتروس يحمل آثاره. كان يتّصف بالصبر، والحيوية، والمرونة. فلاح، *a paysan*، رجل قروي. متآمر ومخطط وكاذب أيضاً بدون شك، كشأن الفلاحين في كل مكان. جهد شريف ومكر شريف.

كانت لديه شكوكه الخاصة حول ما ينوي بتروس أن يفعله، على المدى الطويل. إن بتروس لن يرضى بأن يبقى إلى الأبد يحرث الهكتار والنصف. لعل لوسي استمرت أطول من أصدقائها الغجر، الهيبيين. أما بالنسبة إلى بتروس فإن لوسي كانت ما تزال تمثّل نقوداً تافهة: هاوية، متحمّسة لحياة المزارع أكثر منها مزارعة حقه. كان بتروس يحب أن يستولي على أرض لوسي؛ ثم أن يحصل على أرض إيتنغر أيضاً، أو على ما يكفي منها ليرعى قطيعه عليها. وسوف يكون إيتنغر أصعب مراساً. إن لوسي مجرد ضيفة عابرة؛ وإيتنغر فلاح عادي، مرتبطٌ بالأرض وعنيد، *eingewurzelt*. لكن إيتنغر سوف يموت ذات يوم، وابن إيتنغر قد هرب. وإيتنغر في هذا المجال كان أحمق. إن الفلاح الجيد يحرص على أن ينجب أبناءً كثيرين.

كان لبتروس تصوّر للمستقبل لا مكان لأناسٍ كلوسي فيه. ولكن هذا لا يعني أن يجعل من بتروس عدواً له. فلطالما كانت الحياة الريفية تعني جيراناً يتآمرُ بعضهم على بعض، ويتمنى كل منهم للآخر المصائب والمحاصيل السقيمة، والدمار المالي، ومع ذلك يكون في وقتِ الأزمةِ مستعداً لتقديم يد المساعدة.

التفسير الأسوأ، والأشدّ تشاؤماً، هو أن بتروس اشترك مع الغرباء الثلاثة في تلقين لوسي درساً، ثم دفع لهم وتخلّصَ منهم وفاز بالغنيمة. لكنه لم يصدِّق ذلك، وجده شديد البساطة. وخامره شعور بأن الحقيقة الفعلية هي

أكثر ـ وأخذ يبحث عن الكلمة المناسبة ـ أنثروبولوجيّةً بكثير، هي شيء يستغرق سبر أعماقه أشهراً طويلة، أشهراً من الحديث الصبور، المتأني مع جمهرةٍ من الناس، والمساعدات التي يمدَّنا بها المفسِّر.

من ناحية أخرى، كان يؤمن بأن بتروس يعرف أن ثمة أمراً وشيك الوقوع؛ يؤمن بأنه كان في إمكان بتروس أن يحذِّر لوسي. ولهذا هو لن يترك الموضوع. لهذا كان لا ينفك يزعج بتروس.

كان بتروس قد أفرغ سدّ التخزين الأسمنتي وأخذ ينظّفه من الطحالب. وهو عمل كريه. ومع ذلك، تبرّعَ بالمساعدة فيه. فصعدَ، وقدماه محشورتان داخل جزمة لوسي المطاطية، إلى السد، وهو يطأ بحذرٍ على القاع اللزج. وأخذا، هو وبتروس، معاً، يكشطان، يحكّان، ويجرفان الطين. ثم ترك هو العمل.

قال: «أتعلم يا بتروس، أكاد لا أصدّق أن الرجال الذين أتوا إلى هنا كانوا غرباء. أكاد لا أصدّق أنهم وصلوا هكذا من المجهول، وفعلوا ما فعلوا، ثم اختفوا بعد ذلك كالأشباح. وأكاد لا أصدق أن سبب اختيارهم لنا كان ببساطة أننا أول قوم من البيض قابلوهم في ذاك اليوم. ما رأيك؟ أتراني مخطئاً؟».

كان بتروس يدخّن غليوناً، غليوناً عتيق الطراز ذا ساقٍ معقوفة وغطاءٍ صغير من الفضة من أجل التجويف. فاعتدل في وقفته، وتناول الغليون من جيب سترته السرواليّة، ثم رفع الغطاء، ورصَّ التبغ في التجويف، وأخذ يمصّ فوهة الغليون غير المشتعل. حدّقَ متأملاً عبر جدار السد، وعبر التلال، وعبر الريف المترامي. كانت قسمات وجهه هادئة هدوءاً تاماً.

أخيراً قال: «ينبغي على الشرطة أن تعثر عليهم، على الشرطة أن تعثر عليهم وتزجّهم في السجن. هذا هو عمل رجال الشرطة».

«لكن الشرطة لن تتمكن من العثور عليهم بدون أن تتلقى مساعدة. إن

أولئك الرجال يعلمون بوجود المركز الحراجي. وأنا مقتنع بأنهم كانوا يعلمون بوجود لوسي. فكيف علموا بذلك إن كانوا فعلاً غرباء عن المنطقة؟».

فضَّلَ بتروس ألا يعتبر هذا سؤالاً. وضع الغليون في جيبه، وبدَّل الرفش بالمكنسة.

ألحَّ قائلاً: «الأمر لم يكن مجرد عملية سرقة يا بتروس. إنهم لم يأتوا فقط بقصد السرقة. لم يأتوا فقط لكي يفعلوا هذا بي». ولمس الضمادات، ووقاء العين. «لقد أتوا ليفعلوا شيئاً آخر أيضاً. أنت تفهم ما أعني، أو إذا كنت لا تفهم فتستطيع حتماً أن تخمّن. فبعد أن فعلوا ما فعلوا، لا يمكن أن تنتظر من لوسي أن تواصل حياتها السابقة بهدوء. أنا والد لوسي، وأريد أن يتم القبض على أولئك الرجال ويُجلَبوا ليمْثلوا أمام القضاء ويعاقبوا. أتراني مخطئاً؟ أتراني مخطئاً لأني أطلب العدالة؟».

عندئذ لم يكن يهمه كيف ينتزع الكلمات من فم بتروس، كان فقط يريد أن يسمعها.

«لا، لستَ مخطئاً».

اضطرمت فيه موجة من الغضب، كانت قوية إلى درجة أنه أصيب بالدهشة. التقط الرفش وأخذ يضرب مساحات طويلة ضيقة كاملة من الطين والأعشاب الضارة من قاع السدّ، ويقذف بها عبر كتفيه، وعبر الجدار. أنَّبَ نفسه قائلاً *«إنك تعذّب نفسك حتى تغضب. كفى!»*، لكنه في تلك اللحظة ودَّ لو يُطْبِقْ على رقبة بتروس. ودَّ لو يقول لبتروس *«لو أنها كانت زوجتك بدل أن تكون ابنتي، لما وقفتَ تربتُ على غليونك وتزن كلماتك بحكمة شديدة»*. ودَّ لو ينتزع من بتروس كلمة *«اغتصاب»*. ودَّ لو يسمع بتروس يقول *«نعم، إنه اغتصاب. نعم، إنه عملٌ وحشيّ»*.

وبصمت، جنباً إلى جنب، أكملَ وبتروس العمل.

* * *

هكذا كانت أيامه تمضي في المزرعة. يساعد بتروس في تنظيف نظام الريّ، وإبعاد الخراب عن الحديقة، وحزم المنتجات استعداداً لإرسالها إلى السوق. وكان يساعد بف شو في المستوصف، ويكنس الأرض، ويطبخ الوجبات، ويفعل كل ما لم تعد لوسي تقوم به. كان ينشغل من الفجر إلى الغسق.

كانت عينه تبرأ بسرعة مدهشة: فبعد أسبوع فقط استطاع أن يعود إلى استخدامها. أما الحروق فشفاؤها يستغرق وقتاً أطول. وظل محتفظاً بغطاء الرأس وبالضماد على أذنه. وكانت الأذن، وهي مكشوفة، تبدو أشبه بحيوان رخويّ زهري اللون وعارٍ: لم يكن يعلم متى ستواتيه الشجاعة لكشفها أمام تحديق الآخرين.

ابتاع قبعة لتقيه أشعة الشمس وأيضاً، إلى حدٍ ما، ليخفي وجهه. كان يحاول أن يتعوّد على منظره الغريب، بل الأسوأ من الغريب، المنفر ـ أحد تلك المخلوقات المثيرة للشفقة التي يحدِّق إليها الأطفال مشدوهين في الشارع، ويسألون أمهاتهم «لماذا يبدو شكل هذا الرجل شديد الغرابة؟». ويتوجَّب إسكاتهم.

كان نادراً ما يتردّد على محلات «سالم»، ولا يتوجّه إلى غرامستاون إلا في أيام السبت. فجأة أصبح منعزلاً، منعزلاً قروياً. انتهى عهد التجوال، على الرغم من أن القلب ظل عاشقاً والقمر بقي وضّاءً. مَنْ كان يظن أن هذا كله سوف ينتهي بتلك السرعة والفُجاءة: التجوال، والعشق!.

لم يكن لديه أي سبب ليصدِّق أن مصائبهما قد وجدت طريقاً لها إلى حلقات الثرثرة في كيب تاون. ومع ذلك أراد أن يتأكد من أن روزاليند لم تسمع القصة بشكل محرَّف. حاول مرتين أن يتّصل بها، ولكن عبثاً. في المرة الثالثة اتصل بوكالة السفر التي تعمل فيها. قيل له إن روزاليند موجودة في مدغشقر، في رحلة كشفيّة؛ وأعطوه رقم فاكس فندق في تاناناريف.

كتب برقية تقول: «لقد أصابني ولوسي سوء حظ. سيارتي سُرِقَتْ، ونشب شجارٌ أصابني منه طرف. لا شيء خطير ـ كلانا بخير، وإن كنا قد تأثّرنا. فكّرتُ في أن أُعلِمَكِ في حال انتشرت الشائعات. آمل أن تكوني بخير». أعطى الصفحة إلى لوسي لتوافق عليها، ثم إلى بف شو لترسلها. كانت موجّهة إلى روزاليند في مجاهل أفريقيا.

لم تكن حالة لوسي تتحسّن. كانت لا تنام الليل، وتدّعي أن النوم يجافيها؛ ثم يجدها في فترات بعد الظهر نائمة على الأريكة، وإبهامها في فمها كطفلة. كانت قد فقدت شهيتها إلى الطعام وكانت مهمته أن يغريها بالأكل، وذلك بطبخ أطباقٍ غير تقليدية لأنها ترفض أن تأكل لحماً.

ليس لهذا جاء إلى هنا ـ لكي يُحْشَر ما وراء الأفق، ويدفع عنه الشياطين، ويرعى شؤون ابنته، ويُعنى بمشروع نافق. إن كان قد قَدِمَ إلى هنا من أجل أي شيء فذلك لكي يلملم شتات نفسه، لكي يستجمع قواه. إنه هنا يضيّع يوماً بعد يوم.

إن الشياطين لا يمرّون به. كان يتراءى له في كوابيسه أنه يتمرّغ على سرير من الدماء، أو يفرّ هرباً من صاحب الوجه الصقري الشبيه بقناع بنين(1)، أو توت عنخ آمون، لاهثاً، صارخاً، صراخاً أخرس. وذات ليلة، أخذ يجرِّد سريره من الأغطية، بل لقد قَلَبَ الحشيّة رأساً على عقب، بحثاً عن بقع، وكأنه مُسرْنَم أو معتوه.

لا زال أمامه إنجاز مشروع بايرون. ومن بين الكتب التي أحضرها معه من كيب تاون لم يبق غير مجموعتين من الرسائل ـ أما البقية فكانت موجودة في صندوق السيارة المسروقة. والمكتبة العامة في غرامستاون لا تقدِّم إلا منتخباتٍ من القصائد. ولكن هل هو بحاجة إلى مزيد من القراءة؟ ماذا يريد أن يعرف أيضاً عن الطريقة التي أمضى بها بايرون وصاحبته وقتهما في

(1) بنين: دولة في غرب القارة الأفريقية.

رافينا القديمة؟ أما بات في إمكانه الآن أن يبتكر صورة لبايرون أقرب إلى بايرون الحقيقي، وأخرى لتيريز أيضاً؟.

الحق يقال، منذ أشهر وهو يُرجئ تلك اللحظة: اللحظة التي سيتوجّبُ عليه عندها أن يواجه الصفحة الفارغة، ويضرب النغمة الأولى، ويرى ماذا يساوي. ثمة نثراتٌ مطبوعة للتو في ذهنه عن ثنائيّ العاشقين، الأبيات المغنّاة، لصوتيّ السوبرانو والتينور، يلتفّان بلا كلمات ويتقابلان كأفعوانين. نغمٌ بلا ذروة؛ همسُ الزواحف يصعد على درج رخاميّ، وصوت الباريتون للزوج المُهان يخفق في الخلفية. أيكون هذا المكان هو الذي سيخرج فيه الثلاثي الغامض إلى حيّز الحياة: ليس في كيب تاون وإنما في كافراريا[1] القديمة؟.

(1) كافراريا: منطقة في جنوب أفريقيا، ضُمّتْ إلى منطقة الكيب.

خمسة عشر

رُبِطَ الخروفان طوال النهار بجوار الإسطبل في بقعةٍ جرداء من الأرض. وكان ثغاؤهما، الثابت والرتيب، قد بدأ يزعجه. اقتربَ من بتروس، الذي كان قد قلب درّاجته رأساً على عقب وانهمك في إصلاحها. قال: «ألا تعتقد أن في إمكاننا أن نربط هذين الخروفين حيث يمكنهما أن يرعيا؟»

قال بتروس: «إنهما من أجل الحفل. في يوم السبت سوف أذبحهما من أجل الحفل. أنت وابنتك يجب أن تحضرا». مسحَ يديه حتى نظّفهما. «إنني أدعوك ولوسي لحضور الحفل».

«يوم السبت؟».

«نعم، سوف أقيمُ حفلاً في يوم السبت. حفلاً كبيراً».

«شكراً لك. ولكن حتى لو كان الخروفان ما يزالان مربوطين، ألا تعتقد أن في إمكانهما أن يرعيا؟

بعد مرور ساعتين من الزمن كان الخروفان ما يزلان مربوطين، ما يزالان يثغوان بكآبة. ولم يعثر على بتروس في أي مكان. حلَّهما، ساخطاً، وسحبهما إلى جوار السد، حيث العشب وافرٌ.

أطال الخروفان في شرب الماء، وبعد ذلك بدأا بالرعي على راحتهما. كانا من النوع الفارسيّ الأسود لون الوجه، متشابهين في الحجم، وفي العلامات المميّزة، وحتى في حركاتهما. توأم، في الغالب، كُرِّسا منذ

ولادتهما لسكّين الجزّار. حسن، لا شيء مميّزاً في ذلك. متى مات خروف من طول العمر آخر مرة؟ الخرفان ليست ملكاً لنفسها، لا تملك حياتها. إنها توجد لتُستخدَم، حتى آخر قطعة منها، لحمها يؤكل، وعظامها تُسحق وتُطعم للدواجن. لا شيء منها يفلت، ما عدا، اللهم، المرارة، فهي لا تؤكل. كان على ديكارت أن يفكّر في ذلك. الروح، معلّقة في الظلام، مُرَّة، مختبئة.

قال للوسي: «دعانا بتروس لحضورِ حفلٍ، لماذا يبذّر على حفل؟».

«أعتقد أنه بسبب انتقال ملكيّة الأرض. سوف تنتقل إليه رسمياً في أول الشهر القادم. إنه يومٌ مشهودٌ بالنسبة إليه. علينا على الأقل أن نُثبِتْ وجودنا، ونأخذ لهما هدية».

«سوف يَذبَح الخروفان. لم أكن لأعتقد أن أي خروفين سيذهبان بعيداً».

«بتروس بخيل. في أوقات سابقة كان يذْبَحَ ثوراً»

«أظن أني لا أحب تصرفاته ـ يحضر حيوانين للذبح إلى البيت ليعرِّفهما إلى الناس الذين سيأكلونهما».

«ماذا كنت تفضّل؟ أن يتمّ الذبح في مسلخٍ، لكي لا تتذكَّر ما يجري؟».

«نعم».

«استيقظ يا ديفيد. هذا ريف. وهذه أفريقيا».

أصبحتْ تشوبُ كلام لوسي في تلك الأيام فظاظة لم يكن يرى لها مبرراً. وكانت إجابته المعتادة هي الصمت. وكانت تمرُّ عليهما فترات يكونان أشبه بغريبين يعيشان في بيتٍ واحد.

قال لنفسه إنه يجب أن يصبر، وإن لوسي ما تزال تعيش في ظل

الاعتداء، وإنه يجب أن يمرّ بعض الوقت قبل أن تعود إلى طبيعتها. ولكن ماذا لو كان مخطئاً؟ ماذا لو أن المرءَ، بعد مثلِ ذلك الاعتداء، لا يعود أبداً إلى طبيعته؟ ماذا لو أن اعتداءً كذاك يحوِّلُ الإنسانَ إلى شخصٍ مختلف وأكثرَ تشاؤماً بكثير؟.

كان هناك تفسير أشدّ شؤماً لمزاج لوسي، تفسيرٌ لم يستطع أن يطرحه من تفكيره. سألها، في ذاك اليوم بالذات، وبدون مقدمات «لوسي، هل تُخفين عني شيئاً؟ هل التقطتِ شيئاً من أولئك الرجال؟».

كانت جالسة على الأريكة مرتدية بيجاما ومبذلاً، وتلعبُ مع القطة. الوقت تجاوز الظهيرة. القطة صغيرة، ونشطة ومضحكة. وكانت لوسي تدلّي حزام المبذل أمامها، والقطة توجِّه صفعاتٍ إلى الحزام، من مخلبها السريع والرشيق، واحد ـ اثنان ـ ثلاثة ـ أربعة.

قالت: «رجال؟ أي رجال؟». حرَّكت الحزام بسرعة إلى الجهة الأخرى؛ فاندفعت القطة باتجاهه.

أتقول أي رجال؟ توقَّف قلبه. أجُنَّتْ؟ أترفض أن تتذكَّر؟.

ولكن، اتضح أنها كانت فقط تضايقه. «ديفيد، أنا لم أعد طفلة. لقد زرتُ طبيباً، وأجريتُ فحوصاً، فعلتُ كل ما يمكن فعله. لم يبقَ أمامي إلا أن أنتظر».

«فهمت. وبكلمة «أنتظر» تقصدين أن تنتظري ما أعتقد أنك تعنين؟».

«نعم».

«كم سيستغرق ذلك من وقت؟».

هزَّت كتفيها جهلاً، «شهراً. ثلاثة أشهر. أكثر. إن العلم لم يتوصّل بعد إلى تحديد كم من الوقت على المرء أن ينتظر. إلى الأبد، ربما».

قفزت القطة قفزة سريعة إلى الحزام، لكن اللعبة عندئذ كانت قد انتهت.

جلس إلى جانب ابنته؛ قفزت القطة عن الأريكة، ومشت بتشامخ مبتعدة. تناول يدها. الآن وقد أضحى قريباً منها، وصَلتْهُ منها رائحة ابتذال، وقذارة، واهنة. قال «على الأقل يا عزيزتي لن تنتظري إلى الأبد. على الأقل ستوفرين على نفسك هذا».

* * *

أمضى الخروفان بقية اليوم بالقربِ من السدِّ حيث ربطهما. وفي صباح اليوم التالي أعيدا إلى البقعة الجرداء بجوار الإسطبل.

لعلَّ أمامهما حتى حلول صباح يوم السبت يومان. بدا ذلك طريقة بائسة لقضاء آخر يومين من الحياة. إنها الطرق الريفية ـ كما كانت لوسي تطلق عليها. كانت لديه مرادفات أخرى: لامبالاة، قسوة قلب. إذا كان في استطاعة الريف أن يحكم على المدينة، فإن المدينة تستطيع أن تطلق حكمها أيضاً على الريف.

فكّرَ في أن يشتري الخروفين من بتروس. ولكن ماذا سيحقِّقُ ذلك؟ كل ما سيفعله بتروس أن يستخدم نقودهما لشراء ذبائح جديدة، ويضع فرق السعر في جيبه. وعلى كل حال، ماذا سيفعل بالخروفين، بعد أن يشتريهما ويعتقهما؟ أيطلقهما في الشارع العام؟ أم يضعهما في حظيرةِ أقفاصِ الكلاب ويعلفهما تبناً؟.

بدا أن رباطاً قد جمع بينه وبين الخروفين الفارسييّن، لم يدرِ كيف. ذلك الرباط لم يكن عاطفة. بل لم يكن رباطاً مع تينك الاثنين بالذات، اللذين ما كان لينتقيهما من بين قطيع منهم في حقل. ومع ذلك، فجأة وبدون سبب مفهوم، أصبح لمصيرهما أهمية عنده.

وقف أمامهما، تحت أشعة الشمس، ينتظر أن يهدأ الطنين في رأسه، ينتظر إشارة.

كانت هناك ذبابة تحاولُ أن تزحفَ إلى داخل أُذُن أحدهما. انتفضتْ الأذن، وطارت الذبابة، وحامت، ثم عادت واستقرَّت عليها. فانتفضت الأُذُن من جديد.

خطا خطوة إلى الأمام، فتراجع الخروف مبتعداً باضطراب إلى آخر مدى سلسلته.

تذكَّرَ كيف كانت بف شو تحكُّ أنف التيس العجوز ذي الخصية الفاسدة، وتداعبه، وتواسيه، وتتغلغل إلى حياته. كيف تنجح في التواصل مع الحيوانات هكذا؟ في الأمر حيلة لا يملكها. لعل على المرء أن يكون من نوع خاص، وأقلّ تعقيداً.

لسعَتْ الشمسُ وجهَه بأشعتها الربيعية. قال في نفسه، أيجدر بي أن أتغيَّر؟ أينبغي أن أصبح مثل بف شو؟.

تحدّثَ إلى لوسي. «كنتُ أفكر في أمرِ حفلةِ بتروس. وبشكل عام، أفضِّل ألا أذهب. أيمكن هذا بدون أن أبدو فظّاً؟».

«هل لهذا علاقة بذبح الخروفين؟».

«نعم. لا. لم أغيِّر فكري، إن كان هذا ما تعنين. ما زلت لا أصدّق أن للحيوانات حيوات شخصية لائقة. ولا يحزنني أيُّها يعيش أو أيُّها يموت. ولكن...».

«ولكن؟».

«لكن هذه القضية تزعجني. لا أدري لماذا».

«حسن، إن بتروس وضيوفه حتماً لن يتخلّوا عن شرائح لحم الغنم مراعاة لك ولحساسيتك».

«ليس هذا ما أطلب. كنت فقط أفضّل ألا أكون مشتركاً في الحفل، ليس هذه المرة. أنا آسف. لم أتخيَّل قط أن الأمر سينتهي بي إلى التحدُّث بهذا الأسلوب».

«إن الله يتحرَّك بطرقٍ غامضة يا ديفيد».

«لا تسخري مني».

* * *

يوم السبت يلوح في الأفق، يوم التسوّق. سأل لوسي «هل سننصب الكشك؟». هزّت كتفيها استخفافاً. قالت: «قرِّر أنت». فلم ينصب الكشك.

لم يناقش قرارها: في الواقع لقد ارتاح له.

بدأت الاستعدادات لاحتفالات بتروس عند ظهيرة يوم السبت مع وصول عصبةٍ من النسوة بقوة نصف دزينة، يرتدين ما بدا له أنها ملابس التوجّه إلى الكنيسة المبهرجة. وخلف الإسطبل أضرموا ناراً. وسرعان ما حملت الريح نتانة فضلات الذبائح المغليّة، استدلّ منها على أن العمل قد تمَّ، العمل المضاعف؛ أن كل شيء قد انتهى.

أيجب أن يحزن؟ هل من اللائق أن يحزن على مخلوقات لا تمارس الحزن فيما بينها؟ وعندما فتّش في قلبه لم يجد إلا حزناً مبهماً.

قال في نفسه، إننا قريبون، بل شديدو القرب من بتروس. وكأننا نتقاسم المنزل مع غرباء، نتقاسم الضجيج، والروائح.

قرع باب لوسي. سألها «هل ترغبين في التمشي؟».

«لا، شكراً. اخرج مع كيتي».

خرج مع الكلبة، لكنها كانت شديدة بطء الخطى ومتجهّمة حتى أن

أعصابه توتّرت، فأسرع بإعادتها إلى المزرعة، ثم انطلق في دورةٍ مسافتُها ثمانية كيلو مترات، بخطى سريعة محاولاً أن يُرهِقَ نفسه.

عند الساعة الخامسة بدأ الضيوف بالتوافد، بالسيارات الخاصة، وسيارات الأجرة، وسيراً على الأقدام. كان هو يراقبهم من خلف ستارة المطبخ. معظمهم كان من جيل مضيفهم، رصينين ومتيني البنية. وكانت هناك امرأة عجوز دار حولها لغطٌ كثير: وجاء بتروس، ببزّته الزرقاء اللون وقميصه الورديّ المبهرج، على طول الممر ليرحِّب بها.

لم يظهر الشبان إلا بعد هبوط الليل. وتناهت عبر الأثير همهمات الأحاديث، والضحكات والموسيقى، موسيقى مصحوبة بجو جوهانسبرغ الذي عرفه شاباً. قال في نفسه، جوٌّ مقبولٌ تماماً ـ بل إنه جميل حقاً.

قالت لوسي: «حان وقت الذهاب. ألن تأتي؟».

على غير عادتها، ارتدت ثوباً يصل طوله حتى الركبة وانتعلت حذاءً بكعبٍ عالٍ، ووضعت قلادة من الحبّات الخشبية الملوّنة وقرطاً يتماشى معها. لم يعجبه الأثر الذي تركه فيه.

«حسن، سآتي. أنا جاهز».

«أليست لديك بزّة رسمية هنا؟».

«لا».

«إذن ضع على الأقل ربطة عنق».

«حسبتُ أننا موجودون في الريف».

«وهذا سبب إضافي للتأنُّق. إنه يوم مشهود في حياة بتروس».

حملت معها مصباحاً صغيراً على البطارية، وراحا يسيران على الدرب المؤدي إلى منزل بتروس، الأب والابنة ذراعاً بذراع، هي تنير الطريق، وهو يحملُ هديتها.

عند الباب المفتوح توقّفا، مبتسمين. لا أثر لبتروس، لكن فتاةً صغيرة بثوبِ الحفلة تقدّمت وقادتهما إلى الداخل.

الإسطبل القديم كان بلا سقف وبلا أرضية جيدة، لكنه على الأقل كان رحباً وعلى الأقل كان مزوّداً بالكهرباء. والمصابيح المظلّلة واللوحات التي تغطي الجدران (لوحة «عبّاد الشمس» لفان غوخ، و «سيدة بثوبٍ أزرق» لتريتشكوف، وصورة جين فوندا وهي بلباس بارباريلا، وصورة الدكتور كومالو وهو يسجّل هدفاً) رقّقتْ المشهد الكئيب.

كانا الوحيدين من البيض. كان الناس يرقصون على وقع موسيقى الجاز الأفريقي العتيق الطراز التي سبق أن سمعها. كانت النظرات الفضولية تنهال عليهم، أو ربما على غطاء رأسه فقط.

كانت لوسي تعرف بعض النسوة. وبدأت بعملية التعريف. ثم ظهر بتروس إلى جانبه. لم يكن يلعب دور المضيف المتحمّس، فلم يقدّم لهما مشروباً، لكنه قال «لم يعد هناك كلاب. لم أعد سائس كلاب». فقبلت لوسي كلامه على أنه مزحة؛ وهكذا بدا أن كل شيء على ما يرام.

قالت لوسي «لقد أحضرنا لك شيئاً، ولكن ربما من الأفضل أن تقدِّمه إلى زوجتك. إنه غرضٌ للمنزل».

استدعى بتروس زوجته من منطقة المطبخ، إذا صحَّ وصفها هكذا. كانت تلك أول مرة يشاهدها عن قرب. كانت شابة ـ أصغر سناً من لوسي ـ وجهها أقرب إلى أن يكون لطيفاً منه جميلاً، وحييّة، وحبلى بوضوح. صافحت يد لوسي، لكنها لم تصافحه هو، ولا نظرت إليه.

تفوّهتْ لوسي بضع كلمات بلغة زوسا وقدّمت لها الهدية. عندئذ كان قد تحلّقَ حولهم عدد من المتفرجين.

قال: بتروس «يجب أن تفتحها».

قالت لوسي: «نعم، يجب أن تفتحيها».

فتحت الزوجة الشابة اللفافة، بعناية، خشية أن تمزِّق الورقة المزوّقة بما عليها من رسومِ آلات الماندولين وعساليج الغار. كانت تضمّ قطعة قماشٍ على طراز أشانتي جميل. همست بالإنكليزية: «شكراً لكما».

شرحتْ لوسي لبتروس: «إنه مفرش للسرير».

قال بتروس: «إن لوسي هي المُحسِنةُ إلينا»؛ ثم قال للوسي : «أنتِ المُحسِنةُ إلينا».

وجدها كلمة بغيضة، ذات حدّين، أفسدت اللحظة. ولكن هل يُلامُ بتروس؟ إن اللغة التي يستخدمها بثقة كبيرة هي، لو أنه يعرفها، مبتذلة، هشة، نخرة من الداخل وكأنما من النمل الأبيض. وحدها المقاطع المفردة كان يمكن الاعتماد عليها، وحتى ليس كلها.

ما العمل؟ لا شيء، حسبما يرى هو، الذي كان ذات يوم مدرّس مادة الاتصالات. لا أحد يتأخر عن البدء من الصفر في التعلُّم. وفي الوقت الذي ستعود الكلمات الكبيرة منظّمة، ونقيّة، وتستعيدُ الثقة بها من جديد، سيكون قد مات منذ زمنٍ بعيد.

أخذ يرتعش، وكأن إوزّة وطأتْ قبره.

سأل زوجة بتروس: «والطفل ـ متى تتوقعين ولادة الطفل؟».

نظرت إليه غير فاهمة.

تدخّل بتروس: «في تشرين أول. الطفل سيأتي في تشرين أول. نتمنى أن يكون صبيّاً»

«أوه. وما مأخذك على البنات؟»

قال بتروس «إننا نصلي كي نحصل على صبي. دائماً من الأفضل أن يكون المولود الأول صبيّاً. بعد ذلك يمكنه أن يفتح الطريق لأخواته ـ لكي يبيّن لهنَّ حسن السلوك. نعم»، وسكت، «الفتاة تكلِّفُ كثيراً»، وحكّ الإبهامَ بالسبابة «دائماً النقود، النقود، النقود».

منذ زمن بعيد لم ير هذه الإيماءة. أيام زمان كانت تُستخدم لتدلَّ على اليهود: نقودـنقود ـ نقود، مع ميلان الرأس نفسه ذي الدلالة. لكن لعلَّ بتروس بريء من تلك الخصلة من التراث الأوروبي.

علّقَ قائلاً «الصبيان أيضاً يمكن أن يكونوا مُكلِفين»، مدلياً بدلوه في المحادثة.

تابع بتروس، بالوتيرة نفسها، وقد كفَّ عن الإصغاء «يجب أن تشترى لهنَّ هذا الشيء، وتشتري لهن ذاك» الآن، في هذه الأيام، الرجل لا يدفع للمرأة. أما أنا فأدفع. وحامت يده فوق رأس زوجته؛ فأغضت عينيها خفراً. «أنا أدفع. لكن هذا لم يعد مألوفاً، الملابس، الأشياء الجميلة، كله سواء: ادفع، ادفع، ادفع»، وكرّر حركة حكِّ الإصبعين. «لا، الصبي أفضل. ما عدا ابنتك، ابنتك مختلفة. ابنتك جيدة كالصبي. تقريباً!»، وضحك على مزحته. «هيه، لوسي!»

ابتسمت لوسي، لكنه يعلم أنها مُحرجة. غمغمت «سأذهب لأرقص»، وابتعدت.

في الحلبة رقصت وحدها على أساس المبدأ القائل لا وجود لشيء إلا الأنا، والذي يبدو أنه رائج. وسرعان ما انضمَّ إليها شاب. ممشوق الطول، سائب الأطراف، أنيق الملبس. رقص قبالتها، وهو يفرقع بأصابعه، وينفحها ابتسامته المشرقة، ويغازلها.

بدأت النسوة تدخل من الخارج، حاملة صواني اللحم المشوي، وعَبَقَ الهواءُ بالروائح الشهية. تدفّقت فرقة جديدة من الضيوف، من الشبان، الضاجّين، المملوءين حيوية، وأبعد ما يكونون عن التزمت. وأخذت الحفلة تصل إلى ذروتها.

شقَّ صحن من الطعام طريقه إلى يديه. فمرّره إلى بتروس. فقال بتروس: «لا ـ إنه لك. وإلا أمضينا الليل كله ونحن نمرّر الأطباق بيننا».

كان بتروس وزوجته يمضيان معظم الوقت بصحبته، ويجعلانه يشعر بالألفة. قال في نفسه، أناس لطفاء، هؤلاء القرويون. مدَّ نظرته إلى لوسي. عندئذ لم يكن الشاب الراقص يبعد عنها إلا بمقدار بضعة إنشات، كان يرفع ساقيه عالياً ثم يضربهما على الأرض مع صوت مكتوم، ويضخّ ذراعيه، مستمتعاً بنفسه.

كان الصحن الذي يحمله يحتوي على شريحتين من لحم الغنم، وحبّة بطاطا مشوية، ومقدارَ مغرفة من الأرز يسبح في مرَق اللحم، وشريحة من اليقطين. عثر على مكانٍ يجلس فيه، مع رجل عجوز نحيل ذي عينين روميّتين[1]. قال لنفسه، سآكل هذا. سآكله وأطلب الغفران لاحقاً.

ثم إذا بلوسي تصبح إلى جانبه، متلاحقة الأنفاس، ووجهها مشدود. قالت «هلاّ غادرنا؟ إنهم هنا».

«هُمْ مَنْ؟».

«رأيت واحداً منهم هناك في الخلف. ديفيد، لا أريد أن أثير شغباً، ولكن هلاّ غادرنا على الفور؟».

«امسكي هذا»، وأعطاها الصحن، ثم خرج من الباب الخلفي.

كان في الخارج من الضيوف تقريباً بقدر ما يوجد في الداخل، متكتّلين حول النار، يتحدّثون، يحتسون الشراب، يضحكون. ومن الطرف الأبعد للنار كان أحدهم يرميه بنظرة حادّة. وعلى الفور تأكّدَ من الأمر. إنه يعرف ذاك الوجه، يعرفه جيداً. واقتحم طريقه بين الأجساد. قال في نفسه: «*سوف أثير شغباً. من المؤسف أن يحدث هذا في هذا اليوم دون غيره. لكن بعض الأمور لا تحتمل الانتظار*».

وقف بثباتٍ أمام الفتى. إنه ثالثهم، المبتدئ ذو الوجه الكليل، الكلب الهارب. قال بتجهُّم «أنا أعرفك».

---

(1) العين الرومية: هي العين التي ترشح ـ من الزكام عادة.

لم يبدُ أن الفتى قد أجفلَ. على العكس، بدا كأنه كان ينتظر تلك اللحظة، يعدُّ نفسه لها. الصوت الذي انبثق من حنجرته كان مفعماً بالحنق. قال «مَنْ أنت؟». لكن الكلمتين كانتا تنطويان على معنى آخر: *بأي حق أنت هنا؟*. كان جسمه كله يشعُّ بالعنف.

ثم انضمَّ بتروس إليهما، وهو يتكلَّم بسرعة بلغة الروسا.

وضعَ يده على كُمْ بتروس: «أتعلم مَنْ يكون هذا؟».

قال بتروس بغضب: «لا، لا أعلم ما الأمر، لا أعلم ما المشكلة. ما المشكلة؟».

«هذا ـ هذا السفّاح ـ كان هنا من قبل، مع صاحبيه. إنه واحدٌ منهم. ولكن دعه هو يخبرك ما الأمر. دعه هو يخبرك لماذا هو مطلوب من الشرطة»

صرخَ الفتى : «هذا غير صحيح!». ومن جديد وجّه كلامه إلى بتروس، سيلاً من الكلمات الغاضبة. واستمرت الموسيقى تتغلغل في هواء الليل، لكن أحداً لم يعد يرقص: كان ضيوف بتروس يحتشدون حولهم، يتدافعون، يحتكّون، يقتحمون. وكان الجو العام ينذر بالشؤم.

تكلّمَ بتروس، قال «هو يقول إنه لا يعلم عمّا تتكلم».

«إنه كاذب. إنه يعلم جيداً. لوسي سوف تؤكّد كلامي».

ولكن طبعاً لوسي لن تؤكّد كلامه. كيف يمكن له أن يتوقع من لوسي أن تبرز أمام هؤلاء الغرباء، وتواجه الفتى، وتشير إليه بإصبع الاتهام، وتقول «*نعم، إنه واحد منهم. كان واحداً من أولئك الذين قاموا بالفعل*»؟.

قال: «سوف أهتف إلى الشرطة».

سرَتْ همهمة استهجان بين الحضور.

كرّرَ القول لبتروس: «سأهتف إلى الشرطة». كانت تعابير وجه بتروس متحجّرة.

عاد إلى الداخل تلفّه سحابة من الصمت، وهناك كانت لوسي واقفة تنتظر. قال «هيا بنا».

أفسح الضيوف الطريق لهما. ولم يعد موقفهم منهما ودّياً. كانت لوسي قد نسيت مصباح البطارية فأضاعا طريقهما وسط الظلام؛ ونزعت لوسي حذاءها؛ وتخبّطا خلال مساكب البطاطا قبل أن يصلا إلى منزل المزرعة.

حمل سماعة الهاتف بيده لكن لوسي أوقفته «ديفيد، لا، لا تفعل. إنها ليست غلطة بتروس. إذا استدعيت الشرطة، سوف تفسد عليه ليلة احتفاله. كنّ عاقلاً».

ذُهِلَ، ذهل إلى درجة أنه التفت إلى ابنته. «لماذا، بحق الله، تقولين إنها ليست غلطة بتروس؟ إنه، بصورة أو بأخرى، هو الذي أحضرَ أولئك الرجال منذ البداية، وها هو الآن يبلغ من الوقاحة بحيث يدعوهم من جديد. فلماذا تطلبين مني أن أكون عاقلاً؟ حقاً يا لوسي، لقد عجزتُ عن فهمكِ من البداية وحتى النهاية. لا أفهم لماذا لم توجّهي تُهماً حقيقية ضدهم، والآن لا أفهم لماذا تحمين بتروس. إن بتروس ليس طرفاً بريئاً. إنه مشترك معهم»

«لا تصرخ في وجهي، ديفيد. هذه هي حياتي. أنا التي ستعيش هنا. وما حدثَ لي هو شأني أنا، شأني وحدي، وليس شأنك، وإن كان لي حقٌّ واحد فهو حقي في ألاّ أتعرّض لمثل هذه التجربة، ألاّ أضطر إلى تبرير نفسي - سواء أمامك، أم أمام أي إنسان آخر. أما عن بتروس، فهو ليس مجرد عامل مستأجَر أستطيع أن أطرده لأنه في رأيي يختلط بالأشخاص غير المناسبين. هذا الوضع انتهى، ذهب مع الريح. وإذا أردتَ أن تعادي بتروس، من الأفضل لك أن تتأكد مما لديك من حقائق. لا يمكنك أن تستدعي الشرطة. أنا لن أقبل. انتظر حتى الصباح. انتظر حتى نسمع القصة من جانب بتروس»

«ولكن في هذه الأثناء سيكون الفتى قد اختفى».

«لن يختفي. بتروس يعرفه. على أي حال، لا أحد يختفي في شرق الكيب. هذا المكان لا يحدث فيه ذلك».

«لوسي، لوسي، أتوسل إليكِ! إنك تعوّضين عن أخطاء الماضي، لكنك لا تفعلين ذلك بالأسلوب الأمثل. إذا فشلتِ في الصمود وحدك الآن، فلن تتمكني من رفع رأسك من جديد. وقد تشدّين الرحال وتغادرين. أما عن الشرطة. إذا كنت من شدّة بالرهافة بحيث لا تستدعيها الآن، فما كان ينبغي عليك أن تورطيها منذ البداية. كان يجب أن نلزم الصمت وننتظر وقوع الاعتداء التالي. أو أن نحزَّ أعناقنا بأنفسنا».

«كفى، ديفيد! لست بحاجة إلى أن أدافع عن نفسي أمامك. *أنت لا تعلم ما حدث*».

«لا أعلم؟».

«لا، أنت لم تبدأ بعد بأن تعلم. توقّف وفكِّر في الأمر. أما بالنسبة إلى الشرطة، دعني أذكّركَ بالسبب الذي دفعنا إلى الاتصال بهم منذ البداية: لكي نحصل على قيمة التأمين: لقد بلّغنا عن الأمر لأننا لو لم نفعل، لما دفعوا لنا قيمة التأمين».

«لوسي، أنت تذهلينني. إن هذا ببساطة غير صحيح، وأنت تعرفين ذلك. أما عن بتروس، فأنا أكرر: إذا ثبتِّ عند هذه النقطة، إذا فشلتِ، فلن تتمكني من أن تعايشي مع نفسك. إن لديكِ واجباً اتجاه نفسك، اتجاه المستقبل، واتجاه احترامك لنفسك. دعيني اتصل بالشرطة. أو اتصلي بهم بنفسك».

«كلا».

كلا: كانت هذه هي آخر كلمة قالتها له. ثم انسحبت إلى غرفتها، وأوصدت الباب في وجهه، أوصدته دونه. لقد كانا يتباعدان، خطوة خطوة، بعناد وكأنهما زوج وزوجة، ولم يكن في الإمكان فعل أي شيء حيال ذلك.

وشجاراتهما نفسها أضحت أشبه بشجارات اثنين متزوجين، واقعَين في فخٍ واحد ولا يستطيعان مبارحة مكانهما. لابد أنها تندم على اليوم الذي جاء فيه ليعيش معها. لابد أنها تتمنى لو يرحل، وبأسرع وقت ممكن.

غير أنها هي أيضاً سيتوجَّب عليها أن ترحل، على المدى الطويل. إن امرأةً تعيش وحدها في مزرعة لا مستقبل لها، هذا واضح. حتى أيام أيتنغر، بمسدساته والأسلاك الشائكة، وأنظمة الأمان، أضحت معدودة. وإذا كانت لوسي تتمتع بأي قدرٍ من الحسّ السليم فسترحل قبل أن يصيبها القَدَرْ بمصابٍ أسوأ من الموت. لكنها طبعاً لن تفعل. إنها عنيدة، ومستغرقة، أيضاً، في الحياة التي اختارتها.

انسلَّ خارجاً من المنزل، يخطو بحذرٍ في الظلام، حتى وصل إلى الإسطبل من الخلف.

كانت النار الكبيرة قد خمدت، والموسيقى توقفت. وكان هناك أناس مجتمعون عند الباب الخلفي، باب جُعِلَ واسعاً بما يكفي ليلج جرَّارٌ منه. أرسل نظره من فوق رؤوسهم.

كان أحد الضيوف يقف في وسط المكان، رجل في منتصف العمر. كان حليق الرأس وثخين العنق، يرتدي بزّة قاتمة اللون وتحيط بعنقه سلسلة من الذهب تتدلّى منها ميدالية بحجم قبضة اليدّ، من النوع الذي يُخلع على رجال العصابات كرمزٍ لمركزهم. رموز تُصكُّ بكميات كبيرة في مسبكٍ في كوفنتري وبرمنغهام: يُطبعُ على أحد وجهيها رأس فيكتوريا المتجهّمة، *Regina et imperatrix*، وعلى الوجه الآخر ثيران أفريقية أو طيور أبو منجل ثائر. ميداليات، ورجالات عصابات، للاستعمال. توزّع إلى كافة أرجاء الإمبراطورية القديمة: إلى ناغبور، وجزر الفيجي، وساحل الذهب، وكافراريا.

الرجل يتكلّم، يتفاصح بلغةٍ بلاغيةٍ منمّقةٍ ومصقولةٍ ترتفع وتنخفض

ولم يفهم ماذا كان الرجل يقول، ولكن كانت تحدث بين حين وآخر فترات صمت وتصدر عن جمهوره همهمة موافقةٍ، بدا أن مزاجاً من الرضى الهادئ يخيّم عليهم، شباناً وشيباً.

تلفّتَ حوله. كان الفتى واقفاً في مكانٍ قريب، عند الباب من الداخل. تحرّكت عينا الفتى بسرعة وعصبيّة واستقرتا عليه. عيون الآخرين التفتت إليه أيضاً: إلى الرجل الغريب، الغريب الأطوار. عبس الرجل ذو الميدالية، وتلعثمَ قليلاً، ثم رفع صوته.

أما هو، فلم يأبه لما أثاره من انتباه. قال في نفسه، فليعلموا أني ما زلت هنا، فليعلموا أني لا أتوارى في المنزل الكبير. وإذا ما أفسد ذلك جمعهم، فليكن. رفع يده إلى غطاء رأسه الأبيض. ولأول مرة شعر بسعادة لأنه يضعه، يعتمره بوصفه ملْكاً خاصاً له.

ستة عشر

ظلّتْ لوسي تتفاداه طوال فترة صباح اليوم التالي. اللقاء الذي وَعَدَتْ بحصوله مع بتروس لم يتم. ثم خلال فترة بعد الظهر قرع بتروس نفسه الباب الخلفي. يبدو عليه الانشغال كالمعتاد، ويرتدي جزمة وسترة سرواليّة. قال إنه حان الوقت لمدّ المواسير. أراد أن يمدّ مواسير PVC من سد التخزين إلى موقع منزله الجديد، مسافة مائتيّ متر. هل يستطيع أن يقترض بعض الأدوات، وهل يمكن لديفيد أن يمدّ له يد العون في ترتيب المنظِّم؟.

«لا أعرف أي شيء عن المنظِّمات. ولا أعرف أي شيء عن أعمال السمكرة».

لم يكن في مزاجٍ يسمح له أن يساعد بتروس.

قال بتروس: «إنه ليس سمكرة. إنه تمديد مواسير. مجرد وضع مواسير».

في طريقهما إلى السدّ تحدّث بتروس عن أنواع المنظّمات المختلفة، وعن صمامات الكبس، والوصلات؛ كان يلفظ الكلمات منمّقة، مستعرضاً تضلّعه. قال، إن الماسورة الجديدة ستمرّ من أرض لوسي؛ وأنها أحسنت بسماحها ذلك، فهي *بعيدة النظر. إنها سيدة بعيدة النظر، وليست قصيرة النظر*.

أما عن الحفل، وعن الفتى ذي العينين المرفرفتين، فلم يذكر بتروس أي شيء. وكأن شيئاً لم يحدث.

سرعان ما اتضح دوره عند السد. إن بتروس لا يحتاج إلى نصيحته حول مدّ المواسير أو السمكرة، وإنما ليحمل الأغراض، ليناوله الأدوات - ليكون صبّيه، في الواقع. ولا اعتراض له على الدور. إن بتروس عاملٌ جيد، ومراقبته أثناء العمل تثقيف بدّ ذاته. ولكن ما بدأ يكرهه هو بتروس نفسه. فبينما كان بتروس يتكلم برتابة على خططه، أخذ يزداد برودة باطراد اتجاهه. إنه لا يتمنّى أن يجد نفسه على أرضٍ جزيرة نائية وحده مع بتروس. وحتماً لا يرغب في أن يكون زوجاً له. إنه ذو شخصية مهيمنة. لقد بدت زوجته الشابة سعيدة، ولكن تُرى ماذا لديها من حكايات تحكيها.

أخيراً، حين طفح الكيل، قاطعه فجأة. قال: «بتروس، ذاك الفتى الذي كان في منزلك ليلة أمس - ما اسمه وأين هو الآن؟».

خلع بتروس قلنسوته، ومسح جبينه. اليوم يعتمر قلنسوة مدبّبة الرأس عليها شعار سكك حديد وموانئ جنوب أفريقيا الفضّي. يبدو أن في حوزته مجموعة من أغطية الرأس.

قال بتروس، عابساً: «في الواقع يا ديفيد، إن ما تقوله قاس، أقصد أن هذا الفتى لص. إنه شديد الغضب لأنك نعته باللص. هذا ما يقوله للجميع. وأنا، أنا الذي ينبغي أن يحافظ على السلام. لذا فالأمر قاس عليّ أنا أيضاً».

«لا نيّة لدي في إقحامك في القضية يا بتروس. أخبرني باسم الفتى وبمكان وجوده وسوف أنقل المعلومات إلى الشرطة. بعد ذلك نترك أمر التحقيق معه وإحضاره وصديقيه ليمْثُلوا أمام العدالة في مركز الشرطة. أنت لن تتورّط، وأنا لن أتورّط، بل ستكون مسألة تخصُّ القانون».

تمطّى بتروس، غاسلاً وجهه بوهجِ الشمس. «لكن قيمة التأمين سوف توفِّر لك سيارة جديدة».

أكان سؤالاً؟ أم تقريراً؟ أي حيلة يلعبها بتروس؟ قال مبيّناً، وهو يحاول أن يكون حليماً «إن قيمة التأمين لن توفِّر لي سيارة جديدة. وبما أنها تفترض

حتى الآن أنه ليس في الأمر حالة إفلاس وذلك بسبب كثرة حوادث السيارات في البلد، فإن شركة الضمان سوف تمنحني نسبة مئوية من فكرتها هي عن قيمة السيارة القديمة. وهذا لن يكفي لشراء سيارة جديدة. مهما يكن، ثمة مبدأ في الأمر. نحن لن نسمح لشركات التأمين أن تقيم العدل. فهذا ليس عملها».

«لكنك لن تستعيد سيارتك من ذاك الفتى. إنه لا يستطيع أن يعطيك سيارتك، لأنه لا يعرف أين هي. إن سيارتك ضاعت. والأفضل أن تشتري سيارة أخرى بقيمة الضمان، وهكذا يصبح لديك سيارة جديدة».

كيف حدث ووصل به الأمر إلى هذه الطريق المسدودة؟ وحاول طرْقَ مسارٍ جديد. «بتروس، دعني أسألك سؤالاً، هل لك صِلة بهذا الفتى؟».

تابع بتروس، متجاهلاً السؤال «ثم لماذا تريد أن تسلِّم هذا الفتى إلى الشرطة؟ إنه صغير جداً، ولا يمكنك أن توصله إلى السجن».

«إن كان قد بلغ الثامنة عشر يمكن أن يُحاكَمْ. وإذا كان في السادسة عشر يمكن أن يُحكَمْ».

«لا، لا، إنه لا يبلغ الثامنة عشر».

«وما أدراك؟ إنه يبدو لي في الثامنة عشر، بل يبدو أكبر سناً من ذلك».

«أعلم، أعلم! إنه مجرد حَدَثْ، ولا يمكن أن يودَعَ السجن، هذا ما يقوله القانون، لا يودَع الحَدَث السجن، يجب أن تدعه وشأنه!».

بالنسبة إلى بتروس بدا أن هذا الإعلان يحسم النقاش. وهبط ليستقرَّ يتثاقُل على إحدى ركبتيه وبدأ يقوم بربط ماسورة المخرج.

«بتروس، إن ابنتي تريد أن تكون جارة صالحة ـ مواطنة صالحة وجارة صالحة. إنها تحب الكيب الشرقي. تريد أن تبني حياتها هنا، تريد أن تكون على صِلةٍ طيبة مع الجميع. ولكن كيف يمكنها أن تفعل ذلك في وقتٍ هي

غُرضَةٌ في أي لحظة للهجوم على أيدي قطاع طرق ينجون بفعلتهم؟ أنت تفهم ما أعني حتماً!».

كان بتروس يجاهد كي يجعل الربط مناسباً. وظهرت على بشرة يديه شقوق عميقة؛ وكان وهو يعمل يصدر نخيراً خفيفاً؛ لم تظهر عليه أي أمارة على أنه سمع ما قال.

فجأة أعلن: «إن لوسي آمنة هنا، وكل شيء على ما يرام. تستطيع أن تغادرها، هي آمنة».

«لكنها ليست آمنة، بتروس! من الواضح أنها ليست آمنة! أنت تعلم ما حدث هنا في اليوم الحادي والعشرين».

«نعم، أعلم ما حدث. لكنها الآن على ما يرام».

«مَنْ يقول إنها على ما يرام؟».

«أنا أقول».

«أنت تقول؟ وهل ستحميها؟».

«سأحميها».

«أنت لم تحمها في آخر مرة».

كسا الماسورة بمزيدٍ من الشحم.

كرّر القول : «تقول إنك تعلم ما حدث، لكنك لم تحمها آخر مرة. لقد رحلتَ، ثم ظهر السفاحون الثلاثة أولئك، وها أنت الآن تبدو أنك صديق لأحدهم. فماذا يفترض بي أن أستنتج؟».

كانت تلك أقرب نقطةٍ وصل إليها من توجيه اتهامه إلى بتروس. ولكن لم لا؟

قال بتروس: «الفتى ليس مذنباً؛ ليس مجرماً؛ وليس لصاً».

«إن ما أتحدث عنه ليس فقط السرقة. لقد وقعت جريمة أخرى أيضاً، جريمة أفدح بكثير. وأنت تقول إنك تعلم ما حدث. يجب أن تدرك ما أعني».

«إنه ليس مذنباً. إنه صغير السن جداً. وما حدث مجرد خطأ جسيم».

«أنت تعلم؟».

«أعلم»، ودخلت الماسورة. طوى بتروس الملزمة، وشدَّها، ثم نهض واقفاً، واستقام بظهره. «أعلم. أؤكّدُ لك. أعلم».

«أنت تعلم. تعرف المستقبل. بماذا أجيب على هذا؟ لقد قلتَ آخر الكلام. هل ما زلتَ تحتاج إليّ؟».

«لا، الآن بات الأمر سهلاً، الآن لم يعد أمامي إلا أن أُقحِمَ الماسورة إلى الداخل».

* * *

على الرغم من ثقة ديفيد في صناعة الضمان، إلا أنه لم يتّخذ أي خطوة عمليّة لإثبات ذلك، فبدون سيارة كان يشعر أنه سجين المزرعة.

بعد ظهر أحد الأيام أثناء تواجده في المستوصف، أفضى بهمّه لبف شو. قال «إن صِلتي بلوسي ليست على ما يرام. أعتقد أن هذا ليس بالأمر الحسن. إن الآباء والأبناء لم يُخلقوا ليعيشوا معاً. لو أن الظروف عادية لكنت الآن قد انتقلت، عدت إلى كيب تاون. لكنني لا أستطيع أن أترك لوسي وحدها في المزرعة. إنها ليست آمنة. إنني أحاول أن أقنعها بأن تدع العملية لبتروس وتستريح قليلاً. لكنها لا تسمع كلامي».

«على المرء أن يدع أولاده وشأنهم يا ديفيد. لن تستطيع أن تواظب على حراستها إلى الأبد».

«لقد تركت لوسي وشأنها منذ زمن بعيد. كنت أقلَّ الآباءِ حمايةً

لأبنائهم. لكن الوضع الراهن مختلف. إن لوسي بلا مبالغة في خطر. لقد اختبرنا ذلك عملياً».

«سيكون الوضع على ما يرام. سوف يأخذها بتروس تحت جناحه».

«بتروس؟ ما مصلحة بتروس في أخذها تحت جناحه؟».

«إنك تقلِّل من قيمة بتروس. لقد كدحَ بتروس حتى يجعل حديقة السوق[1] تزدهر من أجل لوسي. ولولا بتروس ما وصلتْ لوسي إلى ما هي عليه الآن. أنا لا أقول إنها تدين له بكل شيء، لكنها تدين له بالكثير».

«قد يكون الأمر كذلك. والسؤال هو، ما الذي يدين به بتروس لها؟».

«بتروس رجل صالح وطيب. يمكن الاعتماد عليه.».

«أعتمدُ عليه؟ أنت تظنين لأن لبتروس لحية ويدخّن غليوناً ويحمل عصا، فهو كافيري أصيل. لكن الأمر ليس كذلك مطلقاً. إن بتروس ليس كافيرياً أصيلاً، وأقل من ذلك هو طيب وصالح. في رأيي، هو متلهّف إلى رحيل لوسي. وإذا أردت برهاناً على كلامي لا تذهبي بعيداً وانظري إلى ما حدث للوسي ولي. قد لا يكون أحد بنات أفكار بتروس، لكنه حتماً تعامى عنه، هو حتماً لم يحذّرنا، هو حتماً حرص على ألا يكون موجوداً وقت وقوع الحادث».

دهشت بف شو من لهجته العنيفة. همست «مسكينة لوسي، كم عانت!».

«أنا أعرف ما عانته لوسي. كنت حاضراً».

حدّقت إليه مشدوهة: «لكنك لم تكن موجوداً، ديفيد. هي قالت لي. لم تكن موجوداً».

---

(1) حديقة السوق: حديقة تُزرَع فيها الخضروات لكي تُباعَ في السوق.

لم تكن موجوداً. لا تعرف ما حدث. أصيب بالحيرة. أين، وفقاً لبف شو، ووفقاً للوسي، لم يكن موجوداً؟ أفي الغرفة حيث ارتكب الدخلاء فظاعتهم؟ أتظنان أنه لا يعرف ما الاغتصاب؟ أتظنان أنه لم يشارك ابنته المعاناة؟ ماذا كان يمكن أن يشاهد أكثر مما في مقدوره أن يتخيّله؟ أم أنهما تظنان أنه فيما يخص الاغتصاب لا يمكن للرجل أن يتواجد حيث تكون المرأة؟ مهما كان الجواب، فهو حانق، حانق لأنه يُعامل كدخيل.

* * *

اشترى جهاز تلفزيون بدلاً عن الذي سُرِقَ. وكان في فترات المساء، وبعد تناول طعام العشاء، يجلس مع لوسي جنباً إلى جنب على الأريكة يشاهدان نشرة الأخبار وأيضاً برنامجاً مسلّياً، إذا استطاعا أن يتحمّلاه.

نعم، لقد طال أمد زيارته أكثر مما ينبغي، في رأيه كما في رأي لوسي. سئم الترحال، سئم الإنصات إلى صوت انسحاق الحصى على الدرب. أراد أن يجلس من جديد على طاولة الكتابة خاصته، وأن ينام على سريره هو. لكن كيب تاون بعيدة جداً، تكاد تكون بلداً آخر. وعلى الرغم من نصيحة بف، وعلى الرغم من تطمينات بتروس، وعلى الرغم من عناد لوسي، لم يكن مستعداً للتخلّي عن ابنته. سوف يعيش هنا، في الوقت الحاضر: في هذا الوقت، وفي هذا المكان.

استعاد بصره بشكل تام. وفروة رأسه تسير نحو الشفاء؛ ولم يعد بحاجة إلى الضماد المدهون بالزيت. وحدها الأذن ما تزال بحاجة إلى عناية يومية. إذن صحيح أن الزمن كفيل بشفاء كل شيء. لعل لوسي أيضاً تسير نحو الشفاء، أو إذا لم تكن تشفى فهي تنسى، تشكّلُ نسيج ندب حول ذكرى ذاك اليوم، تغلّفه، وتختم عليه بحيث تستطيع ذات يوم أن تشير إليه بـ«اليوم الذي سُرِقنا فيه»، ولا تفكّر فيه إلا بوصفه اليوم الذي تعرّضا فيه للسرقة.

حاول أن يقضي ساعات النهار في الخارج، تاركاً لوسي كي تتنفّس بحرية في المنزل. عمل في الحديقة؛ وحين كان يناله التعب يجلس عند السد، يراقب مجموعة البط تغوص وتظهر، وهو يتفكّر في مشروع بايرون.

المشروع لا يحرز أي تقدُّم. كل ما استطاع أن ينجز منه شذرات. ما تزال الكلمات الأولى من الفصل الأول تقاومه؛ ما تزال الملاحظات الأولى متملّصة كالتفافات الدخان. أحياناً كان يخشى أن تبدأ شخصيات القصة، التي كانت منذ أكثر من عام رفيقته الطيفيّة، بالتلاشي. حتى أفضلها، مارغريتا كوغني، التي كانت هجمات صوتها الرنّان العميق تنهال على رفيقة بايرون العاهرة تيريزا جيوتشيولي ويؤلمه سماعها، تفلت منه. كان فقدانها يملأه باليأس، يأس كئيب وهادئ وتافه، بالمعيار الكبير، كألم الصداع.

كان يتردّد على مستوصف جمعية الرفق بالحيوان قدر ما يستطيع، متبرعاً بالقيام بأي عمل لا يتطلّب شيئاً من المهارة: كالإطعام، وأعمال التنظيف، والمسح.

كانت الحيوانات التي يعتنون بها في المستوصف من الكلاب في غالبيتها، وتأتي بعدها القطط: بالنسبة إلى الدواجن، بدا أن أهالي قرية د. لديهم معرفة بيطرية تقليدية، وأدويتهم، الخاصة، ومعالجيهم الخاصّين. كانت الكلاب التي تُجلَبْ تعاني من السل، ومن كسور في قوائمها، من عضّات ملوّثة، من الجرَب، من الإهمال، غير المقصود أو الخبيث، من الشيخوخة، من سوء التغذية، ومن طفيليات مِعَويّة، لكنها كانت في الغالب تعاني من خصوبتها. ببساطة لقد كانت أعدادها كبيرة جداً. وعندما يجلب الناس كلباً لا يقولون بصراحة «لقد جلبتُ هذا الكلب لتقتلوه»، ولكن هذا ما كانوا يتوقّعونه: أي أنهم سيتخلصون منه، يجعلونه يختفي، يرسلونه إلى عالم النسيان. وما كانوا يطلبونه في الواقع، هو *losung* (الانحلال) (الألمان دائماً يمدّوننا بكلمة مجرّدة جوفاء بشكل مناسب): أو التصعيد، كما يتصاعد الكحول من الماء، بدون أن يخلّف بقايا، أو مذاقاً.

في أوقات بعد ظهيرة أيام الآحاد كانت أبواب المستوصف تغلق وتوصد بينما هو يساعد بف شو في *losen* (تذويب) حصيلة أسبوع من الكلاب الزائدة. كان يحضرها على دفعات من القفص الموجود في الخلفية فيسوقها أو يحملها إلى المسرح. وتولي بف شو كل منها، خلال ما سيكون دقائقها الأخيرة، انتباهها التام، تمسِّد عليها، تتحدّثُ إليها، تسهِّل موتها. وإذا ما حدث، كما هي العادة، وفَشِلَ الكلبُ في أن يرضخ للسحر، فذلك بسبب وجوده: إنه يُصدر رائحة خطأ (*هي استطاعتها أن تشم أفكارك*)، رائحة الخزي. ومع ذلك، كان هو الذي يثبّت الكلب بينما الإبرة تسير في طريقها ويضرب العقارُ القلبَ وتلتوي القوائم وتعتم العينين.

كان قد حسِبَ أنه سيتعوَّد على الأمر، لكن ذلك لم يحدث. فكلما ساعد في عمليات القتل، ازداد توتُّراً. وفي مساء ذات يوم أحد، وأثناء قيادته سيارة لوسي، اضطر إلى التوقّف على جانب الطريق ليتمالك نفسه، انهمرتْ دموعه على وجهه حتى عجز عن الكفّ: وارتعشت يداه.

لم يفهم ماذا ألمَّ به. فحتى ذلك الحين لم يأبه بالحيوانات إلى حدٍ ما. وعلى الرغم من أنه كان يستهجن الأعمال الوحشية، بصورةٍ مبهمة، لم يكن يعرف إن كان بطبيعته قاسياً أم رقيقاً. إنه ببساطة لا شيء. كان يعتقد أن الذين يُطلب منهم القيام بعملٍ قاسٍ بداعي الواجب، كالذين يعملون في المسالخ، مثلاً، تكتسب أرواحهم صلابة. العادة تقسّي القلب: لابد أن الحال هكذا في أغلب الأوقات، لكنها لا تبدو كذلك في حالته. يبدو أنه لا يتّصف بموهبة القسوة.

كان كيانه كله واقعاً في قبضة ما يحدث في المسرح. لقد اقتنع بأن الكلاب تعرف أن ساعتها قد حانت. فعلى الرغم من الصمت وخلوّ العملية من الألم، على الرغم من الأفكار الجيدة التي تضمرها بف شو ويحاول هو أن يضمرها، وعلى الرغم من الحقائب المُحكمة السدّ التي يربطون داخلها الجثث الحديثة العهد، كانت الكلاب التي في الفناء تشمُّ رائحة ما يجري في

الداخل. ترخي آذانها، وتدلّي أذيالها، وكأنها هي أيضاً تشعر بخزي الموت: ثم تثبّتْ قوائمها، وتجرُّ أو تُدفعْ أو تُحمَل إلى الخارج. وعلى الطاولة يوجِّه بعضها نهشه الضاري ذات اليمين وذات اليسار، وبعضها يعوي بكآبة؛ ولا يجرؤ أي منها على النظر مباشرة إلى الإبرة التي في يد بف، التي تعرف بصورةٍ ما أنها ستسبّب لها ألماً مبرّحاً.

والأسوأ حال بينها هي تلك التي تشمّه وتحاول أن تلعق يده. كان دائماً يكره أن يُلعق، وأول ردّة فعلٍ على ذلك هي أن يسحب يده. لماذا يتظاهر المرءُ بأنه صديق حميم في حين أنه قاتل؟ لكنه يعود فيلين. ما الذي يدفع مخلوقاً يخيّم عليه شبحُ الموت لأن يشعر به وهو يجفل فينفر وكأن ملمسه يثير الاشمئزاز؟ لهذا السبب يدعه يلعقه. إذا أرادت ذلك، تماماً كما تداعبها بف شو وتقبّلها إذا ما تركتها تفعل.

تمنّى ألا يكون قد أضحى عاطفياً. كان يحاول ألا يقيمَ علاقة عاطفية مع الحيوانات التي يقتلها، أو مع بف شو. كان يتجنّب أن يقول لها «لا أعلم كيف تفعلين ذلك» لكي لا يسمعها تجيبه قائلة «لابد من فعله». ولم يصرف النظر عن إمكانية ألا تكون بف شو في أعمق أعماقها ملاكاً محرّراً بل شيطاناً، قد تخفي تحت مظهر الحنوّ قلباً صلباً كقلب جزّار. حاول أن يكون ذا عقلٍ منفتح.

بما أن بف شو هي التي كانت تغرز الإبرة، فإنه هو الذي كان يتولّى التخلُّصَ من البقايا. وفي الصباح التالي لكل جلسة قتل كان يقود سيارة الكومبي المحمّلة إلى فناء مستشفى المستوطنين، إلى المرمد[1]، وهناك يودِع الجثثَ وهي داخل أكياسها السوداء ألسنةَ اللهب.

كان من الأسهل أن ينقل الأكياس فوراً إلى المرمد بعد الجلسة ويترك مهمة التخلُّص منها لطاقم المرمد. لكن ذلك كان سيعني تركها مع بقية

(1) المرمد: مكان إحراق القمامة.

النفاية الأسبوعية: مع نفاية أجنحة المستشفى، والجيفة المرمية على حافة الطريق، ونفاية كريهة الرائحة من المدبغة - مزيجٌ اعتباطيٌ وشنيع. ولم يكن مستعداً أن يعاملها بمثل ذلك التحقير.

لذا، في أمسيات أيام الآحاد كان يُحضِر الأكياسَ إلى المزرعة محمّلة في خلفية سيارة لوسي، ويبقيها هناك سحابة الليل، وفي صباح يوم الاثنين ينقلها إلى الأرض المحيطة بالمستشفى. وهناك يحمّلها على دفعات على عربة التلقيم، ويدير الآلية التي تنقلها خلال البوابة الفولاذية إلى ألسنة اللهب، ثم يشدُّ العتلة ليُفرِغها من محتواها، ويحرِّكه إلى الخلف، في حين يتنحّى العمال، الذين يكون ذلك في المعتاد هو عملهم، جانباً ويراقبون.

في أول يوم اثنين له هناك ترك أمر الحرق لهم. وكانت الجثث قد اتخذت وضع التيبّس خلال الليل، فعلِقَتْ القوائم الميتة في قضبان العربة، ولدى رجوع العربة من رحلتها إلى الفرن، رجع الكلبُ طبعاً معها أيضاً، وقد اسودَّ لونه وارتسم على فمه تكشير، تفوح منه رائحة فرو مسفوع، واحترق كيس البلاستيك كاشفاً عنه. وبعد قليل بدأ العمال بضربِ الأكياس بخلفيات رفوشهم قبل تحميلها، وذلك لكي يكسروا القوائم المتيبّسة. حينئذ تدخّلَ وتولّى العمل بنفسه.

كان المرمد يغذّى بفحم الأنتراسيت، ومزوداً بمروحةٍ كهربائيةٍ لتطرد الهواء من خلال مسرِّبات؛ وخمَّنَ تاريخ بنائه إلى عقد الخمسينات، وقت بناء المستشفى نفسه. وكان يعمل ستة أيام في الأسبوع، من الاثنين وحتى السبت. وفي اليوم السابع يرتاح. وحين يصل العمال ليباشروا عملهم يبدءون أولاً بجرف رماد اليوم السابق، ثم يقدحون النار. وبحلول الساعة التاسعة صباحاً تبلغ درجة حرارة الحجرة الداخلية ألف درجة مئوية، وتكون كافية لتكليس العظام. وتظل النار تذكّى حتى منتصف الفترة الصباحية؛ ويستغرق خمودها فترة بعد الظهر كلها.

لم يكن يعرف أسماء أفراد الطاقم ولا الطاقم يعرف اسمه. كان بالنسبة إليهم الرجل الذي يصل أيام الاثنين حاملاً الأكياس من جمعية الرفق بالحيوان ومنذ ذلك الحين أصبح يصل باكراً باطراد. يأتي، يؤدي عمله، ويرحل؛ لم يكن يُعتبَر جزءاً من المجتمع الذي يشكّل المرمدُ، على الرغم من سياج الأسلاك الشائكة والبوابة المقفلة والملاحظة المكتوبة بثلاث لغات، محورَه.

لما كان السياج قد خُرِقَ منذ زمن بعيد؛ أصبحت البوابة واليافطة ببساطة مهملتين. ومع وصول الممرضين في الصباح مع أولى أكياس نفاية المستشفى، يكون هناك عدد من النساء والأطفال ينتظرون ليفتشوا داخلها بحثاً عن حقن، ودبابيس، وضمادات يمكن غسلها، وكل ما هو صالح للبيع، لكنهم يبحثون بشكل خاص عن حبوب أدوية، يبيعونها لمحلات الـ *muti* أو يتاجرون بها في الشوارع. وكان هناك أيضاً مشرّدون، يتسكّعون حول ملاك المستشفى في النهار وينامون في الليل مستندين إلى جدار المرمد، أو ربما حتى في النفق، طلباً للدفْ.

لم يكن يبغي الانضمام إلى جمعية خيريّة. غير أنه حين يصل إلى هناك يكونون هم موجودون؛ وإذا كان ما يجلبه إلى مقلب النفايات لا يثير اهتمامهم، فذلك فقط لأنهم لا يجدون في أشلاء كلب ما يصلح للبيع أو للأكل.

لماذا قبِلَ القيام بهذا العمل؟ ألكي يخفّف العبء عن كاهل بف شو؟ إن كان هذا صحيحاً فيكفي أن يرمي بالأكياس على مقلب النفايات ويمضي في طريقه، أم إكراماً للكلاب؟ لكن الكلاب ميتة؛ ثم ماذا تعرف الكلاب عن التكريم وعدمه على أي حال؟.

إذن، هو لأجل نفسه. لتحقيق فكرته عن العالم، عالم لا يستخدم فيه الناس رفوشاً لضرب الجثث لتأخذ شكلاً مناسباً لإتمام العمل.

إن الكلاب تُجلَبْ إلى المستوصف لأن لا أحد يريدها: لأن عددنا زائد عن المطلوب. من هنا كان يدخل إلى حياتها. قد لا يكون مخلّصها، الذي لا يجد عددها أكثر من طاقته، لكنه مستعد لأن يعتني بها حالما تصبح عاجزة، عاجزة تماما، ولكي يجعلها تعتني بنفسها، وحالما تنفضُ حتى بف شو يديها منها. كان بتروس قد أطلق على نفسه لقب المعتني بالكلاب. الآن أصبح هو المعتني بالكلاب: حفّار قبور الكلاب، المتعالي على الكلاب؛ الـ *harijan* (المنبوذ؛ النحس).

غريبٌ أن يكرِّس رجلٌ أناني مثله نفسه لخدمة كلاب ميتة. لابد من وجود سُبُلٍ أخرى يهب بها الإنسان نفسه لخدمة العالم، أو لخدمة فكرةِ العالم. يمكن للمرء مثلاً أن يعملَ ساعات أطول في المستوصف؛ يمكنه أن يحاول إقناع الأطفال الموجودين عند مقلب النفايات بالامتناع عن ملء بطونهم بالسموم. حتى الجلوس لأداء عمل أكثر أهمية في وضع كلمات أوبرا بايرون يمكن اعتباره، عند الحاجة، خدمةً للبشرية.

ولكن ثمة أناساً آخرين يقومون بهذه الأعمال ـ كالرفق بالحيوان، أو إعادة التأهيل الاجتماعي، أو حتى العمل على بايرون. لقد كان ينقذ شرفَ الجثثَ لأنه لا يوجد من هو أشدُّ منه حماقة ليفعل ذلك. نعم إنه يغدو أحمق، وسخيفاً وعنيداً.

سبعة عشر

انتهى عملهم في المستوصف ليوم الأحد. والسيارة حُمِّلَتْ بشحنتها من الموتى. كان يقوم بمسحِ أرضِ غرفة العمليات كآخر إجراء.

قالت بف شو، وهي تدخل قادمة من الفناء: «أنا سأقوم بهذا. أنت يجب أن تعود إلى بيتك».

«لستُ مستعجلاً».

«ومع ذلك، لابد أنك متعوِّد على نمطٍ مختلف من الحياة».

«نمط مختلف من الحياة؟ لم أكن أعلم أن للحياة أنماطاً».

«أقصد، أنك لابد تجد الحياة هنا مملّة جداً، لابد أنك تشتاق إلى محيطك الخاص. لابد أنك تشتاق إلى صحبة النساء».

«تقولين، صحبة النساء. حتماً أخبرَتْكِ لوسي عن سبب مغادرتي كيب تاون. إن صحبة النساء لم تجلب لي الكثير من الحظ هناك».

«يجب ألا تقسو عليها».

«أقسو على لوسي؟ لا يخطر ببالي أن أقسو على لوسي».

«ليس على لوسي ـ على الصبيّة التي في كيب تاون. تقول لوسي إنه كانت هناك فتاة صبيّة سبَّبت لك الكثير من المشاكل».

«نعم، كانت هناك امرأة. ولكن كنت أنا مثير المشاكل في القضية. لقد

سبّبت للفتاة المُشار إليها على الأقل بقدر ما سبَّبت هي لي من مشاكل».

«تقول لوسي إنك اضطررت إلى ترك منصبك في الجامعة. لابد أن الأمر كان صعباً عليك. هل أنت نادم؟».

يا له من فضول! غريب كيف تثير نفخةُ الفضيحة النساءَ. هل هذه المخلوقة الضئيلة العادية تظنه عاجزاً عن صدمها؟ أم أن إصابتها بالصعقة هي إحدى واجباتها - كراهبة تستلقي لكي تُغتصب وبذلك تنخفض نسبة الاغتصاب في العالم؟.

«هل أنا نادم؟ لا أدري. إن ما حدث في كيب تاون هو الذي جلبني إلى هنا. وأنا لست تعيساً هنا».

«ولكن آنئذ - هل ندمت آنئذ؟».

«آنئذ؟ تقصدين، في خضم المعمعة؟ طبعاً لا. في خضم المعمعة لم تنتبني أي شكوك. وأنا متأكد من أنك تعلمين هذا».

احمرَّ وجهها. كان قد مرَّ وقت طويل منذ أن رأى امرأة في منتصف العمر تحمرُّ خجلاً بشكل كامل. حتى جذور شعرها.

غمغمت: «ومع ذلك، لابد أنك تجد غرامستاون شديدة الهدوء بالمقارنة».

«لا تهمني غرامستاون. على الأقل أنا بعيد عن سبيل الغواية. ثم إنني لا أقطن في غرامستاون. أنا أعيش في مزرعة مع ابنتي».

بعيدٌ عن سبيل الغواية: قولٌ قاسٍ يقال لامرأة، حتى وإن كانت عاديّة. غير أنها ليست عادية في نظر الجميع. لابد أن بيل شو قد رأى في الضئيلة بف في وقت ما شيئاً مميّزاً. وربما رجال آخرون أيضاً.

حاول أن يتخيّلها وهي أصغر سناً بعشرين عاماً، حين لابد أن الوجه المقلوب على عنقه القصير كان يبدو مفعماً بالحيوية، والبشرة ذات النمش

كانت أليفة وتنضح بالصحة. ومدَّ يده بحركة عفوية ومرّر أصابعه على شفتيها.

أغمضت عينيها لكنها لم تنفر. على العكس، استجابت، وحفّتْ شفتيها على يده ـ بل يمكن القول إنها قبّلتها ـ وكانت طوال الوقت تتضرّج بحُمْرةٍ قانية.

هذا كل ما حدث. أي بقدر ما سمحا لنفسيهما. غادر المستوصف بدون أن يضيف كلمة أخرى. ومن خلفه سمعها تطفئ الأنوار.

بعد ظهر اليوم التالي اتصلت به. قالت: «أيمكن أن نتقابل في المستوصف، عند الرابعة». لم يكن طلباً بل إعلاناً، أُلقيَ بصوتٍ ذات نبرة عالية، مشدودة. وكاد يسألها «لماذا؟». إلا أنه كان حسن الذوق بحيث لم يفعل. غير أنه دُهِشَ. وأقسم على أنها لم تفعل مثل ذلك من قبل. لابد أن براءتها جعلتها تفترض أن البالغين يعقدون علاقاتهم هكذا: أن تتّصل المرأة هاتفياً بمن يلاحقها، تعلن عن استعدادها له.

لم يكن المستوصف يفتح أبوابه أيام الاثنين. دخل، ثم أقفلَ الباب من خلفه. كانت شو في غرفة العمليات، واقفة وظهرها باتجاهه. ضمَّها بين ذراعيه؛ حكّت أذنها على ذقنه؛ وحفّت شفتاه خصلات شعرها الصغير المشدودة. قالت «هناك ملاءات في الخزانة. على الرف السفلي».

كانتا ملاءتين، واحدة وردية اللون، والأخرى رمادية، هرّبتْهما من منزلها امرأةٌ لعلها كانت خلال الساعة المنصرمة قد استحمَّت وتضمّخت بالبودرة، ودهنت نفسها بالزيوت استعداداً؛ امرأة تبودر نفسها وتتمسّح بالزيت في كل يوم أحد، وتخزّن الملاءات في الخزانة، تحسُّباً. امرأة تعتقد، لأنه قادمٌ من المدينة الكبرى، وثمة فضيحة مقرونة باسمه، أنه قد ضاجع عدداً كبيراً من النساء ويتوقّع أن تقبل كل امرأة تصادفه في الطريق أن تضاجعه.

كان عليهما أن يختارا بين طاولة العمليات والأرضية. فرشَ الملاءتين على الأرض، الرمادية اللون من تحت، والوردية فوقها. ثم أطفأ الأنوار، وغادر الغرفة، وتحقق من أن الباب الخلفي مغلق، وانتظر. سمع حفيف ثوبها وهي تتعرّى. بف. لم يحلم قط بأنه سيأتي يومٌ يضاجع فيه بف.

كانت مستلقية تحت الملاءة لا يبدو منها غير رأسها البارز. حتى وسط العتمة لم يكن هناك أي افتتان. أنزل سرواله الداخلي، واندسّ بجانبها، ثم أجرى يديه على طول جسدها. ليس لديها ثديان يستحقان الذكر. كانت قوية البنية، لا يكاد يكون لها خصر، بل ما يشبه الحوض الصغير المنخفض.

قبضت على يده، وأعطته شيئاً. مانعاً للحمل. لقد فكرت في كل شيء مسبقاً، من البداية وحتى النهاية.

كان في إمكانها أن تقول عن مضاجعتهما أنه على الأقل قام بواجبه. بدون شغف ولكن أيضاً بدون نفور. بحيث أن بف شو في نهاية المطاف شعرت برضى. لقد تحقق كل ما أرادت. أُسعِفَ هو، ديفيد لري، كما تُسعفُ امرأة رجلاً؛ أما صديقتها لوسي لري فتلقَّت إسعافاً من زيارةٍ عسيرة.

قال في نفسه، وهو مستلق إلى جانبها بعد أن أنهكت قواهما، يجب ألا أنسى هذا اليوم. هذا ما حصلت عليه، بعد لحم ميلاني آيزاكس الغض واللذيذ. وهذا ما ينبغي أن أتعوّد عليه، هذا وربما أقلّ منه.

قالت بف شو: «تأخّر الوقت. يجب أن أرحل».

أزاح الملاءة جانباً ونهض واقفاً، بدون أن يبذل أي مجهود لستر عورته. قال في نفسه، دعها تحدِّق قدر ما تشاء إلى روميوها، بكتفيه المحنيين وساقيه النحيلين. حقاً تأخر الوقت. في الأفق تبدّى آخر وهج قرمزي، والقمر لاح بعيداً في السمت، وعلق الدخان في الجو؛ وعبر مقطع من الأرض اليباب، ومن الصفوف الأولى من الأكواخ، تناهت همهمات أصوات. عند الباب ضغطت بف نفسها عليه للمرة الأخيرة، وأراحت رأسها على صدره. تركها

تفعل ذلك، تماماً كما تركها تفعل كل ما شعرت أنها بحاجة لأن تفعله. وذهبت أفكاره إلى هذر إيما بوفاري أمام المرآة بعد أن أمضتْ أول فترة بعد ظهر كبيرة. «لدي عشيق! لدي عشيق!»، هكذا أنشدت إيما لنفسها. حسن، دع المسكينة بف شو تعود إلى ببتها لتنشد شيئاً بدورها. وليكفّ عن تسميتها بالمسكينة بف شو. إن كانت هي مسكينة، فهو مُعدَم.

ثمانية عشر

كان بتروس قد استعار جرّارة، لم يعلم ديفيد من أين، ربط إليها المحراث الدوراني القديم الذي كان ملقى صدئاً في خلفية الإسطبل منذ ما قبل ولادة لوسي. وخلال بضع ساعات انتهى من حرث أرضه كلها. كل شيء كان سريعاً وعملياً؛ خليقاً بأفريقيا. سابقاً، فلنقل قبل عشر سنوات، كان يستغرق منه الأمر أياماً طوالاً باستخدام المحراث اليدوي والثور.

أمام هذه النسخة الجديدة من بتروس ماذا تبقّى للوسي من فرص للنجاح؟ كان بتروس قد أتى إليها كحارث للأرض، وحمّالٍ، وساقٍ. أما الآن فهو من كثرة الانشغال بحيث يقوم بمثل تلك الأعمال. أين ستجد لوسي مَنْ يحرث، ويحمّل، ويسقي الأرض؟ لو أن هذا لعبة شطرنج، لقال إن لوسي قد هُزِمَتْ على الجبهات كلها. ولو أنها تتمتع بأي قدرٍ من الحسّ السليم لتركتْ العملَ؛ ولجأتْ إلى البنك العقاري، وأبرمت صفقةً تُنقَل بموجبها ملكية المزرعة إلى اسم بتروس، وعادت إلى الحضارة. كان في وسعها أن تفتح نُزُلاً للكلاب في الضواحي، وتخصّص جناحاً للقطط، بل حتى كان في وسعها أن تعود إلى ما كانت هي وصديقاتها يفعلنه أيام الهيبيز: النسيج العرقي، وزخرفة الفخار العرقي، وصنع السِلال العرقي، وبيع الخرز للسياح.

لقد هُزِمَتْ. ليس صعباً تخيُّل لوسي بعد مرور عشر سنوات: امرأة من الوزن الثقيل يحفر الحزنُ خطوطه على وجهها، ترتدي ثياباً عفا عليها الزمن،

تتكلم مع حيواناتها المدلّلة، وتتناول الطعام وحدها. حياة ليس فيها شيء من الحياة. غير أنها أفضل من تمضية أيامها في خوفٍ من حصول الاعتداء التالي، حين لن تكون الكلاب كافية لحمايتها ولن يردّ أحد على اتصالاتها الهاتفية.

اقترب من بتروس في الموقع الذي اختاره ليبني عليه منزله الجديد، فوق ارتفاعٍ بسيطٍ يشرف على منزل المزرعة. وكان المسّاح قد قام لتوه بزيارته، ووضعت الأوتاد في أماكنها.

سأله: «لا أظنك ستقوم ببنائه بنفسك؟».

قهقه بتروس. قال «لا، إن البناء عمل يحتاج إلى مهارة. وضعُ حجارة البناء، والتلبيس، وما شابه، كلها تحتاج إلى مهارة. لا، سوف أحفر خنادق. هذا العمل أستطيع أن أقوم به بنفسي. وهو لا يتطلّب مهارة، وخليق بصبي صغير أن يؤديه. لكي تقوم بعملِ الحفر عليك فقط أن تكون فتى صغيراً».

قال بتروس هذه الكلمات باستمتاعٍ حقيقي. لقد كان ذات يوم صبياً صغيراً، الآن لم يعد كذلك. الآن يستطيع أن يدّعي أنه كذلك، كما تستطيع ماري أنطوانيت أن تدّعي أنها بائعة حليب.

ثم دخل في صلب الموضوع «إذا رجعنا أنا ولوسي إلى كيب تاون، فهل أنت مستعد أن تدير نصيبها من المزرعة؟ سوف ندفع لك أجراً، أو يمكنك أن تعمل على أساس النسبة المئوية. نسبة مئوية من الأرباح».

قال بتروس: «يجب أن أدير مزرعة لوسي. يجب أن أكون مديراً للمزرعة». نطق الكلمات وكأنه لم يسمعها من قبل، وكأنها قفزت أمامه كما يقفز أرنب من قبعة.

«نعم يمكننا أن نطلق عليك لقب مدير المزرعة إذا أحببت».

«ولوسي ستعود ذات يوم».

«أنا واثق من أنها ستعود. إنها شديدة التعلُّق بهذه المزرعة. ولا نيَّة عندها في أن تتخلّى عنها. ولكنها مؤخراً تمرُّ بظروفٍ صعبةٍ. وتحتاج إلى فترة راحة. إجازة».

قال بتروس: «تقضيها على شاطئ البحر»، وابتسم، كاشفاً عن صفٍّ من الأسنان الصفراء بسبب التدخين.

«نعم، على شاطئ البحر، إذا شاءت». استفزّته عادة بتروس في ترك كلماته معلّقة في الهواء. وفي وقتٍ سابق اعتقدَ أنه يمكن أن يكون صديقاً لبتروس. الآن أصبح يمقته. كان التحدّث إلى بتروس أشبه بنخس كيسٍ مملوء بالرمل. قال «لا أعتقد أن أياً منا مؤهَّل لاستجواب لوسي إذا ما قررتْ أن تأخذ فترة راحة. لا أنت ولا أنا».

«كم من الوقت سأبقى مديراً للمزرعة؟».

«لا أعلم بعد، بتروس. لم أناقش الأمر مع لوسي، إنني فقط أستكشف إمكانية حدوثه، وأرى إن كنتَ توافق».

«ويتوجّب عليّ أداء الأعمال كلها ـ إطعامُ الكلاب، وزرع الخضروات، والذهاب إلى السوق».

«بتروس، لا حاجة إلى سرد القائمة كلها. لن يكون هناك كلاب. إنني فقط أطرحُ سؤالاً عاماً، في حال ذهبت لوسي لقضاء عطلة، هل أنت مستعد للعناية بالمزرعة؟».

«كيف أذهب إلى السوق بدون سيارة؟».

«هذا مجرد أمر ثانوي. يمكننا أن نناقش التفاصيل لاحقاً. أنا فقط أريد جواباً عاماً، نعم أو لا».

هزَّ بتروس رأسه نفياً، وقال «هذا كثير، كثير جداً».

* * *

فجأة جاء اتصال من الشرطة، من الرقيب التحرّي استر هويز في بورت اليزابيث. لقد عثروا على سيارته. إنها في فناء محطة نيو برايتن، ويمكنه أن يتعرّف عليها هناك ويطالب بها. وألقي القبض على رجلين.

قال: «هذا رائع. كدتُ أفقد الأمل».

«كلا، يا سيدي، إن القضية تظلّ مفتوحة مدة سنتين».

«ما هي حالة السيارة؟ أما زالت صالحة للقيادة؟».

«نعم، يمكنك أن تقودها».

توجّه بالسيارة مع لوسي وهو في حالة غير عاديّة من الابتهاج إلى بورت اليزابيث ومنها إلى نيو برايتن، وهناك تَبِعا التوجيهات إلى شارع فان ديفنتر، إلى مركز للشرطة من طابق واحد، أشبه بالحصن، محاط بسياج بعلوّ مترين تعلوه أسلاك شائكة. وكانت هناك إشارات صارمة تمنع ركن السيارات أمام المركز. فركنا في مكانٍ بعيد على الطريق.

قالت لوسي: «سأنتظر في السيارة».

«أهذا ما تريدين حقاً؟».

«هذا المكان لا يعجبني. سأنتظر».

عرَّفَ عن نفسه في مكتب الودائع، ثم دلّوه على طولِ متاهةٍ من الأروقة إلى وحدة سرقة العربات. بحث الرقيب التحرّي استر هويز، الضئيل الأشقر والبدين في ملفّاته، ثم قاده إلى فناء يتوقف فيه عدد من وسائل النقل مركون وجهاً لوجه. وراحا يتنقلان جيئة وذهاباً بينها.

سأل استر هويز: «أين عثرت عليها؟».

«هنا في نيو برايتن. أنت محظوظ. عادة إذا كانت سيارة كورولا عتيقة فإن أولاد الحرام يقطعونها قطعاً».

«قلت إنك ألقيت القبض على بعضهم».

«على اثنين. قبضنا عليهما بعد أن تلقّينا معلومات سرّية. وجدنا أن المنزل مملوء بالمسروقات. أجهزة تلفزيون، وفيديو، وبرادات، وكل ما يخطر ببالك».

«وأين الرجلان الآن؟».

«خرجا بكفالة».

«أما كان من الأعقل لو استدعيتموني قبل أن تطلقوا سراحهما لكي أتعرّف عليهما؟ الآن وقد خرجا بكفالة فسوف يختفيان. أنت تعلم هذا».

لزم التحرّي صمتاً عنيداً.

توقّفا أمام سيارة كورولا بيضاء. قال «هذه ليست سيارتي. سيارتي لها صفائح CA. هذا ما تقوله خلاصة قرار المحكمة»، وأشار إلى العدد المدوَّن على الورقة: CA 507644.

«لقد أعادا رشّها. ووضعا صفائح زائفة. استبدلاها كلها».

«ومع ذلك، هذه ليست سيارتي. هلاّ فتحتها؟».

فتح التحرّي السيارة. فاحت من داخلها رائحة صحف رطبة ودجاج مقلي.

قال: «أنا ليس لدي نظام توزيع الموسيقى. إنها ليست سيارتي. أأنت واثق من أن سيارتي غير موجودة في الفناء؟».

أكملا جولتهما حول أرجاء الفناء. سيارته غير موجودة.

هرَشَ استر هويز رأسه. قال: «سأتقصّى الأمر. لابد أن في الأمر لبساً. اترك رقم هاتفك عندي وسوف أتصل بك».

كانت لوسي جالسة خلف مقود سيارتها، مغمضة العينين. ربتَ على زجاج النافذة ففتحت له الباب. قال وهو يدخل: «الأمر كله خطأ. لديهم سيارة كورولا، لكنها ليست سيارتي».

«أرأيت الرجلين؟».

«الرجلين؟».

«قلت إنه تمَّ إلقاءُ القبض على رجلين».

«لقد خرجا بكفالة. على أي حال، هي ليست سيارتي، لذا كائناً مَنْ كانا اللذان تمَّ القبض عليهما فليسا هما اللذان سرقا سيارتي».

ساد صمتٌ طويل. قالت «أترى أن هذه نتيجة منطقية؟».

شغَّلت محرّك السيارة، ونترت بعنف المقود.

قال: «لم أكن أعلم أنك متحمّسة إلى هذا الحد للقبض عليهما». كان في استطاعته أن يسمع التوتّر في صوته لكنه لم يقم بأي محاولة لكبحه. «إذا تمّ القبض عليهما فهذا يعني محاكمة وكل ما يستتبع ذلك. وسيكون عليك أن تُدلي بشهادتك. فهل أنت مستعدة لذلك؟».

أوقفت لوسي المحرك. جمدت قسمات وجهها وهي تكافح لتكبح دموعها.

«على أي حال، الأثر ضائع، ولن يقبضوا على رجلينا، لن يحصل هذا وحالة رجال الشرطة على ما هي عليه. لذا لننس الأمر».

تمالك نفسه. إنه يغدو مزعجاً، مملاً، ولكن لا مفرَّ من ذلك. «لوسي، لقد حان الوقت فعلاً لتواجهي خياراتك بشجاعة. إما أن تبقي في منزل مملوء بالذكريات البشعة وتظلي تفكرين فيما حدثَ لك، أو أن ترمي كل ما وقع خلفك وتبدئي فصلاً جديداً في مكانٍ آخر. هذان هما، كما أرى، الخياران. أنا أعرف أنك ترغبين في المكوث، ولكن ألا ينبغي عليك على الأقل أن تفكري في السبيل الآخر؟ ألا يمكننا نحن الاثنان أن نتحدث عن الأمر بعقلانيّة؟».

هزّت رأسها نفياً «لم يعد في إمكاني أن أتحدث يا ديفيد، ببساطة لا أستطيع».

قالت هذا بصوت هادئ، وسريع، وكأنها تخشى أن تنضب الكلمات منها. «أعلم أن كلامي غامض، وأتمنى لو أستطيع أن أوضّحه. لكنني لا أستطيع. بسبب ما أنتَ عليه وما أنا عليه، لا أستطيع. أنا آسفة. آسفة من أجل سيارتك. وآسفة بسبب خيبة أملك».

أراحت رأسها على ذراعيها؛ وأخذ كتفاها يجيشان وهي تستسلم.

مرة أخرى غلبته مشاعره: الفتور، واللامبالاة، ولكن أيضاً انعدام الاهتمام، وكأنه تآكل من الداخل ولم يبق من قلبه إلا الصَدَفة المتآكلة. قال في نفسه، كيف يمكن لإنسان في مثل هذه الحالة أن يعثر على الكلمات، وعلى الموسيقى التي تعيد الموتى إلى الحياة؟.

كانت هناك امرأة تجلس على الرصيف لا تبعد أكثر من خمس ياردات، تنتعل خفاً وترتدي ثوباً رثاً ترميهما بنظرات ضارية. وضع يداً حارة على كتف لوسي. قال في نفسه، *يا ابنتي، يا أعز الناس، يا مَنْ كُتِبَ عليَّ أن أقودها. يا مَنْ ستقودني ذات يوم.*

أتستطيع أن تشمَّ أفكاره؟.

كان هو الذي يتولّى القيادة. وفي منتصف الطريق، فوجئ بلوسي تقول له «كان الأمر شخصياً، وقد نُفِّذَ بحقدٍ شخصي. هذا ما أذهلني أكثر من أي شيء. أما الباقي فكان... متوقعاً... ولكن لماذا كانوا يكرهونني إلى ذاك الحد؟ إن عيني لم تكن قد وقعت عليهم قط».

لم ينتظر منها أكثر، ولكن عندئذ لم يكن ثمة المزيد. أخيراً قال: «لقد كان التاريخ يتحدث من خلالهم، تاريخ من الخطأ. فكّري على هذا الأساس، إن استطعتِ. كان يمكن أن يكون الأمرُ شخصياً، لكنه لم يكن كذلك. إنه منحدر من الأجداد».

«إن هذا لا يسهِّل الأمر. الصدمةُ لا تختفي هكذا ببساطة. أقصد، صدمةَ أن أكون هدفاً للحقد. عملياً».

عملياً. هل تعني بهذا ما تعتقد أنه يعني؟.

سألها «أما زلت خائفة؟».

«نعم».

«خائفة من أن يعودوا؟».

«نعم».

«هل ظننتِ أنك إذا لم توجِّهي التهمة إليهم أمام الشرطة فلن يعودوا؟ أهذا ما قلته لنفسك؟».

«كلا».

«ماذا إذن؟».

لزمت الصمت.

«لوسي، يمكن أن يكون الأمر غاية في البساطة. اغلقي مأوى الكلاب. افعلي فوراً. اغلقي المنزل، واستأجري بتروس ليحرسه. خذي إجازة مدة ستة أشهر أو عام، إلى أن تتحسَّن الأوضاع في هذا البلد. ارحلي بعيداً. إلى هوندا. على نفقتي. وحين تعودين فكّري في الأمر، وابدئي من جديد».

«إذا غادرتُ الآن يا ديفيد، لن أعود أبداً. شكراً على عرضك، لكنه لا ينفع. ليس لديك ما تقترحه عليَّ لم أفكّر فيه مائة مرة».

«إذن ماذا تقترحين أن تفعلي؟».

«لا أدري. ولكن مهما كان قراري أريد أن أتّخذه بنفسي، بدون أي محاولة دفع. ثمة أشياء لا تفهمها».

«ما الذي لا أفهمه؟».

«أولاً، أنت لا تفهم ما حدث لي في ذلك اليوم. أنت قلق عليّ، وأنا أقدِّر هذا، وتعتقد أنك تفهم، لكنك في نهاية المطاف لا تفهم. لأنك لا تستطيع ذلك».

أبطأ السرعة وركن السيارة إلى جانب الطريق. قالت لوسي «لا تتوقف. ليس هنا. هذه منطقة سيئة، ومن الخطر جداً أن تتوقف».

زاد السرعة. قال «على العكس، أنا أفهم جيداً جداً. وسوف أنطق الكلمة التي كنا نتفاداها منذ ذلك الحين. لقد اغتُصِبَتْ. مراراً. من قِبَل ثلاثة رجال».

«ثم؟».

«أصبحت تخشين على حياتك. أصبحت تخشين أنه بعد أن اغتصبوك سوف يقتلونك. سيتخلصون منك. لأنك لا تعنين لهم أي شيء».

«ثم؟». هنا أصبح صوتها همساً.

«وأنا لن أفعل أي شيء. لم أنقذك».

كان هذا اعترافه الخاص.

أصدرت بيدها نقرة صغيرة برمة: «لا تلم نفسك يا ديفيد. ما كان أحد يستطيع أن يتوقع أن تنقذني. ولو أنهم جاءوا قبل ذلك بأسبوع، لكانوا وجدوني وحدي في المنزل. ولكن أنت على حق، أنا لم أعنِ أي شيء لهم، لا شيء. أنا شعرت بذلك».

ساد صمت. ثم قالت: «أعتقد أنهم كانوا قد فعلوا ذلك من قبل»، وقد أصبح صوتها أكثر ثباتاً، «على الأقل الاثنان البالغان كانا قد فعلا. أعتقد أنهما أولاً وقبل كل شيء من الذين يمارسون الاغتصاب. أما السرقة فحادث عارض. حادث ثانوي. أنا أعتقد أنهما أساساً من المغتصبين».

«أتعتقدين أنهم سيعودون؟».

«أعتقد أني موجودة في منطقة نشاطهم. لقد وضعوا علامة عليّ. وسوف يعودون إليّ».

«إذن لا يمكنك أن تمكثي».

«ولم لا؟».

«لأن ذلك سيكون بمثابة دعوة إليهم ليعودوا».

فكّرتْ طويلاً قبل أن تجيب: «ولكن أليس هناك منظور آخر إلى الأمر يا ديفيد؟ ماذا لو... ماذا لو أن «ذاك» هو الثمن الذي على المرء أن يدفعه ليبقى هنا؟ ربما هكذا يفكرون هم؛ ربما هكذا يجب أن أفكر أنا أيضاً. هم يرون أني أملك شيئاً. يرون أنفسهم كمحصّلي ديون، كجباة ضرائب. ما المبرر ليسمحوا لي أن أعيش هنا بدون أن أدفع الثمن؟ لعل هذا ما يقولونه لأنفسهم».

«أنا واثق من أنهم يقولون لأنفسهم أشياء كثيرة. فمن مصلحتهم أن يفبركوا قصصاً تبرِّر أعمالهم. ولكن ضعي ثقتك في مشاعرك. أنت قلت إنك لا تشعرين نحوهم إلا بالكراهية».

«كراهية... حين يتعلق الأمر بالرجال وبالجنس يا ديفيد، لا يعود هناك أي شيء يثير دهشتي. لعل كراهية الرجل للمرأة تجعل ممارسة الجنس، بالنسبة إليه، أكثر إثارة. أنت رجل، ولا بد أنك تعرف هذا. فحين تمارس الجنس مع امرأة غريبة ـ عندما توقع بها، وتثبّتها في الأسفل، وتجعلها تحتك، وتضغط بكل ثقلك عليها ـ ألا يشبه ذلك القتل؟ تغرز السكين بقوة؛ ثم تُخرجها بعد ذلك تاركاً الجسدَ خلفك مضرّجاً بالدماء ـ ألا يشبه هذا عملية القتل، ألا يشبه الفرار من عقاب ارتكابها؟».

أنت رجل، ولابد أنك تعرف. أهكذا تخاطب ابنة أباها؟ هل يقفان هما الاثنان على جانب واحد؟.

قال: «ربما، أحياناً. بالنسبة إلى بعض الرجال»، ثم قال بسرعة، وبدون تفكير مسبق «هل كان الأمر كذلك مع كليهما؟ كمصارعة الموت؟».

«لقد حثَّ كل منهما الآخر. ربما لهذا فعلاه معاً. ككلبين في جسدٍ واحد».

«والثالث، الفتى؟».

«كان موجوداً ليتعلّم».

كانا قد مرّا من أمام اللافتة التي تشير إلى نبات السيكاسية. كانت فترة الدوام قد انتهت.

قال: «لو كانوا من البيض لما تحدثتِ عنهم بهذا الأسلوب. لو كانوا من السفاحين البيض من الإرسالية، مثلاً».

«أما كنتُ فعلتُ؟».

«لا، ما كنتِ فعلتِ. أنا لا ألومك، ليس هذا هو المهم. ولكن ما تتحدثين عنه أمر جديد. إنه استعباد. يريدون أن يستعبدوك».

«إنه ليس استعباداً. هو إخضاع. إذلال».

هزَّ رأسه: «هذا كثير يا لوسي. بيعي كل شيء. بيعي المزرعة لبتروس وهيا نرحل»

«كلا».

إلى هنا وانتهى الحديث. لكن كلمات لوسي ظلَّ صداها يرجّع في رأسه *مضرّج بالدماء*. ماذا تعني؟ هل كان مُحقاً منذ البداية حين حلمَ بسريرٍ من الدماء، بحمّامٍ من الدماء؟.

إنهم من المغتصبين. تخيّلَ الزائرين الثلاثة يقودون سيارة التويوتا غير العتيقة كثيراً، والمقعد الخلفي مملوء بالأغراض المنزلية، وأعضاؤهم الذكرية، وأسلحتهم، تستكين دافئة وراضية بين سيقانهم ـ وقفزت إلى ذهنه كلمة «يخرخرون». لابد أنهم سعداء بمهمتهم.

تذكّر أنه، وهو صغير، كان يفكّر في كلمة «اغتصاب» الواردة في التقارير الصحفية، محاولاً أن يفكَّ طلسم معناها الدقيق، متسائلاً عما يفعله حرف الباء، الرقيق عادة، في كلمة تنطوي على رعب هائل بحيث يُحجِمُ الجميع عن نطقها بصوتٍ عالٍ. وفي أحد كتب الفن التي تحتويها المكتبة

كانت هناك لوحة تدعى «*اغتصاب السابينات*»: تمثّل رجالاً على صهوات جياد، بدروعٍ رومانية هزيلة، ونساءً يضعن أخمرةً من الشاش يضربن الهواء بأذرعهن ويولولن. ما علاقة هذا الموقف المتكلِّف كله بما اعتقد أنه اغتصاب: أي رجل منطرح فوق امرأة ويضغط نفسه عليها؟.

فكّرَ في بايرون. فمن بين حشود الكونتيسات والطباخات اللواتي ضاجعهن كانت هناك ولا شك مَنْ اعتبرن ذلك اغتصاباً. ولكن حتماً لم تصل أي منهن إلى درجة الخوف من أن تنتهي الجلسة بقطع رقبتها. ومن موقعه، ومن موقع لوسي، بدا بايرون عتيق الطراز إلى حدٍ بعيد.

كانت لوسي خائفة، خائفة إلى حد الموت. اختنق صوتها، وتعسَّرَ عليها التنفُّس، وتخدّرت أطرافها. قالت لنفسها بينما الرجال يجبرونها على الاستلقاء *هذا لا يحدث؛ إنه مجرد حلم، كابوس*، بينما الرجال، من ناحيتهم، كانوا يجرعون خوفها، يجدون فيه متعة، وفعلوا كل ما من شأنه أن يؤذيها، ويهدّدها، ويصعِّد من رعبها. وقالوا لها *نادي على كلابك! هيا، استدعي كلابك! ألا يوجد كلاب؟ إذن دعينا نريك كلابك!*.

قالت بف شو *أنت لا تفهم، أنت لم تكن حاضراً هناك*. حسن، إنها مخطئة. إن حدس لوسي مُحقٌ قبل أي شيء: إنه يفهم؛ ويستطيع إذا ما عصر ذهنه، إذا ما نسي نفسه، أن يحضر هناك، أن يحلَّ محلّ الرجال، يسكنهم، يملأهم بشبحه. والسؤال هو، هل يملك أن يتلبّس المرأة؟.

من عزلةِ غرفته كتب رسالةً لابنته:

«لوسي، يا أعز الناس، بكل ما في العالم من حبّ، يجب أن أقول ما يلي. أنتِ تقفين على حافة رعبٍ خطر. تسلكين طريق خاطئة. سوف تجرّدك من أي إحساسٍ بالشرف، ستعجزين عن التعايش مع نفسك. أناشدك، أنصتي إليّ.

والدك.

بعد ذلك بنصف ساعة دفع أحدهم مغلّفاً من تحت عقب بابه. «عزيزي ديفيد، إنك لم تكن تنصت إلى ما قلت. إنني لست الشخص الذي تعرفه. أنا إنسان ميت ولا أدري بعد ما الذي سيعيدني إلى الحياة. كل ما أعرفه هو أني لا أستطيع أن أرحل.

إنك لا تتفهّم هذا، ولا أدري ماذا يمكنني أن أضيف لأجعلك تفهم. وكأنك اخترتَ عمداً أن تجلس في الركن الذي لا تصله أشعة الشمس. إنني أراك أشبه بأحد القردة الثلاثة، ذاك الذي يضع مخالبه على عينيه.

نعم، قد تكون الطريق التي أسلك خاطئة. ولكن إذا رحلتُ عن المزرعة الآن فسأرحل وأنا مهزومة، وسيظل مذاق الهزيمة في فمي حتى آخر ما تبقّى لي من حياة.

لا يمكن أن أبقى طفلة إلى الأبد. وأنت لا يمكن أن تبقى أباً إلى الأبد. أنا أعلم أنك حسن النيّة، لكنك لست المرشد الذي أحتاج، ليس في الوقت الحاضر».

المخلصة، لوسي

كان ذاك آخر ما تبادلاه؛ كانت تلك كلمة لوسي الأخيرة.

* * *

انتهى عمل النهار من قتل الكلاب، وكُومَتْ الأكياس السوداء عند عتبة الباب، وكل منها تحتوي جسداً وروحاً داخلها. هو وبف شو متعانقان على أرضيّة غرفة العمليات. في غضون نصف ساعة سوف تعود بف إلى زوجها بيل وسيبدأ هو بتحميل الأكياس.

قالت بف شو: «لم تحكِ لي قط عن زوجتك الأولى، ولوسي هي الأخرى لا تتحدّث عن زوجها».

«والدة لوسي كانت هولندية. لابد أنها أخبرتك بهذا. اسمها إيفلينا.

إيفي. بعد الطلاق عادت إلى هولندا. بعد ذلك تزوجت من جديد. ولم تتّفق لوسي مع زوج أمها الجديد. فطلبت أن ترجع إلى جنوب أفريقيا».

«إذن اختارتك».

«بصورة ما. واختارت أيضاً محيطاً معيّناً، مستقبلاً معيّناً. والآن أنا أحاول أن أدفعها إلى الرحيل من جديد، حتى ولو لفترة وجيزة. لديها عائلة في هولندا. وأصدقاء. قد لا تكون هولندا المكان الأشد إمتاعاً للعيش فيه، لكنها على الأقل لا تولِّد كوابيس».

«ثم؟».

هزَّ كتفيه «في الوقت الحاضر لا رغبة لدى لوسي في أن تولي أي نصيحة أسديها أي اهتمام. تقول إني لستُ مرشداً جيداً».

«لكنك كنت مدرّساً».

«عن طريق المصادفة المحض. لم يكن التدريس أبداً يلبّي رغبة دفينة عندي. ولم أطمح دهري إلى تعليم الناس كيف يعيشون. كنت ما يمكن أن تسمّيه فقيهاً. ألّفت كتباً عن أناسٍ موتى. هذا ما أحبّه من كل قلبي. كنت أدرِّسُ فقط لأكسب لقمة عيشي».

انتظرت منه أن يزيد، لكنه لم يكن في مزاج يسمح له بالمتابعة.

كانت الشمس تغرب، والدنيا تزداد برودة. لم يمارسا الحب بعد؛ كانا في الواقع قد كفَّا عن الادعاء بأن هذا ما يفعلانه معاً.

في ذهنه لم يكن هناك غير بايرون، وحده على خشبة المسرح، يستجمع أنفاسه استعداداً للغناء. إنه يهمّ بالانطلاق إلى اليونان. في سن الخامسة والثلاثين كان قد بدأ يفهم أن الحياة عزيزة.

Sunt lacrimae rerum, et mentem mortalia tangunt: سوف تكون هذه هي آخر كلمات بايرون، كان واثقاً من ذلك. أما الموسيقى، فتلوح عند الأفق، ولم تأت بعد.

قالت بف شو: «ينبغي ألا تقلق». كان رأسها مرتاحاً على صدره: لعلها تسمع دقات قلبه، التي تسير التفعيلة السداسية على إيقاعها. «سوف نعنى بها أنا وبيل. سوف نُكثِر من التردُّد على المزرعة. ثم هناك بتروس. بتروس سوف يحرسها».

«بتروس الأبويّ».

«نعم».

«لوسي تقول إنه لا يمكنني أن أبقى أباً إلى الأبد. لا أستطيع أن أتخيّل أني، في هذه الحياة، لست أباً للوسي».

مرّرتْ أصابع يدها خلال شعره القصير والخشن. همست: «سيسير كل شيء على أحسن ما يرام، وسوف ترى».

تسعة عشر

كان المنزل يشكِّل جزءاً من تطوّر لابد أنه قد بدا، قبل خمس عشرة أو عشرين سنة، حين كان جديداً، وكئيباً، ولكنه منذ ذلك الحين جُمِّلَ بالأرصفة التي تنمو عليها العشب، والأشجار، والنباتات المتسلّقة التي تنفض أوراقها من فوق الجدران. وكان للمنزل رقم 8، رستولم كريسنت بوابة حديقة مدهونة ومهتاف.

ضغط على الزر. تكلّم صوتٌ شاب «ألو؟».

«إنني أبحث عن السيد آيزاكس. اسمي لري».

«لم يعد إلى المنزل بعد».

«متى سيعود؟».

«الآن ـ الآن». طنين؛ سقاطة تقرقع؛ دفع البوابة حتى يفتحها.

كان الممشى يؤدي إلى الباب الأمامي؛ هناك فتاة نحيلة تقف وتراقبه؛ ترتدي زي المدرسة الرسمي: زي البحارة الأزرق؛ الجورب الأبيض الذي يصل حتى الركبة، وقميصاً مفتوح الياقة. كانت لها عينا ميلاني، ووجنتا ميلاني الواسعتين، وشعر ميلاني الفاحم؛ هذه، على الأقل، أجمل. إنها الأخت الصغرى التي كانت ميلاني قد أتت على ذكرها، لا يتذكّر اسمها في اللحظة الحاضرة.

«مساء الخير. متى تتوقعين وصول والدك إلى المنزل؟».

«ينتهي دوام المدرسة عند الثالثة، لكنه عادة يتأخر. لا بأس، تستطيع أن تدخل».

فتحت الباب وثبّتته ليدخل، وتراجعت ليمرَّ. كانت تأكل شريحة من الكعك؛ تمسك بها بأناقة بين أصابعها؛ وقد علقت فُتات منها على شفتها العليا. شعر برغبة مُلحّة في أن يمدَّ يده، وينفضها عنها؛ في تلك اللحظة بالذات اجتاحته ذكرى أختها كاجتياح موجة حارة. قال في نفسه، *أعوذ بالله ـ ما الذي أفعله هنا؟*.

«تستطيع أن تجلس إذا شئت».

جلس. الأثاث يلمع، والغرفة مرتّبة ترتيباً مستبدّاً.

سألها: «ما اسمك؟».

«ديزيريه».

ديزيريه: الآن تذكّر. ميلاني هي البكر، المكفهرة، ثم ديزيريه، المُشتهاة. لا شك في أنهم أغووا الآلهة بإعطائها مثل ذاك الاسم!

«اسمي ديفيد لري». أخذ يراقبها عن قرب، لكنها لم تُبدي أي دلالة على أنها تعرفه: «أنا من كيب تاون».

«أختي موجودة في كيب تاون. إنها طالبة».

أومأ برأسه إيجاباً. لم يقل، أنا أعرف أختك، أعرفها جيداً. لكنه قال في نفسه: ثمرة من الشجرة نفسها، وربما حتى آخر تفصيل حميم. ومع ذلك ثمة اختلاف: فرق في نبض الدم، فرق في متطلبات الوَلَه الملحّة. الاثنان في السرير نفسه: تجربة جديرة بملك.

سَرَتْ فيه رعشة خفيفة. نظر في ساعته. «أتدرين، يا ديزيريه؟ أعتقد أني سأحاول أن ألحق بوالدك في مدرسته، إذا أخبرتني كيف أصل إليها».

* * *

المدرسة ملاصقة لملاك الإسكان: كانت مبنى منخفضاً ذا واجهة من القرميد ونوافذ من الفولاذ وسطح من الاسبستوس، تقوم وسط مربّع من الأرض مسيَّج بأسلاك شائكة. تقول الكتابة على أحد أعمدة المدخل «ف.س ماريه»، وتقول الكتابة على العمود الثاني «مدرسة متوسطة».

الفناء مقفر. راح يتجول في المكان إلى أن صادف لافتة تقول «المكتب». في الداخل جلست سكرتيرة ممتلئة متوسطة في العمر تقلّم أظافرها. قال «إنني أبحث عن السيد آيزاكس».

هتفت: «مستر آيزاكس! لديك زائر!»، ثم التفتت إليه «ادخل».

توقف آيزاكس، الذي كان جالساً على طاولة مكتبه، عند منتصف الطريق نحو النهوض، وأخذ ينظر إليه في حيرة.

«ألا تتذكرني؟ أنا ديفيد لري، من كيب تاون».

قال آيزاكس: «أوه» ثم عاد وجلس. كان يرتدي البزّة الكبيرة المقاس نفسها: وقد اختفت رقبته داخل سترته، ومنها كان ينعِم النظر فيه كطائر حادّ المنقار وقع في كيس. كانت النوافذ مغلقة، ورائحة دخان بائتة تعبق الجو.

قال: «إذا كنتَ لا تريدُ أن تقابلني أرحلُ في الحال».

قال آيزاكس: «لا، اجلس. إنني فقط أتفحّصُ عدد الحضور. ألديك مانع إن أنهيتُ عملي أولاً؟».

«افعلْ أرجوك».

كانت على الطاولة صورة مؤطّرة. لم يكن يراها من مكان جلوسه، لكنه كان يعلم صورة مَنْ: صورة ميلاني وديزيريه، قُرَّة عينيّ والدهما، مع الأم التي حملتهما.

قال آيزاكس، وهو يغلق آخر سجل: «حسن، إلى مَنْ أدين بهذا السرور؟».

توقّع أن تتوتّر أعصابه، لكنه وجد نفسه هادئاً تماماً.

قال: «بعد أن قدَّمَتْ ميلاني شكواها أجرت الجامعة تحقيقاً رسمياً. وبنتيجته قدَّمتُ استقالتي من منصبي. لقد أصبح هذا من الماضي، لابد أنك تدرك ذلك».

حدَّقَ آيزاكس إليه بفضول، بدون أن يفشي شيئاً.

«منذ ذلك الحين وأنا أعاني من الضجر. واليوم كنتُ ماراً بمدينة جورج، فخطر لي أن أتوقف وأتحدث إليك. أذكرُ أن لقاءنا الأخير كان... ساخناً. لكنني مع ذلك فكّرتُ في أن أعرِّجَ عليك في كل الأحوال، وأبوح بما في قلبي».

كان هذا صحيحاً تماماً. لقد أراد فعلاً أن يبوح بمكنونات قلبه والسؤال هو، ما الذي يخفيه في قلبه؟.

كان آيزاكس يحمل في يده قلم بيك رخيص. أجرى أصابعه على طول عموده، وقَلَبَه، ومرّرَ أصابعه على طوله، مرة بعد أخرى، في حركة آليّة أكثر منها دالّة على نزق.

تابع قائلاً: «لقد سمعتَ رواية ميلاني للقصة. وأودُّ أن أحكي روايتي الخاصة، إذا كان لديك استعداد لسماعها.

بدأ الأمر بتهوُّر من جانبي. بدأ كمغامرة، إحدى تلك المغامرات الصغيرة المفاجئة التي يخوضها الرجال في سنٍ معيّنةٍ، كالتي وقعت معي، والتي تعينني على الاستمرار. اعذرني لتحدُّثي بهذا الأسلوب. إنني أحاول أن أكون صريحاً.

غير أن أمراً غير متوقّع حصل في حالة ميلاني. إنني أتخيّله كنارٍ. لقد أضرمت ناراً فيَّ».

سكتَ. استمرَّ القلمُ في رقصه. *مغامرة صغيرة مفاجئة. رجالٌ من نوعٍ*

معيَّن. هل للرجل الجالس خلف طاولة المكتب مغامرات؟ كلما عرفه أكثر ازداد شكّه في هذا. ولن يُدهَش إذا ما كان ذا رتبة في الكنيسة، شمّاساً أو مساعداً للكاهن، كائناً ما كان عمله.

«نار: ما الغريب في هذا؟ إذا انطفأت النار، اقدح عود ثقاب واضرِم ناراً جديدة. هكذا كنت أفكّر. ومع ذلك كان الناس في العصور الغابرة يعبدون النار. كانوا يفكّرون مرتين قبل أن يتركوا لهباً يخمد، كان لهباً إلهياً، ذاك النوع من اللهب هو الذي أشعلته ابنتك فيَّ. لم يكن شديد الحرارة بحيث يحرقني، لكنه كان حقيقياً: ناراً حقيقية

احترق ـ محروق ـ احتراقٌ كامل.

كفَّ القلمُ عن الحركة. قال والد الفتاة، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مصطنعة، ملتوية» مستر لري، إنني أتساءل إلامَ ترمي بحق الله بمجيئك إلى مدرستي وإلقاء القصص على مسمعي ـ » «أنا آسف، شيء يثير السخط، أعلم. انتهيتُ. هذا كل ما أردت أن أقوله، من باب الدفاع عن النفس. كيف حال ميلاني؟».

«ميلاني بخير، ما دمتَ قد سألت. إنها تتّصل بنا كل أسبوع. لقد عادت إلى دروسها، ولكي تفعل ذلك منحوها عفواً خاصاً، أنا واثق من أنك تفهم هذا، في ظل الظروف التي سادت. وما زالت تمارس نشاطها المسرحي في أوقات الفراغ، وهي تحرز تقدُّماً. إذن ميلاني على ما يرام. فماذا عنك؟ ما هي خططك الآن بعد أن تركتَ المدينة؟».

«سوف يثير اهتمامك أن تعلم أني أنا أيضاً لدي ابنة. وهي تمتلك مزرعة؛ أتوقع أن أقضي بعض الوقت معها، لأمدَّ لها يد العون. وأيضاً لدي كتاب أقوم بتأليفه، ما يشبه الكتاب. وبشكلٍ أو بآخر سأشغل نفسي».

سكت. كان آيزاكِس يتأمّله بنظرة أدهشته إذ وجدها انتباهاً ثاقباً.

قال آيزاكس بنعومة، والكلمات تفلتُ منه كالآهات «إذن، كيف وجدت السقوط الهائل!».

سقوطٌ؟ نعم، لقد حدث سقوطٌ، بلا أدنى شك. ولكن، *هائل*؟ هل صفة هائل تنطبق عليه؟ إنه يرى نفسه مغموراً ويزداد غموراً. إنه شخصية على هامش التاريخ.

قال: «لعلَّ من المفيد لنا أن نسقط بين حين وآخر. وطالما أننا لا ننكسر».

قال آيزاكس، وما يزال ينظر إليه بثبات وإلحاح: «عظيم، عظيم، عظيم». وللمرة الأولى يستبين أثراً من ميلاني فيه: جمالاً في تكوين الفم والشفتين. وفجأة مدَّ يده عبر طاولة المكتب، وحاول أن يصافح يد الرجل، وانتهت المحاولة بلمس ظهرها. بشرة باردة، خالية من الشعر.

قال آيزاكس: «مستر لري، هل لديك شيء آخر تضيفه إلى حكايتك مع ميلاني؟ لقد ذكرتَ أن في قلبك شيء».

«في قلبي؟ لا. لا، لقد عرّجتُ فقط لأسأل عن حال ميلاني»، ونهضَ «شكراً لاستقبالك لي، أنا ممتنّ». ومدَّ يده، وهذه المرة بشكل مباشر «وداعاً».

«وداعاً».

أصبح عند الباب ـ أصبح، في الواقع، خارج غرفة المكتب، التي أضحت خالية ـ وإذا بآيزاكس يناديه: «مستر لري! لحظة من فضلك!».

عاد.

«ماذا لديك هذا المساء؟».

«هذا المساء؟ لقد حجزتُ غرفةً في الفندق. ولا خطط لدي».

«تعال وتناول الطعام معنا، تعال على العشاء».

«أعتقدُ أن زوجتك لن ترحِّب بهذا».

«ربما. وربما لا. تعال على أي حال. ليكن بيننا خبز وملح. نحن نتناول الطعام في السابعة. دعني أدوِّن لك العنوان».

«لا داعي لذلك. لقد زرتُ منزلكم لتوي، وقابلت ابنتك. وهي التي وجّهتني إليك».

لم يرفّ لأيزاكس جفن. قال «عظيم».

* * *

فتحَ آيزاكس الباب بنفسه. قال «تفضّل، تفضّل»، وقاده إلى غرفة الجلوس. لم يرَ أثراً للزوجة، ولا للابنة الثانية.

قال: «أحضرتُ شيئاً»، ومدَّ يده بزجاجة نبيذ. «هل أقدِّم لك شيئاً منها؟ سوف أذهب وأفتحها». وغادر الغرفة؛ وتناهى من المطبخ همس. ثم عاد. «يبدو أننا أضعنا فتّاحة القناني. ولكن ديزي سوف تستعير واحدة من الجيران».

من الواضح أنهم لا يشربون الخمر. كان ينبغي أن يفكر في ذلك. إنه منزل صغير وأنيق لعائلة بورجوازية صغيرة، مقتصدة ومتدبّرة. سيارة مغسولة، ومرج مجزوز، ومدّخرات في المصرف. ومواردها كلها مسخّرة لإطلاق الابنتين الدرّتين إلى المستقبل: ميلاني الماهرة، بطموحاتها المسرحية؛ وديزيريه، الجميلة.

تذكّرَ ميلاني، في أمسيةِ تعارفهما الحميم، كيف جلست إلى جانبه على الأريكة وهي تشرب القهوة في الكأس الذي يحتوي جرعة من الويسكي كان المقصود منها ـ ظهرت له الكلمة على مضض ـ أن *تزيّتها*. وتذكّر جسدها الصغير الأنيق؛ وملابسها المثيرة؛ وعينيها اللتين تومضان بالإثارة، وهي تلجُ الغابة حيث يجوس الذئب الضاري.

دخلتْ ديزيريه الجميلة حاملةً فتّاحة القناني. وبينما هي تقطع المكان باتجاههم تردّدت لحظة، وقد أدركت أن التحيّة واجبة، وتمتمت مع نبرةٍ من الاضطراب، ومدّتْ يدها بالزجاجة «أبي؟».

إذن فقد عرفت مَنْ يكون. لقد كان موضع نقاش بينهم، وربما نشبت بينهم مشادّة: إنه الزائر غير المرغوب فيه، الرجل صاحب الاسم الغامض.

كان والدها قد أسَرَ يدها في يده. قال «ديزيريه، هذا مستر لري».

«مرحبا، ديزيريه».

الشعر الذي كان يخفي وجهها انتفض إلى الخلف. قابلت عيناها عينيه، وما تزال مرتبكة، لكنها أضحت حينئذ أقوى لأنها كانت تحت حماية والدها، غمغمت «مرحبا»، وقال في نفسه *يا إلهي، يا إلهي!*.

أما هي، فلا تستطيع أن تخفي عنه ما يجول في خاطرها: «*إذن هذا هو الرجل الذي كانت أختي تتعرّى معه! إذن هذا هو الرجل الذي فعلتها معه! هذا العجوز!*.

كانت هناك غرفة طعام صغيرة منفصلة، مزوّدة بفتحة تصلها بالمطبخ. وثمة أربعة أماكن على المائدة وضعت أمامها أفضل عِدّة من السكاكين؛ وشموع مشتعلة. قال آيزاكس: «تفضّل، تفضّل!». ما تزال الزوجة مختفية. «عن إذنك لحظة»، واختفى آيزاكس داخل المطبخ. تُرِكَ ليواجه ديزيريه عبر المائدة. كانت تدلّي رأسها، وقد فارقتها الشجاعة.

ثم عادا، الوالدان معاً. نهض واقفاً. «أنت لم تقابل زوجتي. دورين، هذا ضيفنا، السيد لري».

«أنا ممتنّ لاستقبالك لي في بيتك، سيدة آيزاكس».

السيدة آيزاكس امرأة قصيرة القامة، تزداد امتلاءً عند منتصف العمر، وذات ساقين مقوّستين جعلت مشيتها متمايلة قليلاً. لكنه عرف من أين ورثت الأختان شكلهما. لابد أنها كانت في شبابها ذات جمال لافت.

بقيت تقاسيمها جامدة، وتجنّبت النظر إليه، لكنها أومأت له إيماءة خفيفة جداً. إنها مطيعة؛ زوجة ورفيقةُ عمرٍ صالحة. *وستكونان جسداً واحداً. هل تحذو بنتاها حذوها؟*.

قالت بلهجة آمرة: «ديزيريه، تعالي وساعديني في حمل الطعام».

نزلت البنت بكل امتنان عن كرسيها.

قال: «مستر آيزاكس، إنني أسبّب الإرباك في منزلك. لطفٌ منك أن تعزمني، أقدِّرُ منك هذا، لكن من الأفضل أن أغادر».

رسم آيزاكس ابتسامة أدهشته إذ لمح فيها لمسة مرح. «اجلس، اجلس! سنكون على ما يرام! سترى!»، ثم مال مقترباً أكثر منه «يجب أن تكون قوياً!».

ثم عادت ديزيريه مع أمها وهما تحملان أطباقاً: دجاجة وسط يخني البندورة المبقبقة تطلقُ عبير الزنجبيل، والكمّون، والأرز، وتشكيلة من السلطة والمخللات. نوع الطعام بالذات الذي اشتاق إلى تناوله، حين كان يعيش مع لوسي.

وُضِعَتْ زجاجة النبيذ أمامه، مع كأسٍ وحيدة.

قال: «أأنا الوحيد الذي يشرب؟».

قال: آيزاكس «أرجوك، هيا واشرب».

صبَّ ملْ كأسٍ. إنه لا يحب النبيذ الحلو، وقد اشترى هذا النوع اعتقاداً منه أنه يناسب ذوقهم. حسن، لقد انقلب وبالاً عليه.

بقيت تلاوة الصلاة. بادر آيزاكس بالإمساك بالأيدي؛ كل ما في الأمر أن يمدَّ يديه هو أيضاً، اليسرى نحو والد الفتاة، واليمنى نحو والدتها. قال آيزاكس «فليجعلنا الله ممتنين صادقين لما نحن مقبلون على تناوله»، قالت زوجته وابنته «آمين». وغمغم هو، ديفيد لري، «آمين» أيضاً وأفلت اليدين، يد الوالد الباردة كالحرير؛ ويد الأم، الصغيرة، اللحيمة، والدافئة بفعل قيامها بالأعمال.

بدأت السيدة آيزاكس تصبّ في الصحون، وقالت وهي تناوله صحنه «انتبه، إنه حار». كانت تلك كلماتها الوحيدة له.

أثناء تناول الطعام حاول أن يكون ضيفاً مهذّباً، أن يكون حديثه مسلياً، أن يملأ فترات الصمت. تكلم عن لوسي، عن نُزُل الكلاب، وتربيتها للنحل ومشاريعها في فن البستنة، وعن المهام التي كان يؤديها صباح أيام السبت في السوق. وحرَّفَ في سرد الهجوم، ذاكراً فقط أن سيارته قد سُرِقَتْ. وتحدث عن جمعية الرفق بالحيوان، ولكن ليس عن المرمدة في ملاك المستشفى أو عن فترات بعد الظهر المسروقة مع بف شو.

بسط القصة المنسوجة بهذا الشكل بدون أن تثير الشبهات. تكلّم عن الحياة الريفية بكل بساطتها البلهاء، وكيف تمنّى لو أنها حقيقية! لقد سئمَ الإبهام، والتعقيدات، والمعقّدين من الناس. ويحب ابنته، ولكن أحياناً يتمنى لو أنها مخلوقة أكثر بساطة: أبسط، وأشد ترتيباً. الرجل الذي اغتصبها، رئيس العصابة، كان كذلك. كشفرة تقطع الريح.

تراءى له أنه يتمدّد على طاولة عمليات. وَمَضَ المبضعُ؛ من النحر إلى العورة كان مفتوحاً؛ يشاهد كل شيء لكنه لا يشعر بأي ألم. مال طبيب جرّاح، ملتح، فوقه، عابساً. ودمدم *ما كل هذه الأشياء؟*. وأخذ يلكز المرارة. *وما هذا؟* وقطعها، ورماها جانباً. ويلكز القلب *ما هذا؟*

سأل آيزاكس: «ابنتك ـ هل هي تدير المزرعة وحدها؟».

«لديها رجل يساعدها أحياناً. بتروس. أفريقي». ثم تحدّثَ عن بتروس، الصَلْبْ، الذي يُعتمدُ عليه، ذي الزوجتين وعن طموحاته المتواضعة.

كان أقلّ جوعاً مما اعتقدَ. وتراخت وتيرة الحديث، لكنهم انتهوا من تناول الوجبة على خير. واستأذنت ديزيريه بالانصراف لأداء واجباتها المدرسية. ونظّفت السيدة آيزاكس المائدة.

قال: «يجب أن أذهب، عليّ أن أنطلق غداً باكراً».

قال آيزاكس: «انتظر، ابقَ قليلاً».

ظلاّ وحدهما. لم يعد في إمكانه أن يوارب.

قال: «بالنسبة إلى ميلاني».

«نعم؟».

«أريد أن أزيد كلمة أخرى، بعدها أكون قد انتهيت. أعتقد أنه كان يمكن للأمر أن يأخذ منحى مختلفاً، بيننا نحن الاثنين، على الرغم مما وصلنا إليه من سن. ولكن كان هناك شيء فشلتُ في إعطائه، شيء «ـ أخذ يفتّشُ بدقة عن الكلمة المناسبة ـ» غنائيّ. إنني أفتقر إلى الغنائيّة. إنني أُحسِنُ جيداً التعامل مع الحب. حتى حين أحترقُ حباً لا أغنّي، إن كنتَ تفهم ما أعني. وهو أمرٌ أشعر حياله بالأسف. أنا آسف لما سبّبته لابنتك. إن لديك عائلة رائعة. وأنا أعتذر عن الألم الذي سبّبته لك وللسيدة آيزاكس. وأطلب العفو».

كلمة *رائعة* لم تكن دقيقة. الأفضل قول *نموذجية*.

قال آيزاكس: «إذن، أخيراً اعتذرتَ. كنتُ أتساءلُ متى ستفعل». ثم أخذ يتفكّر. لم يكن قد جلس؛ وراح يتمشى جيئة وذهاباً. «أنت آسف. أنت تفتقر إلى الغنائيّة، كما تقول. ولو كنتَ تتصف بالغنائية، لما وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم. لكني أقول لنفسي، نحن جميعاً نبدي أسفنا حين يُكتَشَفُ أمرنا. عندئذ نكون آسفين جداً. والسؤال الهامّ ليس إن كنا آسفين، وإنما ما الدرس الذي تعلّمناه؟ السؤال هو، ماذا ننوي أن نفعل الآن بعد أن أبدينا أسفنا؟».

كاد أن يجيب، لكن آيزاكس رفع يده «هل ألفظ اسم الله على مسمعك؟ أنت لست ممن يضطربون لدى سماع اسم الله. والسؤال هو، ماذا يريد الله منك، إلى جانب إبداء أسفك الشديد؟ ألديك أي فكرة، مستر لري؟.

على الرغم من أن تمشّي آيزاكس جيئة وذهاباً شتّتَ أفكاره، إلا أنه حاولَ أن ينتقي كلماته بعناية. قال: «أنا عادة أقول إنه بعد سن معيّنة يصبح المرء أكبر سناً من أن يتعلّم دروساً. يمكن فقط إنزال العقاب به بعد العقاب. ولكن لعل هذا غير صحيح، ليس دائماً. إنني أنتظر لأرى. أما عن الله، فأنا لستُ مؤمناً، لذا سوف أترجم ما أطلقتَ عليه اسم الله ورغبات الله إلى لغتي الخاصة. في لغتي الخاصة، أنا أتلقّى العقاب على ما حدث بيني وبين ابنتك.إنني غارق في حالة من الخزي ولن يكون سهلاً عليّ أن أخرج منها. وما رفضتُه ليس العقاب. أنا لم أعترض. على العكس، إنني أعيشه يوماً بيوم، أحاول أن أقبل الخزي بوصفه حالة وجودي. هل تعتقد أن الله يكتفي بأن أعيش الخزي إلى ما لا نهاية؟.

«لا أدري، مستر لري. عادة أقول، لا تسألني، اسأل الله. ولكن ما دمت لا تصلّي، فلا تستطيع أن تسأل الله. لذا على الله أن يجد وسيلته الخاصة لإبلاغك. في رأيك، مستر لري، لماذا أنت هنا؟».

لزم الصمت.

«أنا أقول لك. لقد كنت ماراً بمدينة جورج، وتذكّرتُ فجأة أن عائلة تلميذتك هي من مدينة جورج، فقلت لنفسك، «ولم لا؟». أنت لم تخطّط للأمر، ومع ذلك ها أنت في بيتنا. أنت حتماً مندهش لهذا، أليس كذلك؟».

«ليس بالضبط. أنا لم أقل الحقيقة. لقد كنت فقط ماراً مرور الكرام. وجئت إلى مدينة جورج لسبب واحد ووحيد: أن أتحدث معك. وكنت أفكّر في الأمر منذ بعض الوقت».

«نعم، جئت لتتحدث معي، كما قلت، ولكن لماذا؟ من السهل التحدّث معي، سهل جداً. أطفال المدرسة كلهم يعلمون هذا. إنهم يقولون ـ من السهل التفاهم مع آيزاكس». ومن جديد ابتسم، الابتسامة الملتوية السابقة نفسها. «إذن مع من جئت تتحدث حقاً؟».

الآن بات متأكداً: إنه يكره هذا الرجل، ويكره ألاعيبه.

نهضَ واقفاً، وأخذ يتمشّى باضطراب في أرجاء غرفة الطعام الخالية وفي الممر. ومن خلف الباب الموارب سمع أصواتاً خافتة. دفع الباب حتى فتحه. شاهد ديزيريه وأمها جالستين على السرير، تفعلان شيئاً بشلَّةٍ من الصوف. دُهِشتا لدى مرآه، وشملهما الصمت.

بحركةٍ طقوسيّة خرَّ على ركبتيه ولمس الأرضية بجبينه.

أيكفي هذا؟ قال لنفسه. أيفي بالغرض؟ إن كان لا، فماذا يفعل أكثر؟.

رفع رأسه. كانت الاثنتان ما تزالان جالستين في مكانهما، متجمّدتين. قابلت عيناه عينيّ الأم، ثم عينيّ الابنة، ومن جديد شعر بدفقِ الوجيب، بدفق الرغبة.

نهضَ واقفاً على قدميه، بحركاتٍ صارّة أكثر مما كان يرغب. قال «أسعدتما مساءً. شكراً لكما على لطفكما. وشكراً على الطعام».

عند الساعة الحادية عشر رنَّ جرس الهاتف في غرفته في الفندق. كان آيزاكس» إنني أتّصل لأتمنى لك التحلّي بالقوة لمواجهة المستقبل»، ثم سكت. «عندي سؤال لم يُتَح لي أن أطرحه عليك، مستر لري. هل تريد منا أن نتوسّط لصالحك مع الجامعة؟».

«تتوسّطوا؟».

«نعم. لإعادتك إلى منصبك، مثلاً».

«لم تخطر هذه الفكرة ببالي. لقد قطعتُ صلتي بالجامعة».

«لأن الدرب التي تسير عليها هي التي قدّرها الله لك. وليس من حقنا أن نتدخّل في ذلك».

«مفهوم».

عشرون

عاد إلى كيب تاون إلى المنزل رقم 2. كان قد غاب عنها مدة تقلّ عن ثلاثة أشهر، ومع ذلك كانت أكواخ المستوصفات في تلك الأثناء قد تجاوزت الطريق العامة وانتشرت إلى الشرق من المطار. واضطر سيلُ السيارات أن يخفّف من سرعته ريثما يعيد طفلٌ يحمل عصا بقرةً شاردةً عن الطريق إلى القطيع. قال في نفسه، إن الريفَ يقتربُ بعنادٍ من المدينة. وقريباً سنرى الماشية من جديد في ملاك روندبوش: قريباً سيُكمِل التاريخ دورته.

إذن عاد إلى الوطن. لا يشعر أنها عودةٌ إلى أرض الوطن. لا يتصوّر نفسه مقيماً مرة أخرى في المنزل الكائن في طريق تورانس، في ظل الجامعة، يتسلّل خِلسةً كمجرم، متفادياً زملاءه القدامى. يجب أن يبيع المنزل، أن ينتقل إلى شقة أرخص نوعاً ما.

كانت أوضاعه الماليّة مضطربة. فهو لم يسدِّد أي فاتورة منذ أن رحل، ويعيش بالدين؛ ورصيده أوشك أن ينضب.

انتهى الطواف. وماذا بعد انتهاء الطواف؟ إنه يرى نفسه، أبيض الشعر، محنيّ الظهر، يجرُّ قدميه إلى الدكان الكائن عند منعطف الشارع ليشتري نصف ليتر من الحليب ونصف رغيف من الخبز؛ يرى نفسه جالساً بانشداه على طاولة مكتب في غرفة مملوءة بأوراقٍ مصفرّة، ينتظر حلول بعد الظهر حتى يهرع إلى المنزل ويعدَّ لنفسه وجبة العشاء ومن ثم يأوي إلى السرير. إنها حياة فقيه متقاعد، بلا أمل، وبلا مستقبل: أهذا ما يريده من الاستقرار؟.

فتح البوابة الأمامية. نباتات الحديقة أفرطت في النمو، وصندوق البريد محشو حتى آخره بالنشرات الدعائية والإعلانات. وعلى الرغم من أن المنزل محصّن بأغلب المعايير، فإنه ظل خاوياً على مدى أشهر: كان من الصعب تصوّر أن أحداً لم يقُم بزيارته والحقيقة هي أنه حالما فتح الباب الأمامي وشمَّ الهواء علم أن ثمة خطباً. وبدأ قلبه يضرب بإثارة عليلة.

سمعَ صوتاً. كائناً مَنْ كان قد رحلَ. ولكن كيف دخلوا؟ أخذ يتنقّل من غرفةٍ إلى أخرى على أطراف أصابع قدميه، وسرعان ما عرف كيف. لقد انتزعت القضبان الحديدية الموجودة على إحدى النوافذ الخلفية من الجدار ثم أعيد ثنيها، وهُشِّمَ زجاجها، تاركاً فجوة تكفي لمرور طفلٍ أو حتى رجل ضئيل الحجم. وكان دِثارٌ من أوراق النبات والرمال حملته الرياح قد تيبَّسَ على الأرضية.

أخذ يتجوّل في أرجاء المنزل وهو يُحصي المفقودات. كانت غرفة نومه قد فُتِّشتْ بدقّة، والخزانات مفتوحة وخاوية. وجهاز التوزيع الموسيقي قد اختفى، ومعه أشرطته واسطواناته وجهاز الحاسوب. وفي غرفة مكتبه كانت الطاولة وخزانة الملفات قد فُتحتْ بالكسر؛ والأوراق بُعثِرَتْ في كل مكان. وكان المطبخ قد جُرِّدَ تماماً: سكاكين الأكل، الأواني الفخارية،والأدوات الصغيرة الحجم. ومخزونه من المشروبات نُهِبَ. حتى الخزانة التي كانت تحتوي المعلبات كانت فارغة.

سرقة غير عادية. إنه فريقُ إغارةٍ انتقل إلى هنا، ونظَّفَ الموقع كله، ثم خرج محمّلاً بالأكياس، والصناديق، والحقائب. غنيمة؛ تعويضات حرب؛ حادثة أخرى في خضم حملة إعادة توزيع الثروة العظمى. مَنْ في هذه اللحظة ينتعلُ حذاءه؟ هل وجد بيتهوفن وياناتشيك[1] منازل لهما أم أنهما رُميا في مقلب الزبالة؟

(1) ليوش ياناتشيك (1854 - 1928): موسيقي تشيكي. تأثّرَ بالتراث الشعبي. له أوبرات.

فاحت من الحمّام رائحة كريهة. إنها حمامة، حُبِسَتْ في المنزل، ونفقت في حوض الاستحمام. رفع كتلة العظام والريش بحذر شديد ووضعها داخل علبة بلاستيك صغيرة وأحكم إغلاقها.

التيار الكهربائي مقطوع، ولا حرارة في الهاتف. إذا لم يتصرَّف سوف يقضي الليل وسط الظلام. لكنه شديد الإحساس بالإحباط وعاجز عن العمل. قال في نفسه، ليذهب كل شيء إلى الجحيم، ثم غاص في أحد الكراسي وأغمضَ عينيه.

عند بدء غروب الشمس نهضَ وغادر المنزل. كانت أوائل النجوم قد سطعت. شقَّ طريقه خلال شوارع خالية، خلال حدائق تعبق بعطر زهر رعي الحمام والنرجس الأسلي، متوجّهاً إلى حرم الجامعة.

كان ما يزال يحتفظ بمفاتيح مبنى كلّية الاتصالات. وقتٌ مناسبٌ للجوسِ كالشبح: الأروقةُ مقفرة. استقلَّ المصعدَ إلى غرفةِ مكتبهِ في الطابق الخامس. الرقعة التي كانت تحمل اسمه على بابه أُزيلت، وأصبح الاسم الجديد هو د.س أوتو. ومن تحت عقب الباب تسرَّبَ ضوءٌ خافت.

قرع الباب. لا صوت. فتح الباب بالمفتاح ودخل.

كانت الغرفة قد تبدّلت. كتبه وصوره اختفت، تاركةً الحائط عارياً فيما عدا صورة فوتوغرافيّة بحجم مُلصَقٍ جداريّ مأخوذ من كتابٍ هزليّ: سوبرمان مطأطئاً رأسه بينما لويز لين توبّخه.

خلف الحاسوب، وفي العتمة، جلس شاب لم يكن قد رآه من قبل. الشاب عابس. سأله: من أنت؟.

«أنا ديفيد لري».

«نعم؟ ثم؟».

«جئتُ لآخذ بريدي. كانت هذه غرفة مكتبي»، وكاد يضيف: *في الماضي*.

«أوه، حسن، ديفيد لري. آسف، لقد تصرّفتُ بإهمال. وضعته كله في صندوق، مع أغراضٍ أخرى تخصّك عثرتُ عليها»، ولوّحَ بيده «هناك».

«وكتبي؟».

«كلها في الطابق السفلي في غرفة التخزين».

حملَ الصندوق. قال «شكراً لك».

قال د. أوتو الشاب «لا بأس. أتستطيع أن تحمله؟».

حمل الصندوق إلى المكتبة، بنيّةِ فرز بريده. ولكن حين وصل إلى حاجز المدخل رفضت الآلة أن تقبل بطاقته. واضطرَّ أن يقوم بعملية الفرز على مقعد عام في البهو.

* * *

كان من شدة القلق بحيث جافاه النوم. وعند الفجر انطلقَ إلى سفح الجبل ليقوم بمسير طويل. كانت قد أمطرتْ، وكانت الجداول فيوضاً. أخذ يستنشق عبير الصنوبر المُسكِر. اليوم هو رجلٌ حرّ، غير مسؤول إلا عن نفسه. والوقت متوفّر له ليمضيه كيفما يشاء. المشاعر غير مستقرّة، لكن رأى أنه سيتعوَّد على ذلك.

إن الفترة التي أمضاها مع لوسي لم تحوّله إلى قرويّ. ومع ذلك، ثمة أشياءٌ يفتقدها ـ مجموعة البط، مثلاً: البطة الأم تتنقّل بمسارٍ متعرِّج على سطح السد، وصدرها منتفخ فخراً، بينما إيني، وميني، ومني، ومو[1]، يجدِّفون بنشاطٍ خلفها، مطمئنّين إلى أنه طالما هي موجودة هم آمنون من كل أذى.

أما الكلاب، فلم يرغب في التفكير فيها. وبدءاً بيوم الاثنين سوف

(1) إيني، وميني، ومِني، ومو: في الأصل هم أولاد أخ العم دونالد دك، في مجلة الأطفال الشهيرة «ميكي». ويُقصدُ منها عموماً صغار البط.

يرمي الكلاب التي فارقت الحياة داخل جدران المستوصف إلى النار بلا ختم، بلا حزن. هل سيحظى بالغفران لهذه الخيانة؟.

عرَّجَ على المصرف، وأودعَ كمية كبيرة من الملابس القذرة المصبغة. وفي الدكان الصغير الذي ظل طوال سنوات يشتري منه قهوته تظاهرَ مساعد صاحب المحل أنه لم يتعرّف عليه. وجارته، التي كانت تسقي الحديقة، تعمّدت أن تعطيه ظهرها.

تذكّر وليم ووردسوورث لدى أول إقامة له في لندن، وكيف شاهد عرضاً إيمائياً، وشاهد جاك قاتل العملاق يقطع خشبة المسرح مرحاً، ملوّحاً بسيفه، تحميه كلمة «لا مرئي» مكتوبة على صدره.

في المساء اتّصلَ هاتفياً بلوسي من هاتفٍ عام. قال «فكّرتُ في أن أتّصل بك لعلك تكونين قلقة عليّ. أنا على ما يرام. أعتقد أنه سيستغرق مني الاستقرار بعض الوقت. أتجوّلُ في أنحاء المنزل مقرقعاً مثل حبة بازلاء في زجاجة. أشتاقُ إلى البط».

لم يأتِ على ذكر الإغارة على المنزل. ما فائدة تحميل لوسي عبء مشاكله؟».

سألها: «وبتروس؟ هل يرعى أمورك، أم أنه ما زال مشغولاً في بناء منزله؟».

«بتروس يساعدني. الكل يساعدني».

«حسن، أستطيع أن أعود في أي وقت تحتاجينني. فقط اطلبي».

«شكراً لك، ديفيد. ربما ليس في الوقت الحاضر، ولكن ذات يوم».

مَنْ كان يخمّن، حين ولدتْ طفلته، أنه سيأتي وقت يتوسّلُ فيه إليها أن تقبله عندها.

* * *

حين ذهب ليتسوَّق من المجمَّع التجاري وجد نفسه واقفاً في طابور خلف أيلين وينتر، رئيسة القسم الذي كان يعمل فيه. كانت تحمل كميات هائلة من المشتريات، بينما كان هو يحمل سلّةً يدوية. ردّت على تحيّته بعصبية.

سأل، محاولاً قدر استطاعته أن يكون مرحاً «وكيف تسير أمور القسم بدوني؟».

«*جيدة جداً* ـ» كان هذا جديراً بأن يكون الجواب الأكثر صراحةً: «*إن أمورنا تسير على أحسن ما يرام بدونك*». لكنها كانت أشدَّ تهذيباً بحيث تقول ذلك. فأجابت بغموض «أوه، نواصلُ الكفاح كالمعتاد»

«هل تمكّنتم من تعيين أحد؟».

«قبلنا شخصاً واحداً، على أساس عقد. شاب صغير».

كان يمكن أن يجيب «قابلته»، ومن ثم أن يضيف «مجرد *أير* صغير». لكنه تربّى تربية حسنة جداً، فسأل بدل ذلك، «ما اختصاصه؟»

«دراسات تطبيقية في اللغة. إنه يعملُ في قسم تعلُّم اللغة»

كفانا شعراء، كفانا أساتذة موتى. كان ينبغي أن يقول، الذين لم يُحسِنوا قيادتنا. *أليتر*، الذي لم يُحسِن الإنصات إليه.

المرأة التي تتقدمهم في الطابور تأخذ وقتها في تسديد الثمن. ما يزال أمام ألين متّسعٌ من الوقت لتطرح سؤالاً، كان ينبغي أن يكون، «*وكيف حالك، ديفيد؟*»، وكان عليه أن يجيب: «*جيد جداً، ألين جيد جداً*».

بدل ذلك اقترحت، مشيرة إلى سلته، «ألا تريد أن تتقدمني؟ إن مشترياتك قليلة جداً».

أجاب: «لن أسمح لنفسي بذلك أبداً، ألين»، ثم أخذ يستمتع في مراقبتها وهي تُفرِغ مشترياتها على النُضُد: ليس فقط خبزاً وزبداً بل الأشياء

الصغيرة اللذيذة التي تكافئ بها المرأة تسكن وحدها نفسها ـ ومثلجات كاملة الدسم (مع لوز وزبيب أصليَيْن)، وكعك صغير محلّى مستورد من إيطاليا، وقضبان من الشوكولاة ـ بالإضافة إلى حزمة من الفوَط الصحية.

دفعت الحساب ببطاقة ائتمان. ومن الطرف البعيد للحاجز لوّحت له مودعة. كان شعورها بالارتياح جلياً. هتف لها من فوق رأس المحاسب «الوداع! بلّغي سلامي إلى الجميع!». ولم تنظر خلفها.

* * *

في التصوُّر الأولي للأوبرا أن شخصيتها المحورية هي لورد بايرون وعشيقته الكونتيسة جيوتشيلي. يؤسَرْ في فيلا جيوتشيلي في حرارة صيف راقينا الخانق، يتجوّلُ الاثنان في أرجاء غُرف الجلوس الكئيبة يعبِّران غناءً عن ولههما المحبَط، بينما زوج تيريزا الغيور يتجسّس عليهما. تشعر تيريزا أنها أسيرة؛ ويخنقها الشعور بالامتعاض وتلحُّ على بايرون ليحملها ويرحل بها إلى حياة أخرى. أما بايرون، فتنتابه الشكوك إلا أنه من التعقُّل بحيث لا يبوح بها. إنه يشكّ في أن تتكرر موجات نشوتهم الأولى. وتهدأ حياته، ويبدأ بشكل غامض يشتاق إلى العزلة الهادئة، وحين يفشل في نيل ذلك، يتوق إلى التمجيد، إلى الموت. ولا تنجح آريات تيريزا المحلّقة في إشعال أي شرارة فيه. ويسير خط غنائه، غامضاً، ملتفّاً، يتجاوزها، يتجاهلها، يتخطاها.

هكذا تصوَّرَ العملَ: أشبه بمسرحية الغرفة تدور عن الحب والموت، تضمّ امرأة شابة مشبوبة العاطفة ورجلاً عجوزاً كان ذات يوم ملتهب العاطفة وأصبح الآن أقلّ عاطفيّة؛ وأيضاً كعملٍ مسرحي تدعمه موسيقى معقّدة، قلقة، يغنّى بلغةٍ إنكليزية تناضل باستمرار للاقتراب من إيطاليةٍ متخيَّلة.

من الناحية التقليدية نقول، إن التصوّر ليس سيئاً. الشخصيات متوازنة جيداً: الشخصيتان الأسيرتان، العشيقة المنبوذة تضرب على النوافذ بقوة، والزوج الغيور. والفيلا أيضاً، وقرود بايرون المدللة المتدلّية بتكاسل من الثريات

وطواويس تتجول في المكان مثيرة الجلبة بين قطع الأثاث المزخرفة على الطراز النيابوليتاني، تشكّل مزيجاً ملائماً للتعبير عن انعدام الزمن والانحطاط.

ومع ذلك، أولاً في مزرعة لوسي والآن من جديد هنا، فشل المشروع في أن يأخذ بمجامع قلبه. ثمة شيء فيه لم يُحسِن تصوّره، شيء لا ينبع من القلب. هناك امرأة تشكو همّها إلى النجوم فيضطرها تجسُّس الخدم إلى أن تلجأ وعشيقها إلى التنفيس عن رغباتها في مختلى - مَنْ يهتمُّ بهذا؟ إنه يستطيع أن يعثر على كلمات تصلح لبايرون، لكن كلمات لتيريزا التي أورثها له التاريخ - شابة، نهمة، عنيدة، شكسة - لا تتماشى مع الموسيقى التي حلُمَ بها، موسيقى كان يسمع تناغماتها، الخريفية، المترفة ولكن المحفوفة بالسخرية، مبهمة في أذنه الداخلية.

حاولَ في مسار مختلف. تخلّى عن صفحات النوتات التي دوّنها، وتخلّى عن الشخصية المفعمة بالنشاط، المتزوجة حديثاً وقبل الأوان من حبيبها السير الإنكليزي المحترم الأسير، وحاولَ أن يبدأ مع تيريزا من منتصف العمر. وتيريزا الجديدة أرملة ضئيلة الحجم وممتلئة تقيم في فيلا غامبا مع والدها الطاعن في السن، تدير المنزل وتقتصد حتى الشحّ، تظل يقظة مخافة أن يسرق الخدم السكّر. وبايرون، في نسخته الجديدة، مات منذ زمن بعيد؛ ومطلب تيريزا الباقي الوحيد لتحظى بالخلود، وعزاء لياليها الموحشة، هو ملء صندوق من الرسائل والتذكارات الصغيرة تحتفظ بها تحت سريرها، وتسمّيها رُفات، سوف تفتحها حفيدات إخوتها بعد موتها ويقرؤونها برهبة.

هل هذه هي البطلة التي كان يبحث عنها طوال الوقت؟ وهل ستأخذ تيريزا بمجامع قلبه كما هو عليه قلبه الآن؟أير

إن مرور الزمن لم يكن رفيقاً بتيريزا. إنها بصدرها الثقيل، وجذعها الضخم، وساقيها المُختصرتين، تبدو أشبه بفلاحة، أو *Contadina*، منها بأرستقراطية. والبشرة التي كان بايرون قد أبدى ذات مرة إعجابه بها قد

أضحت محمرّة؛ في الصيف تنتابها نوبات من الربو تجعل أنفاسها تجيش.

في الرسائل التي بعث بها بايرون إليها ناداها بـ *صديقتي*، *ثم حبيبتي ثم حبيبتي إلى الأبد*. ولكن هناك رسائل منافسة، رسائل لا تطالها يدها لتضرم النار فيها. في تلك الرسائل، الموجّهة إلى صديقاته الإنكليزيات، يصنّفها بايرون بوقاحة بين انتصاراته الإيطالية، ويطلق نكاتاً حول زوجها، ويلمّح مداورة إلى نساءٍ من محيطها سبق أن ضاجعهن. خلال السنوات التي تلتْ وفاة بايرون، أخذت صديقاته واحدة بعد أخرى تكتب مذكراتها، مستفيدات من رسائله. وبعد اغتصابه للصبيّة تيريزا من زوجها، تبدأ القصة التي يروينها، إذ سرعان ما ملّها بايرون، وجدها خرقاء؛ وظل معها فقط من باب الإحساس بالواجب؛ ولم يبحِر إلى اليونان وبالتالي إلى حتفه إلا هرباً منها.

آلمها تشهيرهن بها حتى الصميم. والسنوات التي أمضتها مع بايرون شكّلت ذروة حياتها. وحب بايرون هو كل مدخراتها. وبدونه هي لا شيء؛ امرأة تجاوزت ريعان شبابها، وبلا آمال، تعيش أيامها في بلدة ريفية مملّة، تتبادل الزيارات مع صديقات، تدلّك ساقيّ والدها حين تؤلمانه، وتنام وحدها.

هل يجد في قلبه مكاناً لحب هذه المرأة العادية، المبتذلة؟ هل يحبها إلى درجة أن يؤلّف موسيقى لأجلها؟ وإذا كان لا يستطيع، فماذا تبقّى له؟أير

ثم عاد إلى ما ينبغي الآن أن يكون المشهد الافتتاحي. إنه نهاية يوم قائظ آخر. تيريزا واقفة عند نافذة الطابق الثاني من منزلها والدها، تطلّ على مستنقعات وشجيرات الصنوبر في رومانيا تواجه الشمس وانعكاسها يتلألأ على صفحة الأدرياتيك. ينتهي الاستهلال؛ سكون؛ تأخذ نَفَساً. تغنّي *Mio Byron*. ويرين صمت. تهتف من جديد، وبقوة أشدّ *Mio Byron*.

أين هو، أين حبيبها بايرون؟ بايرون ضاع، هذا هو الجواب. بايرون يتجوّل بين الظلال. وهي أيضاً ضاعت، تيريزا التي أحبها، ابنته التاسعة عشر بحلقات شعرها الأشقر التي وهبت نفسها بفرحٍ غامرٍ للإنكليزي المتعجرف، متنفساً بعمق، وينعس بعد أن انتهى من إشباعٍ رغبته العارمة.

تنادي للمرة الثالثة *Mio Byron*؛ ومن مكان ما، من كهوف تحت الأرض، يجيبها صوتٌ، متموِّجاً ومتحرراً من الجسد، صوت شبح، صوت بايرون. يصدح *أين أنت*؟؛ ثم تأتي كلمة لا تريد أن تسمعها: *secca*. نَضَبَ. *نضب معين كل شيء*.

إن صوت بايرون شديد الوهن، شديد التداعي حتى أن تيريزا تضطر إلى أن تردّد كلماته لتساعده، تساعده نَفَساً بعد نَفَس، لتعيده إلى الحياة: طفلها، فتاها. تغنّي أنا هنا، تدعمه، تنقذه من انحداره إلى أسفل «***أنا نبعك. أتذكر كيف زرنا معاً نبع أركوا؟ معاً، أنت وأنا. كنت حبيبتك لاورا. أتذكر؟***»

هكذا يجب أن يكون الأمر من هنا فصاعداً: تيريزا تبوح لعشيقها، وهو، الرجل في المنزل المنهوب، يبوح بمكنوناته لتيريزا. الأعرج يعين الكسيح، لغياب ما هو أفضل.

حاول، وهو يعمل بأقصى سرعة، ومتشبثاً بتيريزا، أن يدوّن على عجل الصفحات الافتتاحية من الحوار المغنَّى. قال يأمر نفسه، ضع الكلمات على الورق. ما أن يتمّ هذا العمل حتى يغدو كل شيء آخر أسهل. بعدئذ سيتوفّر وقتٌ للبحث في أعمال الأساطين - في أعمال غلوك[1]، مثلاً - يستمدُّ منها ألحاناً، ربما - من يدري؟ - وقد يستمد أفكاراً أيضاً.

---

(1) كر يستوف فيليبالد غلوك (1714 - 1787): موسيقي ألماني. مؤلِّف للأوبرا بشكل رئيسي. ابتكر أسلوباً جديداً في التأليف الأوبرالي على الطريقة الإيطالية، والفرنسية أيضاً. اتّسمت موسيقاه بالبساطة.

ولكن شيئاً فشيئاً، حالما بدأ يعيش أيامه حتى الثمالة مع تيريزا وبايرون المتوفى، أخذ يتّضح أن الأغاني المسروقة لن تكون جيدة تماماً، وأن الاثنين سوف يتطلّبان موسيقى خاصة بهما. وكم كانت دهشته حين أخذت الموسيقى تأتيه قطرة فقطرة. أحياناً كان يتشكّل أمامه المحيط الخارجي لعبارة ما قبل أن تتكوَّن لديه أدنى فكرة عن الكلمات ذاتها؛ وأحياناً كانت الكلمات هي التي تستحضر الإيقاع؛ وأحياناً يلوح طيفُ نغمٍ، بعد أن يحوم طوال أيام على حافةِ السمع، ويتكشَّفُ ويأتي النعيم. وبينما الحدث يبدأ بالانبساط، أكثر فأكثر، يستدعي من تلقاء ذاته تعديلات نغمية، مقاطع انتقالية يشعر بها في دمه حتى حين لا تتوفّر لديه الموارد الموسيقية ليدركها.

جلس عند آلةِ البيانو وباشر العملَ في تجميع القطع الصغيرة وتدوين بدايات لحن. ولكن كان في صوت آلة البيانو شيء أعاقه: شديد الاكتمال، وملموس جداً، وشديد الثراء. ومن العلّيّة، من قفصٍ صندوقيّ مملوء بالكتب القديمة وبدمى لوسي، أخرج آلة البانجو الصغيرة الغريبة الشكل ذات الأوتار السبعة التي كان قد اشتراها لها من شوارع كواماشو وهي طفلة. وبعونٍ من آلة البانجو بدأ ينوِّتُ الموسيقى التي ستغنّيها تيريزا، تارة حزينة، وطوراً غاضبة، لحبيبها الميّت، وسوف يجيبها بايرون ذو الصوت الواهن من أرض الظلال.

كان كلما تَبِعَ الكونتيسة أعمق إلى عالمها تحت الأرضي، وهو يغني كلماتها نيابة عنها أو يهمهم بدورها المغنّي، أدهشه أن يزداد الرنين السخيف لآلة البانجو الدمية التصاقاً بها. إنه يتخلّى عن الآريات المحلِّقة التي حلم بإعطائها إياها؛ من هناك لم تبق له غير خطوة قصيرة ليضع الآلة بين يديها. وبدل أن تقطع تيريزا خشبة المسرح بتشامخ ها هي الآن تجلس وتحدّق عبر المستنقعات إلى بوابات الجحيم، وتهدهد آلة مندولين التي تصحبُ بعزفها تحليقات غنائها؛ في حين يقف ثلاثيّ متحفِّظ جانباً يرتدون بناطيل قصيرة (يعزفون على آلات التشيللو، والفلوت، والباسون) يملؤون بعزفهم فترات التوقّف بين الفصول أو يعلِّقون باقتضاب بين المقاطع الموسيقية.

جلس على طاولته يمدُّ بصره إلى الحديقة التي أفرطتْ نباتاتها في النمو، يتعجَّب مما يمكن لبانجو صغير أن يعلِّمه. قبل ستة أشهر كان يعتقد أن موقعه الطيفي في أوبرا «بايرون في إيطاليا «سوف يكون ما بين موقعيّ تيريزا وبايرون: بين التوق إلى إطالة أمد صيف الجسد المتّقد واستدعاءٍ على مضض من نومِ النسيان الطويل. لكنه كان مخطئاً. ليس العنصر المثير جنسياً ما يجذبه في المقام الأول، ولا الرثائيّ، وإنما الهزليّ. وهو في الأوبرا لا يمثّل تيريزا ولا بايرون ولا حتى أي مزيجٍ منهما: إنه مشدود إلى الموسيقى ذاتها، إلى الرنين التنكي، التفِه لأوتار البانجو، الصوت الذي يتوتّر لكي يحلِّق مبتعداً عن الآلة المضحكة لكن جماحه يُكبَح باستمرار، مثل سمكة عالقة في صنارة.

قال في نفسه، إذن هذا هو الفن، وهكذا يعمل! ما أغربه! ما أروعه!

أمضى أياماً بأكملها في قبضة بايرون وتيريزا، يقتات على القهوة المُرَّة وحبوب وجبة الإفطار. الثلاّجة فارغة، سريره مشوَّش، أوراق النباتات تتسابق عبر الأرضية متسلّلة من خلال زجاج النافذة المكسور. قال في نفسه، لا يهمّ: دع الموتى يدفنون موتاهم.

يغنّي بايرون بطبقة صوته الأجش الرتيبة، تسعة مقاطع من مقام دو طبيعي «***من الشعراء تعلَّمتُ الحب؛ أما الحياة فاكتشفتُ (ينخفض لوتيّاً إلى طبقة مقام فا) أنها مسألة أخرى. بلينك بلينك بلينك***»، **ترنُّ أوتار البانجو. ثم تغنّي تيريزا بتقوُّس صوتي طويل ومؤنِّب «*لماذا، أوه لماذا تتكلم هكذا؟*» *ترنُّ الأوتار بلينك بلينك بلينك*.**

تيريزا تريد الحب، الحب الخالد؛ تريد أن ترتقي لتنضم إلى صحبة أمثال لاورا وفلورا في الماضي السحيق. وبايرون؟ سيظلُّ بايرون مخلصاً حتى الموت، ولكن هذا كل ما سيعِدُ به. فليرتبط الاثنان إلى أن يموت أحدهما.

تُغنّي تيريزا «*يا حبيبي*» وتطيل مدَّ الكلمة الأحادية المقطع الإنكليزية

الضخمة التي تعلّمتها في سرير الشاعر. ويتردّد صدى الأوتار «*بلينك*». إنها امرأة عاشقة، تتمرّغُ في الحب؛ قطة على السطح، تموء مولولةً؛ تشكيلة من البروتينات تدوِّم في الدم، تضخِّم الأعضاء التناسلية، تجعلُ راحات الأكف تتعرّق والصوت يثخن بينما الروح تقذف أشواقها إلى عنان السماء. لهذا خُلِقَتْ ثريا والأخريات: ليمتصصن تشكيلة البروتينات من دمه كسُم الأفعى، ويتركنه صافي الذهن وناضباً. ولسوء حظ تيريزا أنها وهي في منزلَ والدها في رافينا ليس لديها من يمتصُّ لها سُمَّها. وتصرخ «*تعال إليّ*، حبيبي *بايرون، تعال إليّ، يا* حبيبي*!*» فيردُّ بايرون، المنفيّ من الحياة، الشاحب شحوب الأشباح، كلامها ساخراً «دعيني، دعيني، دعيني *وشأني!*»

قبل ذلك بسنين عدّة، وأثناء مقامه في إيطاليا كان قد قام بزيارة الغابة نفسها، التي تقع بين رافينا وامتداد الشاطئ الأدرياتيكي، حيث تعوّدَ بايرون وتيريزا قبل قرن ونصف من الزمان على أن يركبا الخيل. ولابد أن البقعة حيث رفع الرجل الإنكليزي للمرة الأولى طرف ثوب فاتنته ذات الثمانية عشر ربيعاً، وزوجة رجل آخر، كانت تقع في مكانٍ ما بين الأشجار. وكان في إمكانه أن يطير في الغد إلى البندقية، ويلحق بقطارٍ متوجه إلى رافينا، ويتمشّى على طول الدرب القديم لركوب الخيل، ثم يمرُّ بالمكان عينه. إنه يبدع الموسيقى (أو الموسيقى هي التي تبدعه) لكنه لا يبدع التاريخ. على دثارٍ من إبر الصنوبر هناك ضاجع بايرون عشيقته تيريزا - «الرعديدة كغزالة» كما وصفها - مجعّداً ثوبها، مدخلاً الرمل إلى ملابسها التحتية (والحصانان واقفان هناك طوال الوقت، غير مبالين)، ومن تلك الحادثة تولّدَ وَلَهٌ جعلَ تيريزا تعوي في وجهِ القمر طوال البقية الباقية من حياتها الطبيعية من أثر الحُمَّى مما دفعه بدورهِ إلى العواء، على طريقته الخاصة.

وتقوده تيريزا: فيلحق بها صفحة بعد صفحة. وذات يوم تصاعدَ من قلب الظلام صوتٌ آخر، صوت لم يكن قد سمعه من قبل، ولم يتَّكِل على سماعه. وعلم من فحوى الكلمات أنه لحنٌ سريع الإيقاع يخصُّ ابنة بايرون؛

ولكن من أي ركنٍ داخله يأتي؟ تقول كلمات اللحن السريع «*لماذا تركتني؟ تعال وخذني! أنا محمومة، محمومة، محمومة!* وتروح تشتكي بإيقاعٍ خاص بها قاطعَ بحِدّة وعلى الفور صوتيّ العاشقين.

لم يُجِبْ أحد على نداء ابنة الخمس سنوات المزعجة. إنها بغيضة، ولا يحبها أحد، حتى والدها ذاته يهملها، لقد نُقِلتْ من شخص إلى شخص إلى أن سُلِّمَتْ إلى الراهبات ليعتنين بها. تئنُّ «محمومة، محمومة، محمومة!» من السرير في الدير حيث كانت تحتضر متأثّرة بمرض الملاريا *la mal'aria*. «*لماذا نسيتني؟* »

لماذا لن يجيبها والدها؟ لأنه سئم الحياة؛ لأنه يفضِّل أن يعود إلى موطنه، على الضفة الأخرى للموت، ويغوص في نومه السابق. ويغنّي بايرون «*يا طفلتي الصغيرة المسكينة!*»، متردّداً، على مضض، وبصوتٍ شديد الخفوت ولا يمكن أن تسمعه. ويعزف العازفون الثلاثة، الجالسون في الظل جانباً، اللحن الأساسي السخيف، تارة يرتفع، وأخرى ينخفض، هذا هو شعر بايرون.

واحد وعشرون

اتصلت روزاليند به «تقول لوسي إنك عدت إلى البلدة. لماذا لم تتّصل بي؟». أجاب «لستُ مهيّئاً بعد للانخراط في المجتمع. علّقت روزاليند بجفاف» وهل كنت كذلك مرة؟»أير

تقابلا في مقهى في كليرمونت. لاحظت، قالت: «نقُصَ وزنك. ماذا حدث لأذُنك؟». أجاب «لا شيء»، ولم يزد على ذلك.

أثناء تبادل الحديث كان تحديق عينيها يعود باطراد إلى الأذن المشوّهة. كان متأكداً من أنها إذا لمستها فسوف ترتعش اشمئزازاً. إنها ليست من النمط الذي يمدّ يد العون وأفضل ذكرياته ما يزال يدور حول الأشهر الأولى لتلاقيهما: ليالٍ صيفية ملتهبة في دربن، وملاءات مشبّعة برطوبة العرق، وجسد روزاليند الممشوق والشاحب وهو يضرب هذه الناحية وتلك في نوبات من المتعة يصعب تفريقها عن نوبات الألم.اثنان منغمسان في الشهوة: هذا ما أبقاهما معاً، طالما أنها موجودة.

تحدّثا عن لوسي، وعن المزرعة. قالت روزاليند: «ظننتُ أنها تقطن مع صديقتها، غريس»أير

«بل هيلين. لقد عادت هيلين إلى جوهانسبرغ. أعتقد أنهما انفصلتا إلى الأبد».

«هل لوسي آمنة في ذاك المكان الموحش».

«لا، ليست آمنة، تكاد تجن لتشعر بالأمان. ومع ذلك سوف تبقى هناك. أصبح ذلك مسألة كرامة بالنسبة إليها».

«قلتَ إن سيارتك سُرِقَت».

«بسبب خطأ مني. كان ينبغي أن أكون أكثر حرصاً».

«نسيتُ أن أقول لك: لقد سمعت قصة محاكمتك. المحاكمة السرّية».

«محاكمتي؟».

«التحقيق معك. استجوابك، سمِّه ما شئت. سمعتُ أنك لم تبل بلاءً حسناً».

«أوه؟ كيف سمعتِ هذا؟ حسبتُ أن الأمر كان سرّياً».

«لا يهم. سمعتُ أنك لم تترك لديهم انطباعاً حسناً. كنتَ متصلّباً وفي موقف الدفاع عن النفس».

«كنتُ أحاولُ أن أترك انطباعاً معيّناً. كنتُ أتمسَّكُ بمبدأ».

«لعل الأمر كذلك، ديفيد، ولكن لابد أنك بتَّ تعلم الآن أن المحاكمات لا تتمُّ على أساس المبادئ، بل على أساس إقناعهم بنفسك. وطِبقاً لمصادري فإنك قد فشلتَ في ذلك. ما المبدأ الذي كنتَ تتمسَّكُ به؟».

«حريّة التعبير. حريّة التزام الصمت».

«يبدو كلاماً ضخماً جداً. لكنك لطالما كنت خادعاً كبيراً لنفسكَ يا ديفيد. مخادعاً كبيراً وخادعاً كبيراً لنفسك. أمتأكد أنت من أنها لم تكن مجرد قضية أنهم قبضوا عليك بدون سروال داخلي؟».

لم يأكل الطُعم.

«على أي حال، مهما كان المبدأ، فإنه كان مبهماً جداً بالنسبة إلى مستمعيك. لقد رأوا أنك لم تكن أكثر من مشوّشَ الذهن. كان ينبغي أن

تتلقّى مسبقاً بعض التدريب: ماذا ستفعل بشأن النقود؟ هل حرموك من معاشك التقاعدي؟».

«سوف أسترجع ما أودعْته. سأبيع المنزل. إنه كبير جداً عليَّ».

«ماذا ستفعل بوقتك؟ هل ستفتش عن عمل؟».

«لا أظن ذلك. إنني مشغول تماماً. أنا أؤلِّفُ عملاً».

«كتاباً؟».

«أوبرا، في الواقع».

«أوبرا! حسن، هذا رحيل جديد. آمل أن توفّرَ لك مبلغاً وفيراً من المال. هل ستنتقل لتعيشَ مع لوسي؟».

«الأوبرا مجرد هواية، شيء لتزجية الوقت، ولن تجلب لي نقوداً. ثم كلا، لن أنتقل لأعيش مع لوسي. لن تكون فكرة سديدة»

«ولم لا؟ لطالما كانت علاقتك بها جيدة. هل طرأ جديد؟»

كانت أسئلتها تطفُّليّة، لكن روزاليند لم تشعر مرة بأي وخز من ضمير بسبب كونها متطفّلة. وقد قالت له ذات مرة «لقد تقاسمنا سريراً واحداً طوال عشرة أعوام ـ فلماذا تحجب عني أسراراً؟»

أجابها: «إن صلتي بلوسي ما زالت حسنة، لكنها ليست جيدة كفاية لنعيش معاً».

«إنها قصة حياتك».

«نعم».

ران الصمت بينما كانا يتأملان، كلٌّ من وجهة نظره الخاصة، في قصة حياته هو.

قالت روزاليند، متفادية الموضوع. «إنني أقابل صاحبتك».

«صاحبتي؟».

«عشيقتك. ميلاني آيزاكس - أليس هذا هو اسمها؟ إنها تمثّل في مسرحية تُعرض على خشبة مسرح دوك. ألم تكن تعلم؟ أنا أتفهَّم سبب عشقك لها. عينان نجلاوان وسوداوان. جسدٌ صغير مراوغ وماكر. النمط الذي تحب. لابد أنك اعتقدتَ أنها ستكون إحدى علاقاتك السريعة، أو هفواتك. والآن انظر إلى نفسك. لقد ضيَّعتَ حياتك، ومقابل ماذا؟».

«حياتي لم تضع يا روزاليند. تعقّلي».

«لكنها ضاعت! لقد خسرتَ عملك، واسمك تمرَّغَ في الوحل، وأصدقاؤك يتجنّبونك، وأنت مختبئ في شارع تورانس كسلحفاة تخاف أن تبرز عنقها من قوقعتها. والذين لا يستحقون حتى أن يربطوا لك حذاءكَ أصبحوا يتنادرون حولك. قميصك غير مكويّ. ويعلمُ الله مَنْ الذي قصَّ لك شعرك، عليك أن -». وكبحت تقريعها المطوَّل. «سوف ينتهي بك الأمر إلى أن تغدو أحد أولئك العجائز الحزانى الذين يفتشون في صناديق القمامة».

قال: «سوف ينتهي بي الأمر إلى حفرة في الأرض. وأنتِ كذلك. وكلنا جميعاً».

«يكفي، ديفيد، إنني مستاءة من الأمر كما هو، ولا أريد أن أخوض في جدال» وراحت تلملم أغراضها، «حين تملُّ من أكل الخبز والمربى اتصل بي وسأعدُّ لك وجبة».

* * *

إيراد اسم ميلاني سبّب له الاضطراب. لم يكن مرّةً يميلُ إلى الارتباط الطويل الأمد. فحالما تنتهي إحدى العلاقات يرميها خلف ظهره. ولكن فيما يتعلَّق بميلاني كان ما يزال هناك شيء لم ينته بعد. ففي قرارة نفسه كانت رائحتها ما تزال تستكين، رائحة شريكة فراش. أتراها هي أيضاً تتذكر رائحته؟ لقد قالت روزاليند، التي لابد أنها تعرف «إنها النوع الذي تحب».

ماذا لو تقابلا من جديد، هو وميلاني؟ هل ستتوهج المشاعر، هل ستظهر إشارة تدلُّ على أن علاقتهما العاطفية لم تبلغ مداها؟.

غير أن فكرة استعادة علاقته بميلاني بحدّ ذاتها كانت مجنونة. ما الذي يدعوها إلى أن تتكلّم مع الرجل المُدان بتهمة مضايقتها؟ وكيف ستراه على أي حال ـ الأبله ذو الأُذُن المضحكة، والشعر المُرسَل، والياقة المجعّدة؟.

زواج كرونوس[1] وهارموني[2]: أمر شاذ. على هذا الأساس أصدرت المحكمة عقابها، إذا ما عرّينا الكلمات المنمّقة. لقد حوكم بسبب أسلوبه في الحياة، لأفعاله الشاذة: لأنه أعطى بذوراً عجوزاً، بذوراً منهكة، بذوراً خاملة، contra naturam غير طبيعية. فإذا ما نكح الرجال العجائز النساء الصغيرات، فماذا سيكون مستقبل الجنس البشري؟ هذه، في أعماقها، كانت القضية بالنسبة إلى المدّعي. إن نصف نتاج الأدب يدور حول هذا الموضوع: نساء صغيرات يجاهدن للإفلات من وطأة ثقل رجال عجائز عليهن، لصالح الجنس البشري.

تنهَّدَ. الشبان متشابكو الأذرع، طائشون، مستغرقون في الموسيقى الحسّية. هذا البلد ليس للعجائز. يبدو أنه يهدر الكثير من الوقت في التنهُّد. إنه الندم: نغمةٌ تدعو للأسف يبدأ بها من جديد.

* * *

حتى قبل سنتين كان مسرح دوك مخزناً بارداً تُعَلَّقُ فيه جثث الخنازير والثيران في انتظار نقلها عبر البحار. والآن أصبح مرْبعاً للتسلية الرائجة. وصل متأخراً، وجلس في الوقت الذي كانت الأضواء تُطفأ. «نجاحٌ ساحق،

---

(1) كرونوس: أو ساترن؛ أو زحل؛ أشهر عمالقة التاتيان في الأساطير اليونانية. خصى أباه وتزوج أخته.

(2) هارموني: في الأساطير اليونانية؛ ابنة آريس وأفروديت؛ تزوجها قدموس مؤسس طيبة. عرف أبناؤها شقاءً كثيراً.

أُعيدَ نزولاً عند رغبة الجماهير «: هكذا أعلن عن الإنتاج الجديد لمسرحية» عند الغروب في صالون غلوب». كان الإعداد أكثر حداثة، والإخراج أكثر حِرَفيّة، وكان هناك ممثّل جديد للقيام بالدور الرئيسي. ومع ذلك، وجد المسرحية، بفكاهتها الفظة ومرماها السياسي السافر، عسيرة الهضم كما كانت سابقاً.

احتفظت ميلاني بدور غلوريا، مصفَّفة الشعر المبتدئة. كانت ترتدي قفطاناً زهري اللون فوق ثوب من اللاميه[1] الذهبي، وكان وجهها قد بُرِّجَ بشكل مبهرج، وجُمِعَ شعرها على شكل دوائر فوق رأسها، وكانت تمشي على خشبة المسرح بحذاء عالي الكعب. الأسطر التي تقولها متوقّعة، لكنها تلقيها بتوقيت أنيق وبلكنة لغة الكابس kaaps المنتحبة. وكانت بصورة عامة أكثر ثقة بنفسها من ذي قبل - في الواقع، أجادت دورها، وكانت موهوبة حتماً. أيمكن أنها خلال أشهر غيابه قد نضجت، اكتشفت نفسها؟ ***إن ما لا يقتل يقوّي***. لعل المحاكمة كانت محاكمتها هي أيضاً؛ لعلها هي أيضاً عانت، وخرجت سالمة.

تمنّى لو يحصل على إشارة. لو يحصل على إشارة لعرف ماذا يفعل. لو أن تلك الملابس السخيفة، مثلاً، تحترق وهي على جسمها بلهبٍ سرّي بارد وتقف هي أمامه، برؤيا سرّية خاصة به، عارية وكاملة كما ظهرت في تلك الليلة الأخيرة في غرفة لوسي القديمة.

كان صانعو العُطل الرسمية الجالسين بينهم، المتورّدو الوجوه، المرتاحون بلحمهم الثقيل، يستمتعون بمشاهدة المسرحية. لقد أحبّوا ميلاني غلوريا؛ كانوا يضحكون ضحكاً مكبوتاً على النكات المكشوفة، ويضحكون ضحكاً هادراً حين تتاجر الشخصيات بالافتراءات والإهانات.

على الرغم من أنهم كانوا من أهل بلده، إلا أنه حينئذ كان يشعر

---

(1) اللاميه: ‌نسيجٌ تتخلّله خيوطٌ معدنيّة.

بالاغتراب الكامل بينهم، وبأنه مدّعي. ومع ذلك حين كانوا يضحكون على أقوال ميلاني لم يكن يستطيع أن يكبح نفحة الإحساس بالفخر. كان يودُّ أن يقول، ملتفتاً إليهم، وكأنها ابنته، «*إنها لي!*».

دون سابق إنذار استعاد ذكرى من سنين مضت: عن امرأة التقطها في الشارع رقم 1 خارج ترومبسبرغ ومن ثم أعادها إلى هناك، امرأة في عشرينات عمرها تسافر وحدها، سائحة من ألمانيا، محروقة بأشعة الشمس ومغبرّة. سارا حتى توز ريفر، ونزلا في فندق؛ قدّمَ لها طعاماً، وضاجعها. كان ما يزال يذكر ساقيها الطويلتين، النحيلتين؛ ونعومة شعرها، وملمسه الشبيه بملمس الريش بين أصابعه.

وفجأة، كانفجارٍ صامت، وكأنه سقط في حلمِ يقظة، تدفّق سيلٌ من الصور، صور نساء عرفهن في قارّتين، بعضها يعود عهده إلى زمن بعيد جداً حتى أنه بالكاد ميّزَ ما تحتويه. مرّت من أمامه، كأوراق أشجار تذروها الريح، مختلطة ومشوّشة.

حقلٌ جميل مملوء بالناس: مئات من الحيوات مشتبكة بحياته. حبسَ أنفاسه، رغبةً منه في أن تستمرّ الرؤيا.

ماذا حدث لهنَّ، كل تلك النساء، كل تلك الحيوات؟ هل مررن كلهنّ، أو بعضهن، أيضاً بلحظاتٍ غرقن خلالها وفجأة في خضم الذكريات؟ الألمانية: أيعقل أنها في هذه اللحظة بالذات تتذكر الرجل الذي التقطها من على قارعة الطريق في أفريقيا وأمضى ليلة معها؟.

أُخصِبَ: تلك كانت الكلمة التي انتقتها الصحف وسخرتْ منها. في ظل تلك الظروف، كان من الحماقة أن يتركها تفلت منه، أما الآن، في هذه اللحظة، فهو يدعمها. لقد أضحى أكثر خصباً، على يديّ ميلاني، وفتاة توز ريفر، وروزاليند، وبف شو، وثريا: على يديّ كل واحدة منهن، وأيدي

أخريات أيضاً، حتى أقلّهن شأناً، حتى علاقاته الفاشلة. وفاض قلبه بالامتنان كزهرة تتفتّح في صدره.

من أين تأتي لحظات كتلك؟ هي وليدة النوم، بدون شك؛ ولكن ماذا يفسّر ذلك؟.

إذا كان مُسيَّراً، فلماذا يقوده الله؟.

المسرحية مستمرة. لقد وصلت إلى النقطة حيث تعْلَق مكنسة ميلاني في سلك الكهرباء، ثم يومض ضوءُ المغنيزيوم، وفجأة تغرق خشبة المسرح في الظلام. وتزعق مصففة الشعر «*يا يسوع المسيح، أنتِ أيتها الخادمة الحمقاء!*».

كان يفصله عن ميلاني عشرون صفاً من المقاعد، لكنه تمنى لو أنها تستطيع في هذه اللحظة، وعبر الأثير، أن تشمّه، أن تشمَّ أفكاره.

شيءٌ ما ضربه ضربةً خفيفةً على رأسه، وأعادَه إلى العالم بعد برهةٍ من الزمن مرّ به شيء آخر بخفّة وارتطم بالكرسي الذي أمامه: كان كرةً صغيرة مصوغة من الورق بحجم كِلّة. كرة ثالثة ضربته على العنق. إنه مُستهدَف، لا شك في ذلك.

كان من المفروض أن يلتفت ويصبَّ جام غضبه، أن يعوي قائلاً: «*مَنْ فعلَ ذلك؟*». أو أن يحدِّق بجمود أمامه، متظاهراً بأنه لم يلاحظ شيئاً.

كُريّة رابعة ضربت كتفه ثم قفزت في الجو. اختلس الرجل المجاور نظرة حيرى.

على خشبة المسرح كانت حركةُ العمل قد تقدّمت. سيدني مصفِّف الشعر يفتح الظرف القاتل ويقرأ بصوتٍ عالٍ إنذار صاحب المحل. لديهم مهلة حتى نهاية الشهر ليسدّدوا ما عليهم من إيجار، فإذا ما فشلوا في ذلك سيضطرون إلى إغلاق الغلوب. تندب ميريام التي تغسل الشعر «ماذا سنفعل؟».

من خلفه يصدر هسيس «سسسس»، ناعماً بحيث لا يسمعه الجالسون في مقدمة المسرح. «سسسس».

التفتَ، فارتطمت الكريّة بجبينه. وإذا براين، صديقه ذو القرط واللحية الصغيرة المشذّبة، يقف مستنداً إلى الجدار الخلفي. تقابلت عيونهما. همس راين بصوتٍ أجش» بروفيسور لري!». على الرغم من سلوكه المشين، إلا أنه بدا مرتاحاً جداً. وكانت ابتسامة صغيرة ترتسمُ على شفتيه.

استمرتْ المسرحية، لكن حينئذ كان قد ساد حوله هرجٌ لا ريب فيه من الانزعاج. من جديد هسَّ راين «سس». هتفت امرأة على مبعدة مقعدين «سكوت!»، موجّهة كلامها له، مع أنه لم ينِدَّ عنه أي صوت.

كان عليه أن يكافح خمسة أزواج من الرُكَب ليمرّ («عفواً... عفواً»)، ونظرات نزقة، وغمغمات غاضبة، قبل أن يستطيع الوصول إلى الممشى بين الكراسي، ويشق طريقه إلى الخارج، ويظهر في الليل المعتم، العاصف.

سمع صوتاً خلفه. التفت. توهّج طرفُ سيجارة. كان راين قد لحقَ به حتى موقف السيارات.

قال بلهجة لاذعة: «هلا برّرتَ ما فعلت؟ هلا برّرت ذاك السلوك الصبياني؟».

سحب راين نَفَساً من السيجارة: «كنت فقط أقدِّم لك معروفاً، يا بروفيسور. ألم تتعلّم الدرس بعد؟».

«وماذا كان الدرس؟».

«الزم أشباهك من الناس».

أشباهك: مَنْ يكون هذا الفتى حتى يعرّفه مَنْ هم أشباهه؟ ماذا يعرفه عن القوة التي تدفع أشخاصاً غرباءَ تماماً عن بعضهم ليتعانقوا، وتجعلهم أنسباء، ومن طبيعة واحدة، متجاوزين كل احتراس؟ *الطيور على أشكالها تقع*. وبذرة جيلٍ ما تُدفَعْ إلى إكمال نفسها، تغوص عميقاً داخل جسد

المرأة، تندفع كي تُخرِج المستقبل إلى الوجود. تندفع، تُدفَع.

راين يتكلّم: «دعها وشأنها، يا رجل! إذا رأتك ميلاني فسوف تبصق في وجهك». رمى سيجارته، وتقدّم خطوة. تحت نجوم شديدة التلألؤ يعتقد المرء أنها تتلظى بالنار وقفا وجهاً لوجه. «جِدْ لنفسك حياة أخرى، يا بروفيسور. صدّقني».

* * *

قاد سيارة ببطء عائداً على طول الطريق الرئيسية في غرين بوينت *ستبصق في وجهك*: لم يتوقَّع هذا. يده المستقرة على عجلة القيادة ترتعش. صدمات الوجود: يجب أن يتعلَّم أن يتقبّلها بمزيدٍ من الاستخفاف.

السائرون في الشارع أعدادهم غفيرة؛ عند إشارة المرور تجذب إحداهن نظره، فتاة ممشوقة الطول ترتدي تنورة جلدية شديدة القِصَر وسوداء اللون. قال في نفسه، «*ولم لا، في ليلة الرؤى هذه؟*».

ركَنَا السيارة في زقاقٍ مسدود على منحدرات سيغنال هيل. كانت الفتاة ثملة أو ربما مخدّرة: لم يفهم منها أي كلام متناسق. ومع ذلك. قامت بعملها معه بقدر ما توقّع. بعد ذلك استلقت ووجهها في حضنه، يرتاح. كانت أصغر سناً مما بدت تحت أنوار الشارع، أصغر حتى من ميلاني، شعر بالنعاس، بالرضى؛ وشعر أيضاً بشكلٍ غريب بأنه يحميها.

قال في نفسه، *إذن هذا كل ما يتطلّبه الأمر! كيف نسيت ذلك؟*.

إنه ليس رجلاً شريراً لكنه ليس طيباً أيضاً. ليس بارداً ولكن ليس حاراً، حتى في أشدّ حالاته حرارة. ليس بمعيار تيريزا؛ ليس حتى بمعيار بايرون. إنه يفتقر إلى النار. هل سيكون هذا هو الحكم عليه، حكم الكون وعينه التي ترى كل شيء؟.

تنتفض الفتاة، تعتدل في جلستها، تتمتم: «إلى أين ستأخذني؟».

«سأعيدك إلى حيث وجدتك».

اثنان وعشرون

ظل على اتصاله بلوسي عبر الهاتف. وخلال أحاديثهما كانت تبذل جهداً مضنياً لتؤكّد له أن كل شيء على ما يرام في المزرعة، ويفعل هو الشيء نفسه ليوحي لها بأنه لا يشك قط في حسن تصرّفها. وتقول له إنها منهمكة في العمل في مساكب الزهور، حيث حصاد الربيع في أوجه الآن. رعاية الكلاب تنتعش. لديها كلبان إقامة كاملة وتأمَلْ في الحصول على المزيد. بتروس مشغول في بناء المنزل، ولكن ليس إلى درجة الإحجام عن مساعدتها. آل شو يترددان عليها باستمرار. لا، لا تحتاج إلى نقود.

لكن شيئاً في نبرة صوت لوسي كان يضايقه. اتصل هاتفياً ببف شو. قال: «أنت الوحيدة التي أستطيع أن أسألها. كيف حال لوسي، صدقاً؟».

أبدت بف شو الحذر «ماذا قالت لك؟».

«تقول إن كل شيء على ما يرام. لكنها تبدو أشبه بجثة حيّة. تبدو وكأنها تحت تأثير المهدّئات. أهي كذلك؟».

تفادت بف شو الإجابة. إلا أنها قالت ـ بدا أنها تنتقي كلماتها بعناية ـ أنه حدثت «تطورات».

«لا أستطيع أن أبوح، ديفيد. لا ترغمني. ينبغي على لوسي أن تخبرك بنفسها».

اتصل بلوسي. قال، كاذباً: «يجب أن أقوم برحلة إلى دربن، هناك

إمكانية أن أحصل على عمل. هل لي أن أتوقف عندك مدة يوم أو يومين؟».

«هل تحدثتَ مع بف؟».

«لا دخل لبف بهذا. هل آتي؟».

طار إلى بورت اليزابيث واستأجر سيارة. بعد مرور ساعتين خرج عن الطريق العامة إلى درب ترابية تؤدي إلى المزرعة، مزرعة لوسي، بقعة لوسي من الأرض.

هل هي أرضه أيضاً؟ لا يشعر أنها أرضه. على الرغم من المدّة التي أمضاها هنا، يشعر أنها أرضٌ أجنبية.

لقد حصلت تغيرات. ثمة سلك شائكٌ، لم يُنصَبْ ببراعة متميّزة، أصبح الآن يعيّن الحدّ الفاصل بين ملكيّة لوسي وملكيّة بتروس. في جانبِ بتروس كانت ترعى عجلتان عجفاوان. وأصبح منزلُ بتروس حقيقةً واقعة. يقوم، كئيباً وبلا ملامح، على مرتفعٍ من الأرضِ إلى الشرق من منزل المزرعة القديمة؛ وخمَّنَ أنه في أوقات الصباح يرمي ظلاً طويلاً.

فتحت لوسي الباب مرتدية رداءً فضفاضاً لحماية الملابس من الاتساخ، لا شكل له، ويمكن أيضاً أن يصلح مبذلاً ليلياً. كانت سِمةُ النشاط والصحة الجيدة القديمة قد فارقتها. وأصبحت بشرتها شاحبة، ولم تكن قد غسلت شعرها. بادلته العناق بلا حرارة. قالت: «تفضّل، صنعتُ شاياً للتو».

جلسا معاً على طاولة المطبخ. صبّت الشاي، وناولته علبة من بسكويت الزنجبيل. قالت «أخبرني عن عرض مدينة دربن».

«يمكنه أن ينتظر. إنني هنا يا لوسي لأني قلق عليك. هل أنت على ما يرام؟».

«أنا حُبلى».

«أنتِ ماذا؟».

«أنا حُبلى».

«ممّن؟ منذ ذلك اليوم؟».

«منذ ذلك اليوم».

«لا أفهم. حسبتُ أنكِ أخذتِ حذرك من الأمر، أنتِ والطبيب العام».

«لا».

«ماذا تعنين بـ لا؟ تقصدين أنك لم تأخذي حذرك؟».

«أخذتُ حذري. أخذت كلَّ حذرٍ معقول ما عدا ما تشير إليه. لكني لن أجري عملية إجهاض. هذا أمرٌ لستُ مستعدة أن أعانيه من جديد».

«لم أكن أعلم أن هذا كان شعورك. لم تخبريني قط أنكِ لا تؤمنين بالإجهاض. على أي حال، ما الداعي لطرح مسألة الإجهاض؟ حسبت أنك تناولتِ أوفرال».

«الأمر لا علاقة له بالإيمان. وأنا لم أقل قط أني تناولت أوفرال».

«كان يمكن أن تخبريني في وقت مبكّر. لماذا أخفيتِ الأمر عني؟».

«لأني لم أكن لأحتمل مواجهة إحدى ثورات غضبك. ديفيد، لا أستطيع أن أدير حياتي وفقاً لموافقتك أو عدمها لما أفعل. لم أعد أحتمل. إنك تتصرّف وكأن كل ما أفعل هو جزء من حياتك. أنت الشخصية الرئيسية، وأنا شخصية ثانوية لا تظهر إلا في منتصف الحكاية. حسن، خلافاً لما تظن، الناس ليسوا مقسّمين إلى أساسيين وثانويين، وأنا لستُ شخصية ثانوية. أنا لدي حياتي الخاصة، وهي لا تقلّ أهمية بالنسبة إليّ عن حياتك بالنسبة إليك، وفي حياتي الخاصة أنا التي تتخذ القرارات».

ثورة غضب؟ أليست هذه ثورة غضب من جانبها؟ قال وهو يمسك بيدها عبر الطاولة: «يكفي، لوسي. هل أفهم من كلامك أنك تنوين أن تحتفظي بالطفل؟».

«نعم».

«طفل من أحد أولئك الرجال؟».

«نعم».

«لماذا؟».

«أتسأل لماذا؟ أنا امرأة، ديفيد. أتظن أني أكره الأطفال؟ أيتوجب عليّ أن أرفض الطفل بسبب ما هو عليه والده؟».

«أصبح الأمر معروفاً. متى ستلدين؟».

«في أيار. في نهاية أيار».

«وقرارك نهائيّ؟».

«نعم».

«عظيم. أعترف بأني صُدِمتُ للأمر، لكني سأساندك، مهما كان قرارك. لا جدال في هذا. الآن سأخرج لأتمشّى. سوف نعاود الحديث لاحقاً».

لماذا لا يتحدثان الآن؟ لأنه مصدوم، لأن هناك مجازفة في أن يثور غضبه هو أيضاً.

قالت إنها ليست مستعدة لخوض التجربة من جديد. إذن فقد أجرت من قبل عملية إجهاض. ما كان ليخمِّن أنها فعلت. متى أجرتها؟ حين كانت ما تزال تعيش في الوطن؟ هل كانت روزاليند تعلم، وأخفت الأمر عنه؟.

عصابة من ثلاثة رجال. ثلاثة آباء مجتمعين في واحد. مغتصبون أكثر منهم لصوص، كما وصفتهم لوسي ـ مغتصبون اجتمعوا معاً وراحوا يمشّطون المنطقة، يغتصبون النساء، وينغمسون في متعهم العنيفة. حسن، كانت لوسي على خطأ، لم يكونوا يغتصبون، كانوا يتزوجون. لم يكن مبدأ اللذة هو

الذي يحكم العرض وإنما الخُصى، أكياسٌ منتفخة بنُطَفٍ تتوجّع لتحقق اكتمالها. والآن، انظروا، ها هو الطفل!. إنه يسمّيه طفلاً مع أنه ليس أكثر من دودة في رحم ابنته. أي نوعٍ من الأطفال يمكن لنطفةٍ كتلك أن تنتج، نطفة وُضِعَتْ داخل امرأة ليس بفعل الحب، وإنما بفعل الكراهية، اجتمعوا عمائيّاً، لبذرها، لدمغها، كبول كلب؟.

والد ليست لديه أي رغبة في الحصول على ابن: أهكذا سينتهي الأمر، أإلى هنا ستفضي مسيرته، مثل ماء يقطُر على الأرض؟ مَنْ كان يظن أن هذا سيحدث! إنه يوم كغيره من الأيام، سماءٌ صافية، وشمسٌ معتدلة الحرارة، ولكن فجأة تغيّر كل شيء، تغيّر تغيُّراً كاملاً!.

وقف مستنداً إلى الجدار خارج المطبخ، مُخفياً وجهه براحتيّ يديه، وأخذ يجيش ويجيش وأخيراً بكى.

* * *

نزل في غرفة لوسي القديمة، التي لم تكن قد استعادتها. وطوال فترة ما تبقّى من فترة بعد الظهر تجنّبَ لقاءها، خشية أن يصدر عنه قول طائش.

على مائدة العشاء ظهرت مفاجأة جديدة. قالت «بالمناسبة، الفتى عاد».

«الفتى؟».

«نعم، الفتى الذي تشاجرتَ معه في حفلة بتروس. إنه يقيم مع بتروس، يساعده. واسمه بولوكس».

«ليس منيسيديسي؟ ليس نكابابايخه؟ ولا أي من الأسماء العصيّة على اللفظ، فقط بولوكس؟».

«بـو ـ لـو ـ كـس. هلاّ خلّصتنا من سخريتك الفظيعة تلك، ديفيد؟»

«لا أفهم ما تعنين».

«طبعاً تفهم. لقد استخدمتَها معي وأنا طفلة طوال سنين لتجرح

مشاعري. لا يمكن أن تكون قد نسيت. على أي حال، لقد اتضح أن بولوكس هو شقيق زوجة بتروس. لا أدري إن كان هذا يعني أخاً حقيقياً. ولكن بتروس لديه التزامات اتجاهه، التزامات عائلية».

«إذن بدأ الأمر ينجلي. والآن ها هو الصغير بولوكس يعود إلى مسرح الجريمة والمطلوب منا أن نتصرَّف وكأن شيئاً لم يحدث».

«لا تسخط، ديفيد، لا فائدة. وفقاً لما يقوله بتروس، ترك بولوكس المدرسة ولا يجد عملاً. وأريد فقط أن أنبّهك إلى وجوده. ولو كنت مكانك لتجنّبته. أعتقد أنه ليس على ما يرام. ولكن لا أستطيع أن أطرده من الملكية، ليس ذلك في سلطتي».

«خاصةً ـ»، لم يُكمِل الجملة.

«خاصةً ماذا؟ قُلّ».

«خاصةً لوجودِ احتمالٍ أن يكون والدَ الطفل الذي تحملين. لوسي، إن موقفك أصبح سخيفاً، بل أسوأ من ذلك، أصبح شريراً. لا أدري كيف أنك لا ترين هذا. إني أناشدك أن تتركي المزرعة قبل أن يفوت الأوان. إنه الأمر الوحيد العاقل الذي بقي أمامك لتقومي به».

«كفَّ عن وصف المكان بالمزرعة. هذه ليست مزرعة، إنها مجرد بقعة من الأرض أزرع فيها بعض الأشياء ـ نحن الاثنان نعرف هذا. ولكن لا، لن أتخلّى عنها».

أوى إلى سريره بقلبٍ مُثقل. لا شيء تغيّر بين لوسي وبينه، لم يندمل شيء. إنهما ينهشان أحدهما في الآخر وكأنه لم يغب كل تلك المدة.

* * *

كان الوقت صباحاً. تسلّق بجهدٍ السياجَ الحديثَ العهد. وكانت

زوجة بتروس تنشرُ الغسيلَ خلفَ الإسطبل القديم. قال: «صباح الخير، مولو، إنني أبحث عن بتروس».

لم تنظر إليه، بل اكتفتْ بالإشارة بفتور إلى موقعِ البناء. كانت حركاتها بطيئة وثقيلة. كان واضحاً أن موعد الولادة قد اقترب.

كان بتروس يزجّج النوافذ. وكان لابد من الدخول في هذرٍ طويل من التحيات والسلامات، لكن مزاجه لم يكن يسمح بذلك. قال «تقول لوسي إن الفتى عاد، بولوكس. الفتى الذي هاجمها». نظَّفَ بتروس سكّينه، ثم حطّها. قال، مشدِّداً على حرف الراء» إنه قريبي. والآن تتوقّع مني أن آمره بالرحيل بسبب تلك الحادثة؟».

«قلتَ لي إنك لا تعرفه. لقد كذبتَ عليَّ».

وضعَ بتروس غليونه بين أسنانه الملطّخة ومصَّ بشدّة. ثم أخرجه ورسم ابتسامة واسعة. قال: «أنا أكذب، أنا أكذب عليك»، ومصَّ مرة أخرى «ولماذا أكذب عليك؟».

«لا تسألني، اسأل نفسك، بتروس. لماذا تكذب؟».

هنا، اختفت الابتسامة «ارحل، لماذا رجعت؟». وأخذ يحدّق إليه متحدّياً. «لا عمل لك هنا. لقد عدتَ لتُعنى بابنتك. أنا أيضاً أُعنى بابني».

«ابنك؟ الآن أصبح ابنك، هذا البولوكس؟».

«نعم. هو ابني. هو عائلتي. هو قومي».

إذن هذا هو الأمر. لم يعد يكذب. قومي. جواب عارٍ كما أراده. إذن لوسي هي قومه.

تابع بتروس: «تقول إن ما حدث سيئ. أنا أيضاً أقول إنه سيئ. سيئ. لكنه انتهى». أخرجَ الغليون من فمه، وطعَنَ الفضاء بعنف بساق الغليون «انتهى».

«بل لم ينتهِ. لا تتظاهر بأنك لا تفهم ما أعني. إنه لم ينتهِ. على العكس، لقد بدأ للتو. وسوف يستمر حتى بعد مماتي ومماتك بوقت طويل».

أخذ بتروس يحدِّق بتأمُّل، ولم يتظاهر بأنه لا يفهم. أخيراً قال: «سوف يتزوجها، سوف يتزوج لوسي، غير أنه صغير السن جداً، أصغر من أن يتزوج. إنه ما زال طفلاً».

«طفل خطر. سفاح صغير. ابن آوى صغير».

تغاضى بتروس عن الإهانات. «نعم، إنه صغير جداً، صغير جداً. قد يتمكن ذات يوم من الزواج، ولكن ليس الآن. أنا سأتزوج».

«تتزوج مَنْ؟».

«سأتزوج لوسي».

لم يصدِّق أذنيه. إذن هذا هو الأمر، هذا هو الهدف من كل تلك المداورة: هذه المزايدة، هذه الضربة! وها هو بتروس واقف بصلابة، يواصل تدخين الغليون الفارغ، بانتظار جواب.

قال بحذر: «أنت تتزوج لوسي. اشرح لي معنى هذا. لا. انتظر، بالأحرى لا تشرح. هذا شيء لا أريد أن أسمعه. ليس هكذا نعالج نحنُ الأمور».

«نحن»: كاد يقول «نحن الغربيون».

قال بتروس: «نعم، أفهم، أفهم». كان يضحك بصوتٍ خافت في الحقيقة. «أنا أُخبرك، ثم تخبر لوسي. ثم ينتهي سوء الأمر كله».

«لوسي لا تريد أن تتزوج. لا تريد أن تتزوج رجلاً. إنه ليس خياراً حتى تفكر فيه. لا أستطيع أن أوضّح أكثر من ذلك. هي تريد أن تعيش حياتها الخاصة».

قال بتروس: «نعم، أعلم». لعله كان بحق يعلم. سيكون أحمق إذا ما

قلَّل من أهمية بتروس. أردف بتروس: «ولكن هنا هذا خطير، خطير جداً. على المرأة أن تتزوج».

* * *

لاحقاً أخبر لوسي: «حاولتُ أن أعالج الأمر برفق، مع أني لم أكد أصدق ما كنت أسمع. لقد كان ابتزازاً سافراً وصريحاً».

«لم يكن الأمر ابتزازاً. أنت مخطئ في هذا. أتمنى ألا تكون قد فقدت أعصابك».

«لا، لم أفقد أعصابي. قلت إني سأنقل عرضَهُ، فقط. قلت إني أشكُّ في أنه سيثير اهتمامك».

«هل شعرتَ بأنك أُهنت؟».

«أُهِنتُ لافتراضِ أني سأصبحُ حما بتروس؟ لا. لقد بوغتُّ، دُهِشتُ، ذُهِلتُ، ولكن لا، لم أشعر بالإهانة، صدقيني».

«أسألك هذا لأني يجب أن أبلغك أن هذه ليست المرة الأولى. إن بتروس يرمي بتلميحاتٍ منذ بعض الوقت، تفيدُ بأن من الأسلم لي أن أصبح جزءاً من مؤسسته. إنها ليست نكتة، وليست تهديداً. إنه إلى حدٍ ما جادّ».

«أنا لا أشكُّ في أنه جادّ بمعنى ما. والسؤال هو، بأي معنى؟ هل يدرك أنكِ...».

«تقصد، إن كان يدركُ وضعي؟ أنا لم أخبره. لكني واثقة من أن زوجته وهو خمّنا معاً الأمر».

«ألن يدفعه هذا إلى تغيير فكره؟».

«ولِمَ يفعل؟ هذا سببٌ مضاعَفٌ ليجعلني جزءاً من العائلة. على أي حال، هو لا يسعى ورائي، إنه يسعى وراء المزرعة. إن المزرعة هي مهري»

«لكن هذا محال، لوسي! إنه متزوج أصلاً! في الحقيقة، أخبرني أن لديه زوجتين. كيف يمكنك حتى أن تفكري في الأمر؟».

«أظنكَ لم تفهم قصدي، ديفيد. إن بتروس لا يعرض عليَّ زواجاً رسمياً يتبعه شهر عسل في وايلد كوست. إنه يعرض عليَّ حِلفاً، اتفاقاً. أنا أساهم بالأرض، وفي المقابل يسمح لي أن أنضوي تحت جناحه. وإلا، كما يريد أن يذكّرني، سأبقى بلا حماية، وأستأهلُ ما يحصل لي».

«وهذا ليس ابتزازاً؟ ماذا عن الجانب الشخصي؟ ألا يحتوي العرضُ على جانبٍ شخصي؟».

«تقصد، هل يتوقع بتروس أن أضاجعه؟ لستُ متأكدة من أن بتروس يريد أن يضاجعني، إلا من باب إبلاغ رسالته. ولكن، بصراحة، لا، لا أريد أن أضاجع بتروس. حتماً لا».

«إذن لسنا بحاجة إلى مناقشة الأمر أكثر مما فعلنا. هل أنقلُ قرارك إلى بتروس ـ بأنك لا تقبلين عرضَه، بدون أن أبيّن السبب؟».

«لا. انتظر. قبل أن تتعالى على بتروس، أعطِ نفسك فرصة للتفكير الموضوعي في القضية. موضوعياً أنا امرأة وحيدة. ليس لديّ أخوة. لدي أب، لكنه بعيد جداً وهو على أي حال عاجز فيما يخص هذه المسألة. فإلى مَنْ أتوجه للحصول على الحماية، والرعاية؟ إلى إيتنغر؟ إنها مسألة وقت، وبعدها سوف يتم العثور على إيتنغر مقتولاً برصاصة في ظهره. وعملياً، لم يبق لي غير بتروس. قد لا يكون بتروس رجلاً عظيماً لكنه يناسب إنساناً صغيراً مثلي. على الأقل أنا أعرف بتروس. لا أوهام لدي عنه. وأعرفُ ماذا سأحصل مقابل تقديم نفسي».

«لوسي، إنني أعمل على بيع المنزل الذي في كيب تاون. وأنا مستعد أن أرسلك إلى هولندا، أو أن أعطيكِ ما تشائين لتقفي على قدميكِ من جديد في مكانٍ آخر أكثر أماناً من هنا. فكّري في الأمر».

كأنها لم تسمعه. قالت: «عُدْ إلى بتروس. اقترح عليه ما يلي. قُل له إني أقبل حمايته. قُل له إنه يستطيع أن يلفِّق أي قصة يشاء حول علاقتنا ولن أناقضه. إذا أرادني أن أُعرَفْ كزوجةٍ ثالثة له، فليكن. أو كخليلةٍ، فليكن أيضاً. على أن يصبح الطفلُ ابنه أيضاً، جزءاً من عائلته. أما بالنسبة إلى الأرض، قُل له إني سأنقل ملكيتي إلى اسمه إذا ظل المنزل باسمي. سوف أصبح ساكنةً أقيمُ على أرضه».

«أو bywoner».

«نعم bywoner. لكن المنزل يبقى لي، أكرر هذا. لا أحد يدخل هذا المنزل بدون أذني. حتى هو. وسأحتفظ بالكلاب».

«هذا ليس عملياً، يا لوسي. شرعياً هذا ليس عملياً. أنتِ تعلمين ذلك».

«إذن ماذا تقترح؟».

جلست ترتدي مبذلها وتنتعل خِفَّها وصحيفةُ الأمسِ على حجرها. كان شعرها ينسدل هزيلاً؛ وقد ازداد وزنها بشكل مترهِّل، غير صحّي. وأصبحت تغدو أكثر فأكثر أقرب شبهاً بإحدى النسوة اللواتي يتنقّلنَ بين أروقة دور الحضانة ويهمسن لأنفسهن. لماذا سيهتمُّ بتروس بالتفاوض؟ لن تستطيع أن تصمد: إذا بقيتْ وحيدة فسوف تسقط كثمرةٍ عفنةٍ، قبل مرور وقت طويل.

«لقد قدَّمتُ اقتراحي. بل اقتراحين».

«لا، لن أغادر. اذهبْ إلى بتروس وانقل له ما قلته. أخبره أني سأتخلى عن الأرض. أخبره أن في إمكانه أن يحتفظ بها، مع سند التمليك وكل شيء. وسوف يحب هذا».

سادت فترة صمت.

أخيراً قال: «كم هذا مُذلٌّ. كانت آمالاً شامخة، وها هي تنتهي إلى هذا».

«نعم، أوافقك، هو مُذلٌّ. ولكن لعلها تكون نقطة بداية جيدة. لعل هذا ما ينبغي عليَّ أن أتعلمُ قبوله: أن أبدأ من الصفر. بدون أي شيء. وليس بدون أي شيء إلا. بدون أي شيء. بلا خيارات، ولا أسلحة، ولا ملكيّة، ولا حقوق، ولا كرامة».

«ككلبة».

«نعم، ككلبة».

ثلاثة وعشرون

الوقت منتصف النهار. كان قد خرج ليأخذ كيتي في نزهة، والمدهش أن كيتي كانت قد طابقتْ خطوتها مع خطوته، إما لأنه أصبح أبطأ خطى من ذي قبل أو لأنها هي أضحت أسرع. كانت تجرُّ قوائمها وتلهث كعهدها دائماً، غير أن ذلك لم يعد يثير أعصابه.

لدى اقترابهما من المنزل لاحظ الفتى، الذي أطلق عليه بتروس لقب «قومي»، واقفاً ووجهه متوجّه نحو الجدار. في أول الأمر ظنَّ أنه يتبوّل، ثم أدرك أنه يُنعِم النظر في نافذة الحمّام، ويحدِّق إلى لوسي.

كانت كيتي قد بدأت تزمجر، لكن الفتى كان من شدَّة الاستغراق بحيث يبالي بها. وفي الوقت الذي التفت إليهما كانا قد وصلا إليه. ولطمت راحة يده وجه الفتى. صرخ «خنزير!»، وضربه مرة أخرى، حتى أنه ترنّحَ «خنزير قذر!».

حاول الفتى أن يفرَّ، مدفوعاً بإجفاله أكثر من تألُّمه، لكنه تعثَّرَ بقدمه هو. أولاً هجمت الكلبة عليه، وأطبقتْ أسنانها على مرفقه؛ ثم ثبّتت قوائمها الأمامية وأخذت تشدُّ، مزمجرة. حاول أن يتحرّر منها وهو يصرخ تألُّماً. وأخذ يسدِّدُ ضربات بقبضته، لكن ضرباته كانت تفتقر إلى القوة وتجاهلتْها الكلبة.

كانت الكلمات لا تزال يتردّدُ صداها في الجو: «خنزير!. لم يكن قد

شعر قط بمثل ذاك الحنق الشديد. ودَّ لو يعطي الفتى ما يستحق من الضرب المبرِّح. وبدت عبارات كان طوال حياته يتجنّبَ استخدامها فجأة عادلة ومنصفة: لقّنيه درساً، أريه مقامه. وقال في نفسه، إذن هذا هو الأمر هذا هو معنى أن يكون المرء متوحشاً!.

سدّدَ للفتى رفسة قوية جداً، حتى أنه انبطح بشكل جانبي. بولوكس! ياله من اسم!.

بدّلتْ الكلبة موقعها، وارتقت جسد الفتى، وهي تشدّه بضراوة، وتمزّق قميصه. حاول الفتى أن يدفعها عنه، لكنها لم تتزحزح. وراح يصرخ من الألم «يا يا يا يا يا!» ثم زعق «سأقتلك!».

ثم ظهرت لوسي إلى مسرح الحدَث، وأمرتها «كيتي!».

رمتها الكلبة بنظرة جانبية لكنها لم تُطِع.

ركعت الكلبة على ركبتيها وقبضت على طوقها، وأخذت تكلّمها بنعومة وبإلحاح،فأرخت تشبثها على مضض.

قالت: «هل أنتَ على ما يرام؟».

كان الفتى يئنُّ من فرط تألُّمه. وكان المخاط يجري من منخريه. قال وهو يجهش: «سأقتلك!». وبدا أنه يوشك أن يبكي.

رفعت لوسي كُمّ ذراعه. كانت هناك علامات جروح من أنياب الكلبة؛ وبينما هما يراقبانها ظهرت قطرات من الدم على الجلد القاتم.

قالت: «تعال، هيا بنا نغسله»، فأخذ الفتى يشرق المخاط والدموع، ويهز رأسه رفضاً.

لم تكن لوسي ترتدي أكثر من لفاع. وعندما نهضت، انزلق الوشاح عنها وإذا بثدييها عاريين.

آخر مرة كان قد شاهد فيها ثديي ابنته كانا بُرعمين رزينين في سن

السادسة. الآن أصبحا ثقيلين ومدوّرين، ويكاد يكون لونهما أبيض بلون الحليب. وساد صمت. كان يحدِّق؛ والفتى أيضاً حدَّق، بلا إحساس بالحياء. وتصاعد الحنق من جديد فيه، وأعشى عينيه.

ابتعدت لوسي عن كليهما، وتدثّرت. وبحركة واحدة وسريعة نهض على قدميه وفرَّ مذعوراً واختفى عن مجال نظرهما. ثم صرخ: «سنقتلكم جميعاً!». انعطفَ، وداس عن عمد على مسكب نبات البطاطا، وغاص تحت الأسلاك الشائكة ثم انسحب نحو منزل بتروس. بعد ذلك عاد إلى مشيته المزهوّة، مع أنه كان ما يزال يداري ذراعه.

كانت لوسي على حق. إن به خطباً، في رأسه. ثمة طفل عنيف يسكن جسد شاب صغير. ولكن هناك ما هو أكثر، إنه لا يفهم إحدى أوجه المسألة. إلام ترمي لوسي بحمايتها الفتى؟

تكلّمت لوسي. قالت «لا يمكن لهذا أن يستمر، ديفيد. في إمكاني أن أتعامل مع بتروس ومساعديه،،أستطيع أن أتعامل معك، لكني لا أستطيع أن أتعامل معكم جميعاً دفعة واحدة».

«كان يحدِّق إليك من خلال النافذة. ألا تفهمين هذا؟».

«إنه مضطرب. طفل مضطرب».

«أهذا عذر؟ عذر لما فعله لك؟».

تحرّكت شفتا لوسي، لكنه لم يسمع ما قالت.

تابع قائلاً: «أنا لا أثق فيه. إنه مخادع، كابن آوى يشمُّ حوله، ويسعى وراء الأذى. أيام زمان كانت لدينا كلمة نصِفُ بها مثل هؤلاء الناس. معاقون. معاقون عقلياً. معاقون أخلاقياً. يجب إيداعه الإصلاحية».

«هذا كلامٌ متهوِّر، ديفيد. إذا أردت أن تفكر بهذه الطريقة، فأرجوك احتفظ به لنفسك. على أي حال، إنَّ رأيكَ فيه خارج عن الموضوع. إنه

موجود هنا، ولن يختفي بنفخة دخان؛ إنه من حقائق الحياة». كانت تواجهه مباشرة، وتنظر بعينين شبه مغمضتين إلى ضوء الشمس. واستقرّتْ كيتي عند قدميها، وهي تلهث قليلاً، سعيدة، وراضية عن إنجازاتها. «ديفيد، لا يمكننا أن نستمر على هذا المنوال. لقد كان كل شيء قد استقر، كل شيء كان قد أستعاد سكينته، إلى أن عدتَ. يجب أن يسود السلام من حولي. أنا مستعدَّة أن أفعل أي شيء، أن أقدِّم أي تضحية، مقابل أن أحصل على السكينة».

«وأنا أشكِّلُ جزءاً مما أنتِ مستعدةٌ للتضحية به؟».

هزّت كتفيها «أنا لم أقل هذا، أنت قلت».

«إذن سأحزم أمتعتي».

* * *

بعد مرور ساعات على الحادثة كانت يده ما تزال تخزه من شدّة الضرب. وعندما كان يتذكّر الفتى وتهديداته، كان يغلي من فرط الغضب. وفي الوقت نفسه، كان يشعر بالخجل من نفسه. وضع اللوم كله على نفسه. إنه لم يلقِّن أحداً أي درس ـ وحتماً ليس الفتى. وكل ما فعله هو أنه أبعدَ لوسي عنه. لقد ظهر أمامها في نوبات انفعال عارم، ومن الجلي أنها لم تحب ما شاهدت.

كان ينبغي عليه أن يعتذر. لكنه لم يستطع. سوف يبدو أنه لا يسيطر على نفسه. ثمة في بولوكس ما يثير حنقه: إنها عيناه الصغيرتان البيضاوان، القبيحتان، وغطرسته، ولكن أيضاً التفكير في أنه سمح له أن يطوِّق بجذوره، كنباتٍ طفيليّ، لوسي ووجودَ لوسي.

إذا عمدَ بولوكس إلى إهانة ابنته ثانية، فسوف يضربه ثانية. Du musst dein Leben andem (يجب أن تغيِّر حياتك). حسن، إنه أكبر سناً من أن يبالي، أكبر سناً من أن يتغيّر. قد تستطيع لوسي أن تميل مع العاصفة؛ أما هو فلا، ليس مع احتفاظه بكرامته.

لهذا يجب أن ينصت إلى تيريزا. قد تكون هي آخر مَنْ بيدها إنقاذه. تيريزا هي الكرامةُ الغابرة. إنها تبرز ثدييها نحو الشمس؛ تعزف على البانجو أمام الخدم ولا يهمها إذا تكلّفوا الابتسام. إنها ذات أشواق خالدة، وهي تغني أشواقها. ولن تموت.

* * *

وصل إلى المستوصف في الوقت الذي كانت بف شو تهمُّ بالمغادرة. تعانقا، بتردّد كغريبين. من الصعب التصديق أنهما ذات يوم استلقيا عاريين وتضاجعا.

سألته: «أهي زيارة عابرة أم أنك باق بعض الوقت؟».

«أنا باق طالما لبقائي ضرورة. لكني لن أقطن مع لوسي. هي وأنا لا نتّفق. سوف أجد غرفة لي في البلدة».

«أنا آسفة. ما المشكلة؟».

«بين لوسي وبيني؟ لا مشكلة، آمل ذلك. لا شيء مما يعصى على الحل. المشكلة هي مع الناس الذين تعيش بينهم. فحالما أتيت، أصبح المكان ضيقاً علينا. أصبحنا أكثر عدداً من أن يضمّنا مكان ضيّق. كعناكب داخل زجاجة».

تمثّل صورةٌ من «الجحيم[1]»: التدفّق العظيم لنهر ستيكس[2]، والأرواح تغلي فيه كما يُغلى الفطر، Vedi l'anime di color cui vinse l'ira (أرواح يغلبها الغضب) ينهش بعضها بعضاً. عقوبة مناسبة للجريمة.

«أنت تتحدّث عن الفتى الذي انتقل ليعيش مع بتروس، يجب أن أعترف بأني لا أحب شكله. ولكن طالما أن بتروس موجود فإن لوسي

(1) «الجحيم»: المقصود به أحد أجزاء «الكوميديا الإلهية» لدانتي.
(2) نهر ستيكس: نهر في الجحيم، تُنقَل عبره أرواح الموتى.

ستكون حتماً في أمان. لعل الوقت قد حان، ديفيد، كي تبتعد وتترك لوسي تجد حلولاً لنفسها. إن النساء قابلات للتكيُّف. ولوسي قابلة للتكيّف. وهي شابة، وأقرب إلى الواقع منك. أكثر من أيٍ منا».

أحقاً لوسي قابلة للتكيّف؟ ليس حسب ما يعلم. قال: «أنت دائماً تطلبين مني أن أبتعد. لو أني ابتعدت منذ البداية، إلى أين كان سيؤول مصير لوسي؟».

لزمت بف شو الصمت. هل ترى بف شو فيه ما لا يستطيع هو أن يراه؟ هل ينبغي أن يثق فيها، كما تثق الحيوانات فيها، لتلقِّنه درساً؟ إن الحيوانات تثق فيها، وهي تستغلُّ تلك الثقة لتصفّيها. فما الدرس المستفاد هنا؟.

تابع متلعثماً: «إذا ابتعدت ومن ثم حصلت كارثة جديدة في المزرعة، فكيف سأتمكن من التعايش مع نفسي؟».

هزّت كتفيها. ثم سألته بهدوء «أهذا سؤال، ديفيد؟».

«لا أدري. لم أعد أذكر ما هو السؤال. يبدو أن بين جيل لوسي وجيلي حجاب وقد سقط. إني حتى لم ألاحظ متى سقط».

ساد صمت طويل بينهما.

ثم تابع: «على أي حال، لا أستطيع أن أمكث مع لوسي، لذا أنا أفتّش عن غرفة. فإذا تصادف وسمعت عن وجود واحدة في غرامستاون، أعلميني. إن ما أتيتُ لأقوله لك هو أني مستعدٌ لتقديم يد المساعدة في المستوصف».

قالت بف شو: «سوف يكون ذلك مناسباً».

* * *

اشترى من صديقٍ لبيل شو سيارة نقل خفيفة حمولة نصف طن، دفع

ثمنها شيكاً بقيمة 1000 راند وشيكاً آ خر بقيمة 7000 راند مؤخّر تاريخ تسديده حتى نهاية الشهر.

قال الرجل: «لأي غرض تنوي أن تستخدمها؟».

«حيوانات. كلاب».

«سوف تحتاج إلى وجود حاجز على الظهر، لكي لا تقفز منها. أنا أعرف شخصاً يمكنه أن يركِّب حاجزاً لك».

«كلابي لا تقفز».

طبقاً لما ورد في أوراق الشاحنة فإن عمرها هو اثني عشرة سنة، لكن المحرك يبدو سلساً بشكل مُرْضٍ. ثم قال لنفسه، على أي حال، ليس مطلوباً منها أن تدوم إلى الأبد. لا شيء يتوقع منه أن يدوم إلى الأبد.

لبّى إعلاناً معروضاً في «غروكوتز ميل»، واستأجر غرفة في منزل يقع بالقرب من المستشفى. قال إن اسمه لوري، ودفع إيجار شهر مقدماً، وأخبر صاحبة المنزل أنه موجود في غرامستاون لكي يتلقى علاجاً بوصفه مريضاً خارجياً.

ولم يصرِّح لها عن طبيعة العلاج، لكنه كان يعلم أنها تعتقد أنه لعلاج السرطان.

كان ينفق النقود كالماء. لا يهم.

من محلٍ لبيع مستلزمات المخيَّم اشترى سخّان الغمر، ومدفأة غاز صغيرة، وطنجرة ألومنيوم، حملها جميعاً إلى غرفته، وعلى الدرج قابل صاحبة المنزل. قال: «ممنوع الطبخ في الغرف، مستر لوري. تحسّباً لنشوب حريق، كما تعلم».

كانت الغرفة مظلمة، سيئة التهوية، مزدحمة بالأثاث، وكانت الحشيّة متكتّلة. لكنه سيتعوَّد عليها، كما تعوَّد على أشياء كثيرة.

كان هناك مستأجر آخر، أستاذ مدرسة متقاعد. كانا يتبادلان التحية على مائدة الإفطار، ولم يكونا يتبادلان أي حديث أثناء الوجبات الأخرى. بعد انتهاء وجبة الإفطار كان يتوجه إلى المستوصف ويقضي سحابة النهار هناك، كل يوم، حتى يوم الأحد.

أصبح يقيم في المستوصف أكثر مما يقيم في النزل. فقد صنع ما يشبه العش في قطعة الأرض الصغيرة المسوّرة الكائنة خلف المبنى، زوّده بطاولة وكرسي وأريكة قديمة من منزل آل شو ومظلة شاطئ لدرء أسوأ أشعة الشمس. وجلب موقد الغاز ليصنع الشاي أو ليسخّن علبة طعام محفوظ: سباغيتي مع كرات اللحم، و سنوك مع البصل. كان يطعم الحيوانات مرتين في اليوم؛ وينظف أقفاصها وأحياناً يكلّمها؛ وفيما عدا ذلك كان يقرأ أو ينعس أو، حين ينفرد بنفسه في الحوش، يتناول آلة بانجو لوسي ويعزف الموسيقى التي سيمنحها لتيريزا جيوتشيلي.

سيظل هذا نمط حياته، إلى أن يولد الطفل.

ذات صباح رفع بصره ليرى وجوه ثلاثة أولاد صغار يحدقان إليه عبر جدار الأسمنت. نهض عن مقعده؛ بدأت الكلاب تنبح؛ هبط الأولاد وانطلقوا فارّين وهم يطلقون صيحات الإثارة. يا لها من قصة يحكونها لأهاليهم في المنزل: رجل عجوز مجنون يجلس بين الكلاب ويغني لنفسه!

مجنون ولا شك. كيف يمكنه أن يشرح، لهم، لآبائهم، لأهالي القرية، ما فعلته تيريزا وعشيقها ليستحقا أن يُعادا إلى هذا العالم؟.

أربعة وعشرون

تقف تيريزا بمبذلها الأبيض عند نافذة غرفة النوم. عيناها مغمضتان. إنها أحلك ساعات الليل: تستنشق الهواء بعمق، تستنشق حفيف الريح وجوار الضفادع الضخمة.

تغنّي، ويكاد صوتها لا يرتفع فوق مستوى الهمس «ماذا تريد أن تقول ـ ماذا تريد أن تقول أيها الصمت العميق؟ قُل لي، ماذا تقول؟[1]».

صمت. لا يدلي *الصمت العميق* بأي جواب. حتى الثلاثي العازف القابع في الزاوية هادئ كالزغبة[2].

تهمس «تعال! تعال إليّ، أتوسل إليك، يا بايرون!»، تفتح ذراعيها واسعاً، تعانق الظلام، تعانق ما سيجلبه.

إنها تريد منه أن يأتي على جناح السرعة، أن تتلفّع به، أن يدفن وجهه في تجويف ما بين ثدييها. أو تريد منه أن يصل عند الفجر، أن يظهر عند الأفق كإله الشمس يقذفها بوهج دفئه. تريد منه أن يأتي بأي وسيلة كانت.

جلس على الطاولة في فناء الكلاب، يصغي إلى الانعطاف الانقضاضي، الحزين، لمناشدة تيريزا وهي تواجه الظلام. إنها فترة سيئة من الشهر بالنسبة إلى تيريزا، فهي تتوجع، ولم تنم لحظة واحدة، ويضنيها

---

(1) الأصل بالإيطالية.

(2) حيوان يشبه السنجاب.

الشوق. تريد مَنْ ينقذها ـ من الألم، من حرارة الصيف، ومن فيلا غامبا، ومن سوء خلق والدها، ومن كل شيء.

تتناول آلة الماندولين عن الكرسي الذي كانت تستقرُّ عليه، وتحتضنه كطفل، ثم تعود إلى النافذة. ويصدر عن الماندولين الذي تحمله بين ذراعيها نقرٌ ناعمٌ، لكي لا توقظ والدها. ويطلق البانجو رنينه العالي الحادّ وسط الفناء المقفر في أفريقيا.

كان قد قال لروزاليند «*إنه مجرد شيء أتسلّى به*». هذا كذب. الأوبرا ليست مجرد هواية، ليس بعد الآن. إنها تستنفذ قواه ليلاً ونهاراً.

مع ذلك وعلى الرغم من لحظات جيدة متفرقة، بقيت حقيقة أن أوبرا» بايرون في إيطاليا «كانت ما تزال مشوّشة. فلا حدث، ولا تطور، بل مجرد غناء رتيب، مطوَّل، أعرج، من تيريزا إلى الفضاء الخالي، تقطعه بين حين وآخر تنهدات بايرون وأنينه من خارج خشبة المسرح. وقد تم نسيان الزوج والخليلة المنافسة، وربما لا وجود لهما. قد لا يكون الدافع الغنائي فيه ميت، ولكن بعد مرور عقود من الجوع يمكنه أن يزحف خارجاً من كهفه ولكن ذابلاً، مقزَّماً ومشوّهاً. لم يكن لديه المصادر الموسيقية، مصادر الطاقة، لرفع «بايرون في إيطالياً» فوق مستوى المسار الرتيب الذي كانت تسير فيه منذ بدايتها. أصبحت أشبه بعمل أنجزه إنسان مُسرنَم.

تنهّدَ. سيكون جميلاً أن يعود منتصراً إلى المجتمع بوصفه مؤلف أوبرا صغيرة للغرفة غريبة الأطوار. لكن هذا لن يحدث. على آماله أن تكون أشد تواضعاً: أنه من مكانٍ ما من قلبِ فوضى الأصوات سوف تنطلق، كعصفور، نغمةٌ واحدة أصيلة تعبِّر عن الشوق الخالد. ولكي يقابلها سوف يدع هذا الأمر لعلماءِ المستقبل، إذا تبقى علماء حينئذ. ذلك أنه لن يسمع النغمة بنفسه، حين تأتي، إذا أتت ـ كان يعلم أكثر مما ينبغي عن الفن وأساليب الفن بحيث يتوقع ذلك. وإن كان جميلاً أن تسمع لوسي البرهان

خلال فترة حياتها، وتعطي رأياً حسناً فيه.

مسكينة تيريزا! مسكينة الفتاة المتوجّعة! لقد أعادها من القبر، ووعدها بعيشِ حياةٍ أخرى، والآن ها هو يخذلها ويأمل أن تسامحه من قلبها.

من بين الكلاب التي تضمّها الأقفاص، كان هناك واحد أحبَّه حباً خاصاً. كان جرواً ذكراً ذا قائم خلفي أيسر ذاو يجرّه خلفه. ولم يكن يدري إن كان قد ولِدَ على تلك الخلقة. ولم يُبدِ أي زائر اهتماماً بتبنّيه. وكانت فترة قبوله قد انتهت وقريباً سوف يتلقّى الحقنة.

أحياناً، وهو يقرأ أو يكتب، كان يُطلقْهُ من القفص ويدعه يطفر، بطريقته الغريبة، حول الفناء، أو يغفو عند قدميه. إنه ليس «ملكُهُ» بأي معنى؛ لقد كان من الحرص بحيث يمتنع عن إعطائه اسماً (وإن كانت بف شو قد أشارت إليه باسم «دريبوت»)؛ ومع ذلك، كان يشعر بحبٍ ضافٍ يتدفّقُ إليه من الكلب. لقد اختير ليتبنّاه، اعتباطياً، بلا تحفّظ؛ سوف يموت الكلب لأجله، كان متأكداً.

كان الكلب مفتوناً بصوت البانجو. وحين كان يضرب الأوتار، ينتصب الكلب، وينصب أذنيه، ويصيخ سمعه. وحين يهمهم غناء تيريزا، وتبدأ الهمهمة تمتلئ بالمشاعر (وكأن حنجرته تثخن: كان يستطيع أن يشعر بضرب دفق الدم في حنجرته)، كان الكلب يتلمّظ بشفتيه ويبدو وكأنه يوشك أن يغني بدوره، أو يعوي.

هل يجرؤ على فعل ذلك: أن يضم الكلب إلى المقطوعة، ويسمح له أن يحرِّر نحيبه نحو السماء بين المقطوعات الشعرية التي تلقيها تيريزا المحروقة من حبيبها؟ ولم لا؟ طبعاً، في عملٍ لن يرى النور، كل شيء مسموح به؟

* * *

في صباحات أيام السبت، وطبقاً لاتفاق، كان يتوجه إلى ساحة

دونكن ليساعد لوسي في كشك السوق. بعد ذلك يصحبها ليتناولا الطعام.

أصبحت لوسي ثقيلة في حركاتها. وكانت قد بدأت تتخذ سيماءً هادئاً، مستغرقاً في التفكير. لم يكن حملها ظاهراً كثيراً؛ ولكن إذا كان هو قد لاحظ العلائم؛ فبعد كم من الوقت سوف تلاحظها بنات غرامستاون الحادَّات الأبصار أيضاً؟.

سأل «كيف يسير عمل بتروس؟».

«المنزل تمَّ بناؤه، لم يبق غير الأسقف والتمديدات الصحية، والعمل فيها جار».

«وطفلهما؟ ألم يحن موعد وضعه؟».

«في الأسبوع القادم. كل شيء معيَّن بدقة».

«هل أعطى بتروس مزيداً من التلميحات؟».

«تلميحات؟».

«عنك، عن موقعك في الخطة».

«لا».

«لعل الوضع سيتغيّر بعد أن يولد الطفل». قام بإيماءة خفيفة نحو ابنته، ونحو جسمها ـ «سوف يكون، قبل أي شيء، ابن هذه الأرض. لن يتمكنا من نكران هذا».

ران صمت طويل بينهما.

«هل بدأتِ تحبينه؟».

على الرغم من أن الكلمات صدرت عنه، عن فمه، إلا أنها أجفلته.

«تقصد الطفل؟ لا. كيف يمكنني ذلك؟ لكني سأحبه. سوف ينمو حبه ـ يمكن للإنسان أن يثق في الطبيعة الأم في هذا المجال. لقد قررتُ أن أكون

أماً صالحة، ديفيد، أماً صالحة وإنساناً صالحاً. أنت أيضاً يجب أن تحاول أن تكون إنساناً صالحاً».

«أعتقد أن الوقت قد فات بالنسبة إليّ. ما أنا إلا منفيّ عجوز أقضي عقوبتي. أما أنت فامضي في طريقك. أنتِ تسيرين في الطريق الصحيحة».

إنسان صالح. لا بأس به من حلّ، في الأوقات العصيبة.

في ذلك الوقت، وطبقاً لاتفاقيةٍ غير مُعلنةٍ، كفَّ عن التردّد على مزرعة ابنته. إلا أنه كان يمرّ بسيارته على طريق كينتون، ويترك الشاحنة عند الطريق الجانبية، ثم يقطع المسافة المتبقّية سيراً على قدميه، ليس على ممر المشاة وإنما ينطلق برشاقة فوق مرجٍ مزروعٍ ببعض الأشجار.

بدءاً بآخر ذروة تل تنفتح المزرعة أمامه: المنزل القديم، الراسخ دائماً، والإسطبلات. ومنزل بتروس الجديد، والسد القديم الذي استطاع أن يميّز عليه بقعاً لابد أنها البط وأخرى أكبر حجماً لابد أنها الإوز البري؛ زوّار لوسي القادمون من بعيد.

عند تلك المسافة بدت مساكب الأزهار كتلاً صلبة من الألوان: الفوشين، الأحمر العقيقي، الأزرق الرمادي. إنه موسم الإزهار. لابد أن النحل في أقصى حالات السعادة.

لم ير أثراً لبتروس، ولا لزوجته أو فتاه ابن آوى الذي يلازمهما. لكن لوسي كانت تعمل وسط الأزهار؛ وبينما هو يسير باحتراس منحدراً إلى أسفل شاهد أيضاً الكلبة، وجزءاً من خشف[1] يقف على درب إلى جانبها.

وصل إلى السياج وتوقف عنده. لم تكن لوسي، التي تعطيه ظهرها، قد لاحظته بعد. كانت ترتدي ثوباً صيفياً فاتح اللون، وجزمة، وتعتمر قبعة واسعة من القش. وبينما هي منحنية، تقلّمُ وتشذّب أو تربط، كان يرى

(1) الخشف: صغير الظبي.

بشرتها البيضاء الناصعة، ذات العروق الزرقاء، ووتريّ خلفيتيّ ركبتيها العريضين والحساسين: وهما الجزءان الأقل جمالاً من جسد المرأة، والأقل تعبيراً، وربما لذلك هما المحبّبان أكثر من غيرهما.

استقامت لوسي في وقفتها، تمطّت، وعادت فانحنت. إنه الكدّ في الحقل؛ مهام الفلاحين، الموغلة في القدم.

مع ذلك ظلت لا تلاحظه. أما كلبة الحراسة فبدا أنها نائمة.

وهكذا: ذات يوم كانت فرخاً صغيراً داخل جسد أمها، وها هي الآن، صلبة في وجودها، أصلب مما كان هو في أي وقت. وإذا ما حالفها الحظ فسوف تعيش طويلاً، أطول مما قد يعيش هو. وحين سيموت ستكون هي، بعونٍ من الحظ، ما تزال هنا تقوم بمهامها الاعتيادية بين مساكب الزهور. وستكون قد أنجبَتْ حياةً أخرى، ستكون بعونٍ من الحظ، صلبة، وطويلة العمر، مثلها. وهكذا سيستمر الأمر، طابوراً من الحيوات سيتناقص منه نصيبه، وهِبتُهُ، باطراد، إلى أن يختفيا.

جدٌّ. يوسفٌ. مَنْ كان يظن ذلك! أي فتاة جميلة يمكن أن تُستدْرَج إلى النوم مع جدٍ في سرير واحد؟.

بنعومة نطق اسمها «لوسي!».

لم تسمعه.

ماذا سيستتبع أن يكون جداً؟ إنه لم ينجح كأب، على الرغم من محاولته الجهيدة. وكجدٍ لعله سيحقق نجاحاً أقلّ من متوسط. لقد كان يفتقر إلى مزايا العجائز: الاتزان، العطف، الصبر. ولكن لعل تلك المزايا سوف تأتي كما تذهب مزايا أخرى: مزيّة الوَلَه، مثلاً. يجب أن يلقي نظرة أخرى على مؤلفات فكتور هوغو، شاعر الجدودة. قد يعثر على ما يتعلّمه.

خفّت شدة الرياح. سادت لحظة من السكون التام ودَّ لو تستطيل إلى

الأبد: الشمس الرقيقة، سكون منتصف الظهيرة، نحلٌ منهمكٌ في حقلٍ من الزهور؛ وفي قلب هذه اللوحة امرأة شابة، *das ewig Weibliche* (الأنثى الأبدية)، يبدو عليها الحبَل قليلاً، تعتمر قبعة من القش واقية من أشعة الشمس. كان مشهداً كأنه معَدٌّ خصيصاً لسارجنت[1] أو بونار[2]. أما أبناء المدن مثله؛ ولكن حتى أبناء المدن يمكنهم أن يلاحظوا الجمال حين يرونه، أن يشهقوا أمامه.

الحقيقة هي أنه لم يكن يهتم كثيراً بالحياة الريفية، على الرغم من كل ما قرأه من شعر ووردسوورث. إنه لا يهتم بأي شيء، ما عدا الفتيات الجميلات؛ وإلى أين أفضى به هذا؟ هل فات الأوان على تثقيف العين؟.

تنحنح. قال، بصوت أعلى «لوسي!».

انكسر السحر. استقامت لوسي في وقفتها، والتفتت نصف التفاتة، وابتسمت. قالت «مرحباً، لم أسمعك».

رفعت كيتي رأسها وحدّقت بنظرة حسيرة باتجاهه.

تسلّقَ بجهد خلال السياج. تحرّكت كيتي بتثاقل نحوه، وراحت تشمُّ حذاءه.

سألت لوسي: «أين الشاحنة؟». كانت متوردة من عزم الكدّ وربما أيضاً بسبب لفح أشعة الشمس قليلاً. وفجأة، بدت تجسيداً للصحة الجيدة.

«ركنتُها وتمشّيتُ».

«هلا دخلنا وتناولنا فنجاناً من الشاي؟».

قدَّمت عرضها له وكأنه زائر. عظيم. أصبح زائراً، ويقوم بالزيارة: خطوة جديدة، بداية جديدة.

* * *

(1) جون سنغر سارجنت (1856 ـ 1925): رسام أميركي للوحات المائية. المترجم.
(2) بيير بونار (1867 ـ 1947): رسام فرنسي. المترجم.

حلَّ يوم الأحد من جديد. انخرط مع بف شو في إحدى جلسات «تصعيدهما». أدخل القطط واحدة بعد أخرى، ومن ثم الكلاب: العجوز، والأعمى، والأعرج، والمعاق، والمبتور، ولكن أيضاً الشاب، والمتين - كل الذين جاء دورهم. وكانت بف تلمسهم واحداً بعد آخر، تكلّمهم، وتواسيهم، ثم تقتلهم، ثم تتراجع وتراقبه وهو يختم الكفن البلاستيكي الأسود الذي يحوي البقايا.

لم يكن و بف يتكلمان. كان حينئذ قد تعلّم، منها، أن يركِّز انتباهه كله على الحيوان الذي يقتلانه، يعطيانه الشيء الذي لم يعد يجد صعوبة في أن يسميه باسمه الصريح: الحب.

ربطَ آخر كيس وحمله إلى الباب. ثلاثة وعشرون. لم يبق غير الجرو، ذاك الذي يحب الموسيقى، الذي، لو أُعطي نصف فرصة، لجرى وثباً خلف رفاقه إلى داخل مبنى المستوصف، إلى المسرح ذي الطاولة ذات السطح الزنكي حيث تظل الروائح الممتزجة، القوية، معلقة، بما فيها تلك التي لن يشمّ مثيلاً لها في حياته: رائحة الموت، الرائحة الرقيقة، القصيرة، لروحٍ تتحرّر.

الشيء الذي لن يستطيع الكلب أن يحلّ طلسمه (قال في نفسه، «ولا حتى خلال *شهرٍ من أيام الآحاد!*»)، وما لن يخبره به أنفه، هو كيف يمكن للمرء أن يدخل إلى ما يبدو غرفةً عاديةً ولا يخرج منها أبداً. ثمة أمرٌ يجري في تلك الغرفة، أمرٌ لا يمكن ذكره: هنا تُنتزَع الروح من الجسد؛ وتطفو برهة وجيزة في الهواء، تلتوي؛ ثم تنطلق مبتعدة وتختفي. سوف تظل هذه الغرفة عصيّة على إدراكه، هذه الغرفة التي ليست مجرد غرفة وإنما ثغرة يتسرّب المرء وهو داخلها من الوجود.

ذات مرة قالت بف شو «*إن العملية تغدو أصعب باطراد*»، أصعب، وأيضاً أسهل. إن الإنسان يتعوَّد على الأشياء التي تزداد صعوبة؛ ويكفُّ عن

الاندهاش من أنَّ ما كان صعباً صعوبة قصوى ما زال يمكن أن يزداد صعوبة. إن في استطاعته أن يوفّر الجرو، إذا شاء، مدة أسبوع آخر. ولكن لابد أن يأتي وقتٌ لا يعود في الإمكان تفادي الأمر، حين سيضطر إلى أن يُحضره إلى بف شو في غرفة عملياتها (ربما سيحمله بين ذراعيه، ربما سيفعل ذلك إكراماً له) ويداعبه ويباعد ما بين الفرو لكي تعثر الإبرة على العرق، ويهمس له ويشجعه لحظةَ تُربطُ قوائمه، وهو في حيرةٍ من أمره، ومن ثم، بعدما تخرج الروح يطويه وينقله داخل كيسه، وفي اليوم التالي يسلّمه لألسنة اللهب ويتأكد من أنه قد احترق، احترق تماماً. سوف يفعل هذا كله إكراماً له عندما يحين دوره. سوف يكون صغيراً جداً، بل أقل من صغير: لا شيء.

عبر غرفة العمليات. سألته بف شو «أكان هذا الأخير؟»

«هناك واحد آخر».

فتح باب القفص. قال: «تعال» ثم انحنى، وفتح له ذراعيه. هزَّ الكلبُ مؤخّره المُعاق، وشمَّ له وجهه، ولعق وجنتيه، وشفتيه، وأذنيه. لم يفعل أي شيء ليوقفه. «تعال».

حمله بين ذراعيه كحَمَل، وعاد فدخل غرفة العمليات. قالت بف شو «ظننت أنك ستوفّره مدة أسبوع آخر. أتتخلّى عنه؟».

«نعم، إنني أتخلّى عنه».

انتهى

كان دافيد لوري، الأستاذ الجامعي، في منتصف العمر ومُطَلّقاً لمرتين، عندما وقع في الخزي. فبعد أن كان مُدرساً لمادة الشعر الغزلي في جامعة كيب تاون، أقام علاقة حب عاصف مع طالبته.

أصل المشكلة أنه حوكم أمام لجنة خاصة. كانت رغبته في الاعتراف بما اقترفه تتعارض مع رفضه للإنصياع للضغوط لإعلان توبته علناً أمام الجميع. قدّمَ استقالته وتراجع للاختباء في بيتٍ صغيرٍ منعزلٍ من أملاك ابنته لوسي.

ولبعضٍ من الوقت كان لابنته ولأنغام الطبيعة المحيطة به تأثير على حياته حيث وازن دواخله من خلالهما. كان يساعد في تربية الكلاب ويوزع المنتجات في السوق، كما كان يساعد في معالجة الحيوانات المصابة في أحد الملاجئ القريبة.

لكن توازنات السلطة في البلاد كانت تتهاوى مما أوقعه مع ابنته ليكونا ضحية لاعتداءٍ بربريٍّ مخزٍ، إلّا أن هذا الحدث هو ما جمعهما معاً وكان علاجاً لكل الأخطاء التي سيطرت على علاقتهما.

إن رواية **الخزي** من الكتب الرائعة لأنها مؤثرة ونادرة، إنها باختصار تحفة لا تُنسى.

ISBN 34100553
خزى
50.00 LE 34100553